

لا تعرفوا كلَّ شيء
حسين صالح

- ♦ المؤلف: حسين صالح
- ♦ العنوان : لا تعرفوا كل شيء
- ♦ الطبعة : الأولى 2022
- ♦ تصميم الغلاف: أحمد البباد
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢١ / ٢٣٩٣٣

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977 - 765 - 310 - 7

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

لا تعرفوا كلَّ شيء

حسين صالح

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

صالح، حسين
لا تعرفوا كلَّ شيء - حسين صالح
ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2022
480 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 23933 / 2021
الترقيم الدولي 7 - 310 - 765 - 977 - 978
1 - قصص
2 - العنوان

سلامٌ على حبيبي

من دونك

وحيدةٌ حتّى الثُّمالة. حزينَةٌ حتّى الثُّمالة.

ها أنا استطعتُ العيشَ من دونك، وها أنا أبذلُ جَهْدِي لأكتبَ لكَ
وعنكَ، ولأقنع نفسي أنَّ ربَّما للحياة معنى من دونِ أنفاسِكَ، وأحياناً
أقنعها أنَّك ما زلتَ جنبي وأني سأكلُمُكَ حالما أنتهي من الكتابة، أو
ربَّما سأستيقظ غداً لأجدك قد ضحرتَ من القبر وعدتَ لي.

أزورُ الأماكنَ التي ارتدناها معاً، وأحاول أن أفسِّر للنَّاس الذين لم
يسمعوا برحيلِكَ سببَ غيابِكَ، وكيف أنَّكَ تَعِبْتَ من الضوضاء واللغط
وذهبتَ لتستريحَ هناك. وكلُّ مرَّةٍ أخبرهم يفاجئني الخبرُ وكأني أسمعُه
لأوَّل مرَّةٍ.

منذُ رحيلِكَ وأنا أدور في عالمٍ مليءٍ بأضداده رغم فراغه.

الشمس هذا اليوم تلفُّ الكوْنَ بحنانٍ كشمس يومِ رحيلِكَ.. وقفتُ
عند باب مستشفى مدينتِنَا الجميلة مراتٍ عدة. أحاول أن أستجمع
شجاعتي، وأزور أماكنكَ الأخيرة فلربما أجدك متسكعاً هناك لألمسكَ
وأتنفَّسكَ.

كيف لك أن تموت في هذه المدينة الجميلة يا حسين؟ وكيف
اخترت أن تموت في غرفه رقمها ١٦ كرقم بيتنا الجميل السعيد وكرقم
الغرفة التي وُلِدَ فيها حبة قلبنا «تيم الله»؟

في ذلك اليوم، وفي الممرّ المفضي إلى غرفتك التي استبشرتُ
برقمها خيرًا، وأنا أحتُ الخُطى كصباح كل يومٍ مسرعةً للقائك.
أحسستُ بملاك الموت يُسرِعُ أمامي جدلاً. لامسني جلبابه الفضفاض
الأبيض برقة وحذر. حاولتُ أن أسبقه لأعترض طريقه وأمنعه من إنهاء
الحياة قبل أن تنتهي، ولم أستطع.

فتح باب الغرفة بهدوءٍ، ودخل عليك مبتسمًا.

كَمْ من شمسٍ ترَجَلتْ باكية حينها؟ وكَمْ من نجمة خَرَّتْ حزينَةً
يائسةً وقتها؟

بعدها...

رأيتُك ممددًا بسلامٍ بين الشراشف البيضاء. تعلو وجهك ابتسامةٌ
ملائكيةٌ ساحرةٌ وكأنَّك والموت في عناقٍ ووثاقٍ.
سلامٌ على ملاذٍ روحي.

الشمسُ غمرت الغرفة بدفءِ الأحياءِ وحنانهم وأنتَ ممددٌ ببهاءٍ
بين الشراشف البيضاء كقديسٍ بابلي.
سلامٌ على آخر وطنٍ.

ملائكةٌ وأمواتٌ يحيطون بسريرك جذلين لوصولك متحمسين
لسماع حكاياتك... سمعوا عنك الكثير، وارتقبوا وصولك. وأنتَ

مبتسمٌ سعيدٌ تسحرهم بصوتِكَ الرخيم وأحاديثك التي لا تُملّ منها؛
فأنتَ الأَجْمَلُ وأنتَ الأعْمَقُ.

أيُّ رحيلٍ هذا؟ وأيُّ جحافلِ حزنٍ استوطنتني؟

لم أَصدِّقْ أَنَّكَ سترحل بهذه السرعة بعد عِشْرَةِ دامت أكثر من ٤٥
سنة.. كنّا صورةً للبهجة والحياة لكنّكَ غدرتَ وغِبْتَ على غير عادتِكَ.
أنتَ الغياب وأنا الرماد والحنين والألم.

دموعي تحجّرت وصوتي مذبوحٌ... عالقٌ بين الفم والحنجرة
ليمزّق رثتي. أغلقتُ النافذةَ لعلَّ رَوْحَكَ الفارّةَ لبارئها تضلُّ الطريقَ
وتعود لي. عاتبْتُ اللهَ والملائكةَ، وبجزعٍ عصيّ على الفهم رفعتُ
ساعديكَ وطويتَهُما حول عنقي، واستنشقتُ رائحتَكَ بقوةٍ أحاول
أن أحفظها بذاكرتي ورثتي.. وهمستُ بأذنيكَ: لن أدعَكَ تبرح دمي يا
غائبي، خُذْ بيدي كما فعلتَ دائماً، ودعني أُولد للمرة الأخيرة.

روحي تتلوّى مختنِقةً بغيايِكَ، ولن أجدَ هواءً يشبه أنفاسَكَ
لأُستنشقهُ وأحيا، بل أنا من دونِكَ لا أقوى على تحمُّل شيءٍ ولا حتى
أنفاسي.

منذُ عرفتَكَ في بداية السبعينيات وأنا أُولدُ من جديدٍ مرّاتٍ ومرّاتٍ.
أيامُنَا وأعوامُنَا كانت ثورةً وثروةً من الجمالِ والحبِّ والمعرفة والتعلُّم..
كنتَ بوثقةٍ من العلم والمعرفة أنهلُ منهما من دون ارتواءٍ، وأُولدُ مجدداً
كلَّ يومٍ. كنتَ بداية حُلُمي وكلَّ وعيي وكنتَ الخِتام.

كنتَ تقول لي إِنَّ البَشَرَ ألوانٌ وأصنافٌ، وليس بالضرورة أن ننتقي
مَنْ هُمْ على شاكلتنا؛ فالمعرفة والعلوم موجودة حتى عند أكثر خلقِ الله
تفاهةً، والحكمة نستقيها أحياناً من فَمِ أكثر خَلْقِ الله جنوناً، والجمال
نلمسه في قلبِ أكثر الوجوه قبحاً.

المسافة التي تفصل بيتنا عن السوبر ماركت تقطعها مشياً بمدة
لا تزيد عن النصف ساعة، ولكنَّكَ كنتَ تعود محملاً بالوانِ القِصَصِ
والأحاديث عن ناسٍ التقيتهم برحلتِكَ القصيرة هذه. ذاكرتُكَ خَزِينٌ لا
ينضب من القِصَصِ عن عَجْزَةٍ وشبابٍ وطبيبٍ وزَبَّالٍ ومدرسٍ وفلاحٍ
وعاطلٍ وخريجٍ سجونٍ وكأنَّكَ الجاحظُ يا حسين، كنتَ بحوراً من
المعرفة لا تعرف الجَزْرَ أبداً وإنَّما تَمُدُّ وتمدُّ وتروي ولا تُغْرِقُ.

وبعد هذا كنتَ بوتقة للصفاء والنقاء، أتحَمَّمُ بها كلَّما عدتُ إلى
بيتنا لأتخلَّصَ ممَّا علقَ بي من شوائب البشر. كنتَ معي تأخذ بيدي
وتعمِّدني وترشدني لأولَدٍ من جديدٍ نقيَّةً.

كنتَ جميلَ المحيا، ومع الجمالِ سَكِينَةٌ وعِزَّةٌ نفسٍ ووقارٌ، دُمْتَ
الأخلاق، رخيم الصوت، عفيف النفس واللسان، طيب القلب، وفيّاً،
حديثك ساحرٌ وضحكك تُنْشِي القلوب كأنغام الوترِ.

تقدَّس المعرفة والعلوم وتحملهما في تواضُعٍ ووداعة. المسطرة
الوحيدة التي تقيس بها البشر هي صدقهم ونبُلُّهم.

لا تمقتَ شيئاً قَدَرَ مَقْتِكَ للكذبِ والرياء والاحتيال والتملُّق.
عِشتَ هادئاً ونبيلاً، ورحلتَ بهدوءٍ وصمَّتِ نبيلٌ كصمتِ العازفين

عن الضجيج. رحلت وصمت أفكارك الجميلة التي كانت تُسمع الأصم وتطربه.

أنا أعرف أنني معك أخذت من السعادة حصتي بل أكثر بكثير، لكنني الآن وقد رحلت ستغطيني الشوائب وتغيّر ملامحي، وسأموت من دون ولادة جديدة وسأبقى يتيمة، وسأحسد الموتى المُحلّقين حولك الذين يُولدون من جديد بأحاديثك ومعارفك.

تيم يتحدث عنك دون انقطاع، وأسمعه يكلّمك بصوت مسموع عن كل كتاب يقرأه أو كل خير يسمعه.. كل ما فيه هو بعض منك يا لون ورود حديقتي وعطرها.

لم تطلب منه أن يقرأ ويتثقف، ولم تجربره على أي فكر أو عمل. كنت تمارس أشياءك التي تحبها أمامه بعفوية وصدق فتعلم منك أن يكون الكتاب ملازمًا له، والمعرفة هي إيمانه ودينه من دون تشنج أو تزمت. كنت تقول بفخر وحب: «أعطيناه خير ما عندنا فأصبح خيرًا منّا».

وأنا ماذا أفعل الآن يا حسين؟ وبأي أرض سأجدك يا كُلي؟ وأنت ليس لك مثل وليس عنك بديل. ما من شيء حولي يشبهك، وأنا كطفل ضاع في زحامٍ ويبحث عن وجه أمه في كل الوجوه.

هذا الألم، هذا الحزن لا أستطيع أن أفارقه. لا أريد الانتقال منه. هذا الألم يرافقني منذ اللحظة التي أفتح فيها عيني إلى اللحظة التي أغمضها.. أحس براحة برفقته، وبث أعرفه وأخاف أن يغادرني؛ لأنّ اللحظة التي سيتوقّف فيها ألمي سأعلم أنّك رحلت وغادرتني.

قبرُكَ تحت شجرة بلوطٍ ضخمة فوق تَلَّةٍ تطلُّ على أرضٍ ساحرة،
السماء قريبة جدًا منك وكأنَّها بين الله وقبرك كلام... يا تُرى ماذا تفعل
أنت وأصحابك الموتى بكلِّ هذا الجمال وهذا البهاء؟

أزور قبرك كلَّ يومٍ وآخر... آتي إليك ولا أصل، وأقف عند قبرك
ولا أستطيع أن ألمسك أو أعود لأيماننا.

أقفُ عند رأسِكَ وأحدِّثُكَ كثيرًا.. وأنا يا صديقي لا أحبُّ أن أفلِجَكَ
في نومتيكَ الأخيرة وأنت تنام هناك غريبًا دون وصادتي، ولكنني تعيسةٌ
من دونِكَ يا حُلُمي، وكلَّما تذكرت لك جملةً ابتسم وأقول: «ما أجملك
يا حسين»، وعزائي الوحيد أنَّكَ لن تمرضَ بعد اليوم ولن تموتَ ولن
تشيخَ، وأني سألتقيكَ يومًا هناك وسأجِدُكَ جميلًا كما كنتَ وستتسع
روحي خارج قلبي المُتعب لتولد معك مرة أخرى جسدًا سعيدًا.

في الأشهر الأخيرة بدأتُ شاشة الكمبيوتر تتعبُك والكتابة ترهقُكَ،
ولأنَّكَ كنتَ تحب الناس والأصحاب والحياة والحكايات. رفضتَ أن
تركها وترك عملَكَ وتنزوي إلى ركنٍ وتتلاشى، فأصبحتُ أنا عينيك
وقلمك؛ أقرأ لك كلَّ المقالات التي تُبعثُ إليك، وأكتب ما تمليه عليَّ
من ردودٍ.

قلتُ لك مرة إنَّ مقالَكَ الأسبوعي بدأ يفقد الموسيقى التي كانت
تبعثُ من بين طيات سطره منذ أن بدأتُ أصابعي تسطُر ما تحمله
شفتاك؛ لأنَّ أصابعك الجميلة ما عادت هي التي تلمس الحروف
وتلوِّنها وتلاعبها وتراقصها.

وبالرغم من ألمي ولوعتي عليك إِلَّا أَنِّي كُنْتُ سعيدةً بدوري هذا
لأنَّ بصري وسمعي كانا يشهدان ولادة أفكارك قبل أن يراها الملاء، كُنْتُ
كالقابلة التي تتلقَّف المولودَ في لحظة الإعجاز الربَّاني قبل أن تطأ قدمه
العالم الجديد وتحمله بحذرٍ وحبٍّ وانبهارٍ ليراه الجمع المُنتظر.
قدري بقيتُ وحيدةً أسافر كلَّ يومٍ بين أوراقك وكتبك وأشياءك
الجميلة، أبحث بين طياتها وسطورها عن وجهك لألمسه، أو صوتك
لأسمعه...

ثم أجلس لأنتظر الأحلام وأستجديها لقاءً.

مع السلامة يا حبيبي، وفي أمان الله.

ملاحظة أخيرة: نسيْتُ أن أدسَّ نظَّاراتك في جيب كفنك عندما
قبَّلْتُك قبْلتي الأخيرة، ولست جنبك لأقرأ لك ما كتبت.. فعسى أن
يكون هناك من يعينك على قراءة ما سنكتب.

منى شبر

وينشيستر ٢٠-١-٢٠١٩

حسين صالح .. ذلك المغترب

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾.

إذن لا بُدَّ ممَّا ليس منه بدُّ. هكذا ببساطة وقع ما لم يكن في الحُسابان
قطُّ.

حسين صالح بكلِّ عنفوانه، بكلِّ تأريخه ومستقبله يُوارى الثرى مرّة
واحدة وإلى الأبد.

بكلِّ حواسه الممتلئة بالفضول والمعرفة والإنسانية يُوارى الثرى
مرّة واحدة وإلى الأبد.

فراقٌ ولا كالفرّاق، ما من لقاءٍ بعدَ اليوم، يا للهول: «الكلُّ باطلٌ
وقبض الريح».

أين عدالة الحياة إذن؟ وأي دموعٍ تلك التي «تشفي ولا تجدي» كما
يقول ابن الرومي؟

في مثل هذا الفراق الأبدي ما من مواساة أبدًا.
الموتُ جرحٌ أحشائيٌّ خاصٌّ لا يعانیه إِلَّا حامله. وكلُّ مواساة
نفالة، وكلُّ تطيبٍ خاطِرٍ فضلة.

يَتَّخِذُ الموتُ كذلك طابعَ المفاجأة دائماً، حتى لو كان متوقعًا. كأنَّه يقع لأول مرة فلا موت قبله، ولا موت بعده. هبْ زار عَجُوزًا «بلغ من الكبير عتياً»، لا فرق، فإنَّه يتخذ صيغة المفاجأة كذلك، وصيغة الغدر، لأنَّه استلابٌ أبديٌّ، يخلِّف فراغًا لا يُملأ.

بين مصدِّقٍ ومكذِّبٍ مات حسين صالح، وكأنَّ لا موت قبله، ولا موت بعده. وأنا لا أدري بأي كلماتٍ أبدأ.

مَنْ يُصدِّقُ أنَّ حسين صالحَ ببنيته الفارعة، وجسمه الرياضي المتناسق، قد اختفى؟ كيف توقَّفتُ تلك الحيوية التي لا تكلُّ؟ وكيف تعطلَّت خطواته المُفعَّمة بالحياة؟

مَنْ يصدِّقُ أنَّ حسين صالحَ بكلِّ علومه الموسوعية، وصوته الدافئ الهامس ونظرته العميقة الحانية قد امَّحى من الوجود مرَّةً واحدة وإلى الأبد. مَنْ يصدِّقُ أنَّ هذا الإنسانَ الممتلئَ بالبشرية، قد اكتفى من كلِّ ممالك الدنيا بمساحة تابوتٍ فقط.

المفارقة المشؤومة أنِّي اتصلتُ به في ذلك الصباح، أردتُ أن أهنته بالعيد.

– أهلاً عزيزي حسين

جاءني الجوابُ هذه المرَّة باللغة الإنجليزية وبكلمةٍ واحدةٍ، قال لي ابنه تيم Passed away: بوقارٍ إنجليزيٍّ، حزينٍ هذه المرَّة.

لم أكن أشعر بفجاعة هذا التعبير من قبل كما ينبغي، ولكنَّه الآن أصاب مقتلاً، فانهمر الدمعُ.

ومرّة واحدة شعرتُ أنّ شيئاً ما انثلم في حياتي «ولن يُعاد له سبك»
كما يقول المعري.

أردتُ أن أهتّ به بالعيد، فإذا التهتّة تنقلب إلى تعزية. أي محنة تلك
التي يُمحي فيها الحدُّ الفاصل بين التهتّة والتعزية. رحماك يا ربّ.
تعرفتُ على حسين صالح عَرَضاً في مكاتب الإذاعة البريطانية،
لفت نظري إليه بحرصه على الإنجاز، وجدّيته فيما ينجز. يتقصّى الخبر
مهما كان صغيراً، فيشبعه بحثاً وتمحيصاً.

يتعقّب الكلمة مهما كانت شائعة ومتداولة في القاموس تلو
القاموس إلى أن يقع على أسرارها. الإحاطة بالموضوع مهما بدا هيئاً،
جزءٌ أساسيٌّ من شخصيته وكأنّه بالفطرة.

فضوليّ لا يشبع. وقارئٌ نهَمَ دائمٌ التجدّد. وهو إلى ذلك متعدّد
المواهب Polymath.

كان لا يفرط بوقتٍ، ولا «يؤجّل عملاً إلى الغد»، همّة متواصلة
دونها همّة قفير نحلٍ.

ليس التسكّع، أو التبطّل بأي صيغة كان، من جغرافيته المعرفيّة ولا
من تأريخه الشخصي.

لا يتنازع أبداً. مهنّداً دائماً. إصغاؤه لما يُطرح عليه من أفكارٍ تشبّع
نسغ نباتي.

تمتّنت أواصرُ تعارفنا حينما كان يعمل مترجماً وإدارياً في صحيفة
عربية بلندن. كان يتميزّ بسعة معارفه وبتواضعه وخبرته العميقة

بالكمبيوتر. فلا عجب أن باتَ موضعَ ثقة زملائه لِمَا عَرِفَ عنه من دقة في البحث ورَقَّةٍ في التعامل.

كان حسين صالح موسوعةً من نوعٍ ما، يتحدَّث عن الرواية الإنجليزية باللباقة ذاتها التي يتحدَّث بها عن الشعر الجاهلي، ويتحدَّث عن شكسبير كما يتحدَّث عن مقامات بدیع الزمان الهمداني، يتحدَّث عن المغني الأوبرالي «جيلي» كما يتحدَّث عن داخل حسن وهو «يطحن بقايا روحه، يده تدوران فقط ولا تُسمع رجاه».

ذكرتُ له مرَّةً عَرَضًا اسم عبد الباسط عبد الصمد يوم جاء إلى بغداد بمناسبة وفاة الملكة عالية في أوائل الخمسينيات. كان مشهده جليلاً وهو يضع على كتفيه إزاراً أخضر مشبَّع الخضرة مهيباً. أذكر أنه قرأ في تلك التلاوة الآية التي أُستشهدتُ بها في بداية هذه الكلمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً...﴾ كان صوته يترقق بأعمق خشوعٍ وطمأنينة ومواساة.

وإذا بالصمت يرين على أنحاء صحن «الكاظمين» وكأنه في غيبوبة روحية.

قلتُ والشيء بالشيء يُذكر، أنا معجبٌ أشدَّ الإعجاب بتلاوة عبد الصمد لقصار السُّور. تصوَّرتُ أنني أجيء له بمعلومة جديدة عليه. قال لي حسين صالح: «وأهمُّ تلك التلاوات ما رتلَه بجامعة دمشق».

هكذا توسَّعت دائرة أحاديثنا، ولم يكن يخطر ببالي أن المقرئين -المصريين على الأخص- من اهتماماته أيضاً. ذكر عرضاً أن تلاوة المقرئ محمد رفعت لسورة مريم معجزةٌ صوتيةٌ. إنها هديلٌ بالكامل.

جَرَّنا الحديثُ إلى المقرئِ مصطفى إسماعيل وتلاوته العجيبة لسورة الضحى. أمَّا الأذان الذي يقرأه فلم أسمع شيئاً مثله بحياتي.

باختصارٍ، كان حسين صالح جديرًا بالاغتراب، بكلِّ ما يعنيه الاغتراب من الإصغاء التام لأصغر معلومة، ومن التواضع مهما فاض علمُه، ومن التأقلم لفصول الحياة خريفها وربيعها، صيفها وشتائها.

ولكن أهم ما تميَّز به حسين صالح أنَّه كان أواني مستطرقة يسعى إلى التساوي.

قلتُ له مرَّة: «هل أنت بحاجة إلى شيء من بيروت؟»، تردَّد وتردَّد بحياءٍ، وقال: «ليتي أحصل على ديوان الشنفرى»، ثمَّ تبسَّط في الحديث عن لاميَّته المعروفة بلامية العرب.

(أوَّل ما ميَّز هذه القصيدة الفريدة المستشرق البريطاني روبرت إيرونج، في كتابه الخطير «الليل والخيال والبيداء»، المأخوذ عن المتنبي).

لا بُدَّ لي من التنويه بموسوعيَّته في الشعر الحديث، في شتَّى البلدان العربية، من أحمد شوقي، وهو شاعره المفضَّل، إلى محمود حسن إسماعيل. أمَّا في النثر فله شغفٌ خاصٌّ بنجيب محفوظ، وطه حسين ولا سيَّما كتابه: «الأيام»، ومقالات جورج أورويل وروايته ذات العنوان العجيب: *Coming up for air* (شَبَّه أورويل عودته إلى ماضيه مثل صعود سمكة فوق سطح الماء لاستنشاق الهواء).

ما أريد أن أستخلصه أنَّ حسين صالح شجرة مثمرة عميقة الجذور، يتخلَّق بعمقها وصمتها.

لم يسرد ماضيه بأي مناسبة حسباً أو نسباً، ولم يتطرق إلى شهاداته الجامعية (عرفت من غيره أنه كان أستاذاً جامعياً بإحدى الجامعات البريطانية متخصصاً بالعلوم).

لا غرابة إذن أنني رغم طول السنين التي عرفته فيها لا أدري بأي مذهبٍ دينيٍّ يتمذهب، ولا لأي حزبٍ يتحزّب، ولا أعرف حتى المدينة التي وُلد فيها بالعراق.

نسيْتُ أن أذكرَ أنَّ لغة حسين صالح العربية، ولغته الإنجليزية، أختان بالرضاعة.

د. صلاح نيازي

مُثَقَّفٌ مَتمَرِدٌ وَرُوحٌ طَلِيقَةٌ

أول ما يُقال عن حسين هو أنَّه إنسانٌ ذو شخصية متميِّزة، وروح طليقة free spirit تتجول في مختلف فضاءات المعرفة؛ في الأدب وفي الشعر وفي الموسيقى. في الفن وفي التاريخ وفي السياسة وفي الفكر المعاصر، فأَيُّها ما طرقت الحديث معه فيه فاجأك بمعلوماتٍ وبعلمٍ وبمعرفةٍ. بل يفاجئك بذلك وكأنَّه قد كان لتوّه يقرأ أو يراجع في تلك المعلومات.

* كان يمتلك ذاكرةً موسوعيةً، انسيكلوبيدية encyclopedic memory. وبإمكانه الانتقال من مجالٍ الى آخر بكلِّ سلاسة وسهولة. وتظلُّ أفكاره مرتَّبةً وألفاظه نفاذة ودقيقة.

* هذه «الروح الطليقة» يصاحبها استقلالٌ في التفكير، ويصحبها قدرٌ كبيرٌ من السخرية والتهكُّم بكلِّ شيءٍ، أي ما يُطلق عليه في الإنجليزية بـ cynicism. وسخرية حسين كانت من النوع الصحي جدًّا، أي healthy cynicism. السخرية التي لا تجرح شعور الشخص أو تُهينه، ولكنها تستهدف الأفكارَ، ولا تترك في النفس غلاً أو كراهية. فكانت روح الفكاهة sense of humor تسعفه في كلِّ حينٍ.

* وممّا تلمسه في حسين أنّه لا يكره أحدًا ولا يبغض أحدًا. فهو قد تزعجه أو لا تروق له أفكارك، ولربّما يواجهك بالفاظٍ حادّة، ولكن لا يُبقي ذلك شيئًا في نفسه تجاهك كشخصٍ. فهو ذو شخصيةٍ صريحةٍ منفتحةٍ بالفطرة بغض النظر عن هويّة الذي يقابله أو يحاوره أو يتعامل معه. سواء كان رئيسًا أم أعلى درجة مهنيًا أو اجتماعيًا.

* كان يبغض تصنيفَ النَّاسِ. هذا رئيسٌ وهذا ضيعٌ. هذا كبيرٌ وهذا صغيرٌ. هذا إسلاميٌّ وهذا علمانيٌّ. هذا ليبراليٌّ وهذا وجوديٌّ. وذاك قومي، وهذا سُنيٌّ وهذا شيعي، وهذا مثقفٌ، إلخ. وكان يكره صفةً مثقف هذه كتصنيفٍ له هو شخصيًا. كما كان يكره تقدّيس الأشخاص كذلك مهما كانت مكانة الشخص المعنويّ عالمًا أم أدبيًا أم زعيمًا، إلخ. فالتصنيف في ميزان حسين - كالتقدّيس - يقلّل من قيمة الإنسان، ويحيله بضاعةً تُباع وتُشترى بالولاء والنفاق والتملّق.

* حسين شخصٌ يبغض السلطة ولا يخشاها. وهو ضدّ ما يُعرَف بـ «المؤسسة» أي The establishment. ولن تجد حسينًا يومًا ما يسير في أي «جوقة» مهما كانت Not a bandwagon man. فهو على ثقةٍ عالية في نفسه وبقدراته، وإن كان على خجلٍ. بل تستهويه روحُ الشقاوة وروحُ المشاغبة والتمرد، فلا يتردّد في رمي الحجر في المياه الراكدة، وأن يستفزّ مَنْ يمثلُ السُّلطة؛ فكان يمقت من يزاولون السُّلطة خاصّة من يسيئون مزاولتها أو استعمالها، فهو لا يشعر بأنّ عليه واجبَ الولاء لأحدٍ، فردًا كان أم مؤسسة أو أي التزامٍ تجاه سُلطة حاكمة أو ما شابه ذلك.

* ولعلَّ مجيء حسين إلى بريطانيا في فترة مبكرة من عمره، وفي فترة كانت بريطانيا ما زالت تحتفظ ببعض من صفات الشخصية الإمبراطورية للدولة فلم تلوّثها كثيرٌ من الأفكار والمؤثرات الأخلاقية والسياسية التي جاءت فيما بعد، كالعنف السياسي والأنانية وغياب التسامح والحساسية المفرطة اتجاه الأجانب. وقد كنتُ قبل يومين في حديثٍ مع أخٍ قريبٍ جدًا من حسين، فذكرني أنَّ الإنجليز فيهم بعضُ صفات الروم التي أشاد بها عمرو بن العاص في حقهم قبل ألف وأربعمائة سنة، حيث وصفهم بأنهم: «أحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وأرحمهم لمسكينٍ ویتيمٍ وضعيفٍ، وأمنعهم من ظلم الملوك». فقبل أربعين سنة كانت الحرية والعدل والكرامة والتسامح وتقبُّل الآخر قيمًا يفخر بها البريطانيون. والذي يهمننا هنا أنَّ حسينًا -أسوة بأقرانه الشباب العربي الذين استقبلتهم بريطانيا في فترة السبعينيات وما قبلها- ذاق طعم الحرية، واختفت السلطة الجائرة بمختلف مكوناتها من حياته. كما تحرَّر إلى حدٍّ كبيرٍ من وطأة القبيلة والعُرف والدين وسطوة المجتمع. فكلُّ ذلك فتح له آفاقًا واسعة، وعمَّق في شعوره قيمَ الحرية والقدرة على النقد والانتقاد والموضوعية. وأصبح تصوُّره لرجال الفكر والسياسة والنفوذ تصوُّرًا مفعماً بالإعجاب والإكبار، وبالسخرية والشكِّ كذلك. فكلُّ إنسانٍ له ما له، وعليه ما عليه.

* وكان حسين إنسانًا صاحبَ هويَّة واضحة وولاءٍ متينٍ. فهويُّته عربية إسلامية عراقية مشرقية. وبقدر انفتاحه علي الأدب العربي، (من

الأغاني والجاحظ وحتى طه حسين ونجيب محفوظ)، والشعر العربي والتاريخ العربي الإسلامي. كان مفتوحاً على الثقافات والآداب الأخرى، ويشهد على ذلك غرائمه بالموسيقى الكلاسيكية الأوربية ولوعه بالأدب الإنجليزي وخاصة مدرسة P. G. Wodehouse التي تكون فيها عددٌ من السياسيين والمفكرين والمثقفين الإنجليز. وبتاريخ الفن الغربي، وبتاريخ أوروبا (فنًا وسياسة ودينًا وثقافة) منذ القرون الوسطى.

* وكان حسين يمتلك عفةً نفسٍ عالية.. ولكنه لم يكن مغرورًا. وكان في مكان عمله يصادق الفرّاش والمنظّف وموزّع البريد، ويتواضع للناس من دون ترفعٍ أو تكلفٍ. وهو غير apologetic. لا يتملّق أحدًا. أي لا يحتاج لتبرير مواقفه في كلّ مرّة لأنّها مواقف صادقة لا تصنّع فيها، صادرة عن اقتناع، بغض النظر عن خطئها أو صوابها.

* ويجمع هذه الصفات كلها شيءٌ مهمٌّ وهو القدرة على ما يُعرَف بالإنجليزية بـ lateral thinking. أي التعامل مع الأفكار والقضايا بأساليب غير تقليدية أو غير معهودة، والخروج عن الأسلوب العادي non-conventional. دائمًا يأتيك من زاوية مختلفة. وحسين عنده شيءٌ من الإبداع في أسلوب تفكيره وطريقة عمله، سواء كان ذلك في اختيار الألفاظ والكلمات في مقالاته، أم في اختيار الصور أو المؤثرات الصوتية في برامجهِ الوثائقية. فتجده مُطلق العنان ليس عليه قيودٌ في التفكير أو في أسلوب النظر إلى الأمور أو الخيارات المتاحة له.

* طبعًا هناك دائمًا في مثل هذه اللحظات احتمالُ النزوع نحو المبالغة وسيطرة العاطفة والرومانسية. إلّا أنّني أوّل من يعترف أنّه كانت

لحسين أخطاؤه ونقاط ضعفه، فقد كان عنيداً معتزاً برأيه، وكان صعبَ
المِرَاس لا يتخلّى عن مواقفه بسهولة.

* وهذا ما يجعله نسيجاً وحده. شخصاً غير قابلٍ للاحتواء أو
الخنوع في إطارٍ تقليديٍّ معهودٍ **difficult to pigeonhole**. فكُنَّا
نقضي الأوقات الطويلة في الحديث على التلفون. وكُنَّا حين نلتقي..
نلتقي لساعاتٍ طويلة، وفي كلّ مرّة كان يفاجئني بمعلومة أو معلومة،
أو بنظرة جديدة لم ألتفت إليها من قبل، ولم أتخيّل أنّه يعرفها، وهذا ما
سأفتقده بشدة في غيابه.

اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنّا بعده.

عاشور الشامسي

مَنْ سَيَكْمَلُ حِكَايَاتِكَ؟

نتشابك أنا ومنى في الكثير من الأشياء، أهمُّها الحب والفقدان، وحب اقتناء الأشياء التي لها مدلولٌ يتعلَّق بالحب أيضًا، خاصَّة الأشياء التي تضفي جمالًا وإشراقة على البيت الذي نترك في كلِّ زاوية منه معنًى أو قيمة لمفهوم الاستقرار، كما أننا نعشق التدخين لأنَّنا نستنشق الحياة ونزفر البغض والكراهة والخديعة.

ومن المفارقات الموحَّجة في علاقتنا أنَّ عيد ميلاد حبيبي وزوجي فائق ووفاة حبيبها وزوجها حسين بنفس التاريخ، لذلك تذهب كلُّ منَّا باتجاه قلبها، حيث الثرى الذي ضمَّهما، واحدة تستذكر الفراق السريع، والأخرى توقد الشمع لعيدٍ لن يحضره المُحتفى به.

تعرَّفتُ على حسين عبر هذا التشابك، عبر علاقتنا التي استمرَّت لأكثر من خمسٍ وأربعين عامًا. لم أشك أبدًا في دقة اختيارها هذا الشريك، الذي منحها الكثير من الحبِّ، وصقل فيها كلَّ شوائب الحرمان ووجعه، كان صفُّها المدرسي الذي لا تملُّ منه أبدًا، وعندما التقيته، عرفتُ سرَّ الجوهر في تماسُّك تلك العلاقة، لأنَّه، حسينا، لا يكف عن إضفاء قيمة وهيبة على كلِّ ما في الحياة، ومنى تردَّد دائمًا:

هو يجدُ المعرفة عند أبسط الناس، وهو كذلك حقًا، فمجالسته لها قيمةٌ معرفية، سواء وهو يتكلّم، أو حتى وهو ينصت للآخر؛ لأنّ تفاعلَ تقاطيع وجهه مؤثّرٌ لأهمية الحديث أو العكس.

عندما سمعتُ خبرَ رحيله، شهقتُ بدلًا عن منى وبكيتُ لها؛ لأنّي عرفتُ أي فاجعة ستعيش، وأي فقدانٍ موحشٍ سيلفُ حياتها لزمنٍ طويلٍ، والفقدان لا يتشابه عند الكلّ؛ لأنّ عمق العلاقة وغنى الحبّ فيها يحدّد حجمَ ألم الرحيل وغزارة الدمع وربما جفافه، لشدة الوجد والوحشة بعد أن كان الاثنان صورةً كاملة، فأمست بعد رحيله، صورةً ناقصةً. روحٌ غادرت مسرعة وتركت حشراتِ الفراق في حياة من بقي.

رحيل حسين لا يشبه أيّ رحيلٍ عند منى؛ لأنّه النبضُ في قلبها المنكسر، ولأنّه الحسّ الكوني في فراغها الذي كان، أو الذي صارت عليه، كانا الكلّ، وبعده صارت الجزء المنقوص، وتائهة في زحمة حزنها.

كيف يكون العدل كمسمّى عندما يخلع قسرًا نصفك، ويتركك تبحث في الأماكن والتفاصيل عن هذا الذي استقرّ تحت ثراه وأنت تدور باحثًا عن كلماته، ضحكته، حيويته التي ترك آثارها في ركنٍ يشهد على لحظاتٍ شكّلت معًا حياة سنين طويلة وبعيدة، وتأتي تلك اللحظة كغولٍ ملفّعٍ بالسواد فتقتلع القلبَ وتبقي نزفه ووجعه.

من يجالس حسين لا يمكنه أن ينسى ضحكته وهو يروي حكايات تنقلك من زمنٍ لآخر، ومن معرفة لأعمق منها، فهو يخلّق بين الشعر والموسيقى، وبين تاريخٍ لا يُصدّق وجغرافية لا تكذب أبدًا، بين علمٍ

وفلكِ وليعود ليتحدّث عن مشاكسات الأطفال والأعيهم التي تُذهلنا.
حسين متنوعٌ وواسعٌ ويمتد إلى أبعد مدى، ولا ألوم ضياع شريكته بعد
أن ضاق بها المدى.

حسين، صديقي الذي أنصت له كثيرًا، مَنْ سيكمل لي حكاياتك؟
لأنني ما زلتُ أنتظر نهاياتها كلّما زرتُ منى في بيتكما الذي غاب عنه
الكثيرُ.

سعاد الجزائري

لا تعرفوا كلَّ شيءٍ

سُئِلَ أَعْرَابِيٌّ

النحو العربي أصعبُ نحوٍ في العالم. هذا بتصنيف الفاهمين دولياً. وأعتقد أنني أعرف لماذا. أظنُّ أنه عندنا في تاريخ النحو حالة لا تشابه لغة أخرى. وهي أنَّ النُّحاة لدينا أوكلوا شأن النحو وقواعده إلى أي أعرابي «صايع» يصادفونه.

تجدد مثقفًا هائلاً مثل الأخفش الكبير، أو المتوسط أو الصغير فهم ثلاثة، يسأل الأعرابي الذي يقتاد بغيره المحمّل بملح الصحراء أو تمر الواحات للبيع في الحواضر.

الأعرابي بطبعه حذرٌ وماكّرٌ عند التعامل مع أبناء المدن، يخشاهم ويتعامل معهم بكلِّ ما لديه من حيلةٍ ويجيب عن أسئلتهم بشيطنة.

أنا لا ألومه. يضع المثقف اللغوي قاعدةً ثم يروح إلى الأعرابي فيخربها وتُضاف استثناءاتٌ وأشياءٌ.

والأعرابي هذا ناقدٌ فنيٌّ أيضاً. يسأله المثقفون في أمرِ المفاضلة بين الحسين بن الضحّاك وأبي نواس، مثلاً. شاعران في غاية التعقيد من بغداد، سرّة الدنيا وحاضرتها المتطورة جدًّا عن سواها. الرأي النقدي يؤول إلى أعرابي صايع كما ذكرنا.

العرب في لندن يحملون في الـ «دي إن إيه» الذي لديهم هذا الإعجاب بمن هو إنجليزي أصيل وبالذات أقلهم ثقافة ودراية؛ سائقو التاكسي اللندنيون والزبّالون. يستأنسون برأيهم في أمور اللغة الإنجليزية والنحو الصحيح ونقدِهم للأفلام والمسرحيات والكتب.

كلّما يقول لكّ عربيٌّ في إنجلترا إنّه سأل إنجليزيًّا فاعرف أنّه سأل واحدًا من هذا الصنف، أو في أحسن الأحوال فرأشًا متواضعًا في الدائرة التي يعمل فيها.

وقع بين يديّ قبل سنواتٍ كتابٌ في النحو من أبسط وأوضح ما قرأتُ في قواعد العربية. واضعه فقيهٌ من الأندلس اسمه ابن مضاء القرطبي، والكتاب اسمه «الرّدُّ على النُّحاة». فيه إبطالٌ كاملٌ تقريبًا للعامل. يعني كتابًا مكتوبًا مثل بني آدم.

فكرتُ في أمر ابن مضاء القرطبي وعذوبة النحو ويُسره عنده. هل كان واضحًا لأنّه ظاهريٌّ لا يسرّف في التأويل، ربّما. يتخلّص من كلّ الغثاء في جملة «كان زيدًا نائمًا» ولا يذهب إلى اسم كان وخبرها وكيف نرفع ثم نصب.

ويقول إنّ زيدًا فاعلٌ ونائمًا حالٌ. هكذا لا فعل ناقصٌ ولا اسم وخبر. فعل ثم فاعل ثم حال. ثم انتبهت إلى السبب الحقيقي في الوضوح وعدم اللبس.

العلة هي أنّ ابن مضاء عاش ومات في قرطبة في إسبانيا، وبهذا لا يوجد أعرابيٌّ. كلّ ما هناك خارج المدينة فلاحون إسبان يغنّون ويرقصون وهم سكارى في الغالب. وبهذا لم يسأل أعرابيًّا يشيع الارتباك في اللغة. في الأندلس لا يوجد: «سُئِلَ أعرابيٌّ».

المصعد ومنطاد موباسان

حدث في ذاتِ أربعاء أَنِّي تَلَقَّيْتُ دعوةً عاجلةً ومُلِحَّةً لحضور مؤتمرٍ لم أفهمه. المؤتمر موضوعه غريبٌ مكوّنٌ من كلمتين، أولاهما عقيدةٌ والثانية نقطةٌ في البوصلة. ذكّرني باسم محلٍّ في علاوي الحلة في بغداد اسمه مخزن الساعة والصحراء. هذا المؤتمر بتلك الغرابة اسمه «الإسلام والغرب». يعني مؤتمر الدين والنقطة في البوصلة. ساقني الفضولُ إلى قبول الدعوة. سألتُ أحدَ القائمين على الأمر، فقال لي: لا أدري لماذا استضافوك؟ لكنّ حدسي هو أَنَّهُم فعلوا ذلك من باب الوجاهة. قلت: وما الوجاهة؟ قال: عندما يتوجّه الخاطبون لطلب يد فتاة يأخذون معهم شخصًا حسنَ الملبس والهيئة وحسن الكلام، رغم أَنَّهُ ليس من موضوع الخطوبة في شيء.

قَبِلْتُ التفسير. شاركتُ في بعضِ الجلسات وأنا أفكّر في مواضيعٍ أخرى، منها حكاية المصعد. نزلنا في فندقٍ راقٍ وبه ثمانية مصاعد تتخاطف مثل النيازك. لا تنتظر أكثر من عشر ثوانٍ. ومع ذلك تجد النزلاء العرب يلجؤون أحدها ويُبْقُونَ الباب مفتوحًا عنوة صارخين: انتظر حتى يأتي زيدٌ. ويصرخون بضراعة: زيدٌ، زيدٌ أين صرت،

والباب يحاول أن ينسدَّ لكنَّهم يتصدُّون لمحاولاته بأجسامهم ويمكن بأرواحهم. يتصرَّفون كأنَّ المصعد آخر قافلة سترحل إلى مكة، ومن لا يلحق بها سيحجُّ بعد عام. أو كأنَّ المصعد هذا آخر منطاد إجلاء من باريس لدى حصار الألمان للمدينة في ١٨٧١.

مشهدُ تدافع وتمسُّك رهييبين يصفُهما موباسان في رواية نسيْتُ اسمَها. كلُّ هذا وزيدٌ لا يريد أن يلتحق بالقافلة. كلُّ هذا وهناك مصعدٌ كلُّ عشر ثوانٍ. كلُّ هذا وباب المصعد يحاول جاهداً أن يؤدي وظيفته بأن ينغلق.

أبواب المصاعد تحب أداء عملها بأن تفتح وتنغلق. عندما يُغلق المصعدُ بابَه أتخيله يتسم ابتسامة رضا عن الذات ينطلق بعدها سعيداً واثقاً. لعلَّكم لم تلاحظوا ابتسامة الظفر والرضا عند المصعد حين إغلاق الباب. لذلك عندما يحاول أصحاب زيدٍ صدَّه عن أداء مهمته يزدادُ شراسةً في محاولة الغلق، فيزداد أصحابُ زيدٍ وحشيةً واستماتةً. لا يريدون حرمان صاحبهم من بلوغ منطاد النجاة أو قافلة الحج الأخيرة.

استخلصتُ من كلِّ هذا أنَّ العربَ غيرُ مقسومٍ لهم التحرك عمودياً ضمن مبنى من طوابق. وتذكرتُ كيف أنَّ رجلاً في الفسطاط في أوائل سني فتح مصر ابتنى منزلاً من طابقين. فظنَّ رفأقه به الظنون واشتكوه فصدرت أوامرٌ بهدم بيته، يستأهل.

في استراحة المؤتمر كان الحديثُ يدورُ مستعراً عن سُنَّة التدافع وصراع الحضارات. طُلب رأيي فحكيتُ لهم عن المصعد ورأيي فيه،

رَبِّمَا تَدَاعَيْتَ بِسَبَبِ كَلِمَةِ التَّدَاوُعِ. ضَحِكُ الْجَمِيعِ إِلَّا وَاحِدًا، وَهُوَ مَفَكَّرٌ
إِسْلَامِيٌّ كَبِيرٌ حَقًّا، ضَحِكُ وَقَالَ لِبَقِيَةِ الضَّاحِكِينَ هَذَا كَلَامٌ ظَرِيفٌ لَكِنَّهُ
عَمِيقٌ. وَأَوْصَاهُمْ بِتَدَبُّرِهِ، فَصَرْتُ صَاحِبًا لِدَٰلِكَ الْمَفَكَّرِ بَقِيَةِ الْمُؤْتَمَرِ،
وَأَنَا مَمْتَنٌّ إِلَى الْيَوْمِ مِنْ وَضْفِ كَلَامِي بِالْعَمِيقِ.

الممسحة سلاحاً

كنتُ في بيروت أزور مفكراً بمكتبه في صحيفة معروفة. المفكرون لديهم مكاتب يمارسون فيها التفكير. وأنا طوال عمري أودُّ لو أشتري لوحةً كتلك التي عندنا في العراق يعلّقها أصحابُ المتاجر زينةً وحكمةً مكتوبة بخطِ الثلث ومُغطاة بلوح زجاج ومُحاطة بإطار مُذهّب. اللوحة تقول بفعل الأمر: لا تفكّر، لها مدبّر.

الأمر بـ «لا تفكّر» مكتوبٌ ببخطِ عريضٍ مهيمن، ثم تمضي العبارة لتوضّح ببخطٍ أصغر: لها مدبّر. هذه الحكمة تليق بمكاتب المفكرين حتماً، لكنك لا تجدها إلا عند الإسكافي ومُصلِح الساعات وبائع الخردوات وغيرهم، أي فقط عند الذين لا يحتاجون إلى النصيحة العظيمة: لا تفكّر.

تأخّر الوقتُ بنا وفاتَ الغروبُ ودخلَ الليلُ. ودخلتُ امرأةً تحمل سطلاً وخرقة مسح مثبتة في أسفل عصا طويلة وراحت تمسح البلاط. توجّهتُ إلى حيثُ أجلس، وقالت بلهجة آمرة لا تناسب موقعها: ارفع قدمك. رفعتُ اليسرى فقالت بامتعاضٍ وبنفسِ اللهجة المُتسلّطة: والأخرى.

جلستُ ورجلاي مرفوعتان بوضعٍ مهينٍ ومزِرٍ. لاحظتُ أَنَّ السيِّدة المنظِّفة أطالتُ التنظيف في تلك البقعة، وأنا لا أجرؤُ على إنزال رجلي. ثم مضتُ إلى حيث يجلس بقية المفكِّرين من حواربي صاحب المكتب وفعلتُ بهم نفسَ الشيء. انتبهتُ إلى أَنَّ المرأة عندما تمسِك ممسحةً تصيِّرُها سلاحًا للثأر من الرجال. ثأرٌ قديمٌ تحمِلُه بناتٌ جنسها منذ أن كان الرجال يسحلُوهُنَّ من شعورهنَّ في عصر الكهف، رغم أنَّي لا أصدِّق حكاية عصر الإقامة في الكهوف.

أذهبُ إلى مصرَ وأحْمِنُ أَنَّ كهوفَ مصرَ كلَّها لا تكفي لإقامة سكان شارع البادية في مصر الجديدة. لا بُدَّ أنه كانت هناك أزمة كهوفٍ؛ فإنَّ أزمة الإسكان في مصر ليست جديدة.

قلتُ فكرتي عن الثأرِ والممسحة فامتعضَ المفكِّر الكبير لا لشيءٍ إِلَّا لأنَّه لم يفكِّر فيها. وهذا خطأ لا ترتكبه في حضرة المفكِّرين. لا تقولوا فكرةً لمَّا حة ومُضحكة فسيغضب لأنَّه لم يفكر فيها. التفكير حكرٌ عليه.

في البيت، وأينما تكون جالسًا لدى حضور الهوفر (المكنسة الكهربائية) ستتجه المرأة بحقدِها التاريخي إلى حيث تجلس، وستقول بلهجةٍ أمرَّة: ارفع رجلَك، وابدأ الفاصل الكوميدي، والمُضحك فيه أنتَ ورجلك المُعلَّقة في الهواء بتلك الطريقة المُهينة.

ولا تنسَ أَنَّك في المطبخ أيضًا تجعلُك المرأة تحسُّ بالدُّعر المضحك. أينما تقف ستقول لك: ابعد عن هذا الدُّرج أو ذلك الدُّولاب. ستكون في حاجة إلى شيءٍ لا يكون موضوعًا إِلَّا حيث تقف

أنت لتأمرَك بالابتعاد. تسلَّم بالأمر وتقف عند باب الثلاجة فيتضح أنَّها تريد شيئاً منها لحظة لجوئك إلى حيث الثلاجة طلباً للأمان، لائذاً من مواقع الأدراج والدواليب.

الأسبوع الفائت صارحتُ زوجتي بأفكاري هذه فابتسمت بمكرٍ واعترفت، تقريباً، بصحة ما جاء في أعلاه، وبأنَّ المكنسة الكهربائية سلاحٌ في معركة الجنسين.

الزقزقة الإباحية

سأقتني قدمائيّ المُتعبتان إلى مقهى عشوائيّ في جبال العلويين
قرب اللاذقية. النادل، وهو نفسه صاحب تلك المؤسسة، لم يكن عنده
زبونٌ يناكفه غيري. فراح يحدّثني عن العقارات هناك.

قال إنّ المنطقة يسودها الهدوء، هكذا بمطّ الواو لدى نطق
كلمة هدوء كما يفعل العرب كلهم ودائمًا للتعبير عن السكون المُطلق.
وقال: لن تسمع هنا غير زقزقة العصافير. لا يعرف أنّ أكثر المخلوقات
التي تزعجني هي العصافير وزقزقتها، ولأوضح.

عندنا في بيتنا، جنوب إنجلترا، حديقةٌ جميلةٌ يسودها الهدوء
والصمتُ المُطلق. تأتي العصافير في موسميها وتنتشر في أرجاء
الحديقة. تجلس ستة عشر منها على أغصان شجرة الإجاص، وعشرة
على شجرة الغار وثُلة على إيريال التلفزيون ومجموعة عند المدخنة.

تتجاذب أطراف الزقزقة بشكلٍ عجيبٍ. الذي يجلس في شجرة
الإجاص لا يتحدّث إلى الآخر بالقرب منه، بل يخاطب واحدًا جالسًا فوق
المدخنة، والذي فوق المدخنة يحدث من على شجرة الغار، وهكذا.

لا أفهم منطق الطير مثل فريد الدين العطار. لكنني واثقٌ أنّ كلامها إباحيٌّ وغيبيّ التعبير عنه علناً وبهذا الصوت الزاعق. كله دعواتٌ إلى التنازل وقلة الأدب. كلّها فاجرة ما عندها مسحةٌ من الحياة. كلّ هذا في حديقتي.

تصوّروا لو أنّ البشرَ في المقاهي والبارات يتحدّثون كلّ واحدٍ إلى أبعد شخصٍ عنه. الذي عند المدخل لا يخاطب إلا من في قعر المحل بصوتٍ زاعقٍ، والذي في القعر يكلم من وسط المحل. لا يوجد اثنان جالسان إلى جنب بعضٍ يتحدّثان، والحديث كلّهُ دعواتٌ إلى قلة الأدب.

هل عرفت إنساناً يبني بيتاً كاملاً من الحوائط حتى الأبواب والشبابيك بأن يسرق كلّ ما يحتاجه للبناء من أملاك الآخرين؟ هكذا تبني الطيورُ أعشاشها. البناء والأثاث كلّهُ سرقة ودون خجلٍ. تنبش العشب لتقتطع أجزاءً منه للبناء والتعمير. تسطو على الأغصان والزهور وقطع من لحاء الأشجار لبناء عُشِّ الزوجية وتنشئة الصغار. تتعامل مع حديقتنا على أنّها بوفيه مفتوح. تأكل من كلّ شيءٍ دون استحياءٍ أو طلب إذنٍ أو ترخيصٍ.

هكذا تأكل بذورَ الورد وبراعمَ أزهار الإجماص. وحين ينضج الإجماص وتسقط ثماره على الأرض تنقرها بمناقيرها لإحداث ثقبٍ تتسلّل منه بكتيريا الهواء ليتخمّر ويصبح كحولياً ثم تأتي لتسكر به؛ ويزداد شبقها ودعواتها الإباحية تلك.

في السنين الأخيرة راحت تحاول تقليد رنة «نوكيا» المكونة من ثلاث عشرة نوتة. صارت تجيد الأربع نوتات الأولى. فبسبب الموبايل انتقل صوت رنة الهاتف إلى الطبيعة، وصار يُسمع في الحدائق والغابات. طبعاً شبقُها أدى بها إلى فهم الرنة على أنها دعوة جماعٍ.

صرت أخاف أن يرنّ هاتفي في الحديقة فيأتي عصفورٌ ملبّيًا ما يراه دعوةً إباحية فيقفز على هاتفي. حينذاك، وأتعهد أمامكم، سأكسر رقبتَه، يمينًا صادقًا. فأنا أذودُ بحياتي لصون عرض موبايلي.

أهل السنتين

الأطفال ليسوا ملائكة. محيي الدين اللباد صانع الكتب والرسام، صديقي الرائع الذي رحل، يقول عنهم إنهم «أشراز لكنهم غلابة». الجاحظ نفسه يقول: «ليس في الدنيا أشرُّ من صبي». يعني لا كرامة ولا مروءة ولا شهامة.

أنا أصلاً لا أراهم بشراً. كلُّ أطفال الحيوانات يبدوون أطفالاً للحيوان الذي يتحدرون من صلبه. ابن الفيل يبدو ابن فيلٍ وسيكبر ويصير فيلاً، وكذلك الحال مع ذرية الثعالب والأرانب وكلِّ شيء، ما عدا ابن البشر. لا أصدّق أنهم من نفس الفصيلة، ويبدوون فصيلةً أخرى لا علاقة لها ببني آدم. لا أتخيّلهم سيكبرون ويصيرون بشراً مثلنا.

ومن هؤلاء هناك أصحابُ السنتين. يدخلون السنتين ويمشون بطريقة رثّة لا تشبه مشية أي مخلوق. خطواتهم سريعة ومتهورة ومضطربة، يقطعون المسافة بين المقعد والطاولة ركضاً محمّوياً متعثّراً وكأنَّ الشرطة تطاردهم، ويصلون إلى مقصدهم ويمسكون بأي نتوء فيه ويتنفّسون بعمق تنهدات خلاص وسلامة.

تبدأ رحلة الشرِّ عند البيبي من الأسبوع الأول. يتصرَّفون بأشع من سلوك عُتاة الطُغاة في التاريخ، وبأسوأ من كاليغولا نفسه.

تتملَّقهم وتحنو عليهم فيديرون لكَّ ظهرهم، ويطلقون ريحًا في وجهك. لم يسجِّل التاريخ فعلًا مستهترًا كهذا لكاليغولا أو تيمورلنك. عندما يصيبهم أرقُّ لا يدعون أحدًا ينام. وهناك أيضًا الروال، هذا اللُّعاب السائل من زاوية الفم مثل حنفية لم تُغلق جيّدًا؛ ينزل منها خيطٌ من اللُّعاب لا ينقطع أثناء اللعب والحبو ولحظات التأمل. يبدأون استكشاف العالم والموجودات بالفم، يُدخلون فيه كلَّ شيء، ويقضمون بالثلة حافات الطاولات والكراسي والكتب.

التدرُّج في الشرِّ يتواصل ليليلغ غايته لدى الاقتراب من الستين. هنا تكتمل عندهم عُدَّة الشرِّ وأدواته. تراهم في الشوارع والأسواق والمنتزهات بكامل قيافتهم ولا تزال السدَّادة في فمهم على أنَّها مصاصة. حين الصراخ ينزعونها من فمهم أولًا مُصدِّرة صوتًا يشبه صوت نزع سدَّادة زجاجة، ويأخذون بالعويل والاستنجاد بالمارة لأسبابٍ كثيرة منها أنَّ أمهم تريد أن تجلسهم في مقعدهم أو تضعهم في عربة التسوق.

كنتُ أهاتف صديقًا وسمعتُ في الخلفية صُراخًا مستغيثًا لأطفالٍ يُذبِّحون. سألتُه، قال: هذان التوأم تغسل لهما أمهما. صوتٌ يشقُّ سكون الليل ويستدعي الجيران والشرطة. لكنَّ الشرطة لا تأتي ولا الجيران يتحركون؛ ذلك لأنَّ البشرية تحصَّن نفسها بتجاهلهم. لو صدَّقهم الناس لكانت الأم الحنون تقضي كلَّ ليلة في مركز الشرطة والتحقيق

جارٍ معها في تهمة الشروع في القتل. تجاهلهم يسعدني ويذكّرني أنّ
الدنيا ما زالت بخيرٍ.

وما يسعدني أكثر أنّ هناك في السوبر ماركت، في قسم مستلزمات
الأوغاد من حفاظات وغيرها، شيئاً يُسمّى زيت الأطفال. أراه وأبتسم
متذكّراً كيف يستخلصون الزيت بسحق الزيتون وهرسه في مطاحن
حجرية. عندها أبتسم متشقيّاً، وأنخيل كيف يستخلصون زيت الأطفال
في مطاحن حجرية.

دلاع وبنات، اممممم

الدلاع في العنوان يعني البطيخ في مصر والجَبَس في سوريا والرقبي في العراق. في المغرب العربي يسمُّونه الدلاع وأنا أحب هذا الاسم لأنَّه مشتقُّ من الجذر الثلاثي «دلع». تنوُّع الكلمات هذا يعني أنَّ هذه الفاكهة الشعبية الصيفية لها أسماءٌ كثيرة، ليست فضلى طبعاً لكنَّها أسماء دلع. يحبُّه أبناء العالم الثالث فهو مخلوقٌ لهم.

هو كبيرٌ جدًّا ولا تستطيع أن تفتح جزءاً منه. يعني التفاحة مخصَّصة لفردٍ واحدٍ، والمشمش له حباتٌ يمكن أن يأكلَ منها الفرد ما يريد ويحتفظ بالباقي. الدلاع على ضخامته يُفتح مرَّة واحدة، مثل عود الكبريت كما يقول يوسف وهبي في وصف شرف البنت.

الدلاع فاكهة الفقراء، وعوائل العالم الثالث كبيرة. الفقراء أكثر إنجاباً من الأغنياء، وهناك نظرية تفسِّر هذا بأنَّ للإنسان رغبتين أساسيتين: الطعام والتنازل. إذا كانوا محرومين من الطعام يسرفون في إشباع الرغبة الثانية، والعكس. هذه نظرية ظهرت قبل أكثر من عقدين وأنا لا أركن إليها، لكنَّها جذابة وتبدو منطقية. وقد استشهد صاحبها بإحصائياتٍ وأرقامٍ حول معدلات الإنجاب عند المتخمين والجاثمين.

لكنني لا أميل إلى تصديق هذه النظرية تمامًا ربّما لأنّها بسيطة جدًّا وواضحة جدًّا. لكنّها من نوع الفرضيات التي يحلو الكلام فيها، وتصلح لأحاديث ما بعد العشاء والثرثرة الأخيرة أثناء القهوة والبقلاوة. الناس، في العراق على الأقل، يتخذونه عشاءً مع الجبن والخبز إن تيسّر.

أكلو الدلاع يتميّزون عن آكلي الفواكه الأخرى بأنّهم يُحكّمون إغلاق أفواههم أثناء الأكل، فيبدون كمن يحبس ماءً في فمه.

الدلاع عدو النقاش وتلاقح الأفكار ومهرجانات الذهن وتواصل الأرواح. لا تسمع أراءً أو أفكارًا أثناء أكله، لا تسمع سوى همهمة من أفواهٍ مُغلّقة. السائل في الدلاع يملأ الفم، ويُملي على المتحدث بلاغة الإيجاز أو الهمهمة. وهذا أمتع للصداع.

تسأل أكل الدلاع: هل الدلاعة طيبة؟ فيجيب: امممم. هل ظهرت نتائج البكالوريا، الجواب: امممم، وهكذا.

ونلاحظ هنا أنّ هذه الفاكهة توفّق عنفوانها وانتشارها بمواقيت البكالوريا والامتحانات عمومًا وظهور النتائج، لحكمة لا نعرفها.

هذه الـ «اممم» تذكّر بالبنات أثناء استعدادهن للخروج وتسريح الشعر وإتقان لبس الهدوم بشكلٍ استثنائيّ. البنات دائمًا عندهن أشياء في أفواههن لدى الاستعداد للخروج، دائمًا. دبابيس شعر وماشات ومشابك وحواشي قطع ملابس وأشياء لا حصر لها.

تسأل الفتاة من خلف الباب: هل فرغت من تمشيط شعرك فتجيب: امممم، مثل آكلي الدلاع. وربما تتشابه البنات وعامل النجادة والنجار

أحياناً من حيث وضع الأشياء في الفم. نفس العملية، الاحتفاظ بمسامير في الفم يمليه الشدُّ بيدٍ والمطرقة بيدٍ فيصير المسمار من حصة الفم. البنات كذلك بين المشط وشدّ الشعر والدبابيس والمشابك يقبض عليها الفم. البنت تحتاج إلى أن تكون عندها على الأقل ثلاث أيادٍ لتُكمل زينتِها واستعدادَها، وهذا غيرُ متوفّرٍ إلّا للأخطبوط.

اقتراحات مرفوضة

ما جدوى أن يكون للمرء أفكار لا يقتنع بها أحد. علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عنده جملة مهمة وهي «لا رأي لمن لا يطاع». هناك اقتراحات بنت لحظتها وأخرى ثابتة لا أزال أتوق إلى تحقيقها لكنني أردُّ خائبًا كلَّ مرَّة.

الاقتراح الأول أريد أن أصيغ منه رسالة مهذبة رشيقة ومستجدية إلى شركات العطور الكبرى، مثل شانيل وإيف سان لوران وجيفانشي وحتى كلوي. يصنعون ويسوّقون عطورًا تذكرُ بأشياء لا نعرفها، مثل الفن التجريدي، يعني أشياء هائلة وعائمة لا يشتهيها البشر. كلٌّ من أعرفه يهيم برائحة الكفتة والكباب، ولكن هل هناك عطرٌ نسائيٌّ برائحة الكفتة؟ أبدًا.

لا تقولوا إنّ المرأة قد يلتصق بها بعضٌ من روائح الطبخ. رائحة ما يتطاير من دخان وأبخرة هي ليست رائحة الطعام. ينبغي أن تكون هناك روح الكفتة وخلاصة طاجن الباذنجان وعصارة البامية بالثوم والكزبرة. عند ذاك فقط سيكون للمرأة رائحةٌ شهيةٌ، ويجعل منها كائنًا يستهوي القضم.

هذه رسالة لن أكتبها لأنّ تلك الشركات الشريرة لن تأخذ بها لأسباب اقتصادية وعلمية وتسويقية، وسترّد عليّ باتهامات الجنون والنّهم. والنساء أنفسهنّ لن يقبلنها لأنّهنّ يتصوّرْنَ أنفسهنّ كائناتٍ حلوة لا علاقة لها بروح البامية وورق العنب والكفتة.

اقتراحي الثاني الذي يلاقي الرفض كلّ مرّة أتقدّم به إلى زوجتي وهو أن نشترى بيضًا مكسورًا كي لا أقلق عليه من الكسر أثناء النقل. وهو اقتراحٌ منطقيٌّ كما ترون يهدف إلى إلغاء القلق والتوتّر إبّان حمل البيض. كلّما نشترى بيضًا من المدينة ونعود به إلى البيت بالموصلات العامة، أصاب بنوبة هوسٍ غير طبيعي حرصًا على سلامة البيض. أقف أو أجلس متوتّرًا حارسًا للبيض مثل نمرة تحرس أشبالها. أصير عدوانيًا شرّسًا؛ أدفعُ الناسَ بكوعي وبكتفي وأنظر إلى خلق الله بغضبٍ وشرٍّ وتوجُّسٍ. وهذه حالة مؤذية للنفس والجسد.

الاقتراح الثالث الذي لا يُنفذ يقوم على إلغاء دور الوسيط. الوسطاء كائناتٌ طفيلية لا أكنُّ لها سوى الازدراء. ليسوا بائعين ولا شارين ومع ذلك يقحمون أنفسهم ويصنعون عيشهم من الوقوف بين رجلٍ يريد شراء بيتٍ وآخر يريد بيع بيتٍ. أكره الوسطاء لأنهم يعترضون ما يُسمّى بـ «سيرورة» الأشياء.

هناك وسيطٌ في كلّ شيءٍ، وأسعى لإنهاء دوره. عندما يأتيني صديقٌ ويقول سأتزوّج من بُشريّ لأنّها تذكّرني بنادية أقترح عليه أن يتزوَّج نادية نفسها ويلغي دور الوسيط، وهكذا. كلّ هذا مقدمة لا بدُّ منها لطرح الاقتراح الثالث الذي لا يُنفذ رغم بساطته.

اقترح على زوجتي أن نشترى طعامًا ونرمي به في التواليت ونسحب
سلسلة السيْفون لئيتلعه المرحاض لكي نلغي دور الوسيط. فـ «سيرة»
الطعام تؤدي إلى التواليت والوسيط يطبخ ويأكل ويهضم. لستم بحاجة
إلى أن تعرفوا مصير هذا الاقتراح. مثل السابق من اقتراحاتي التي لا
يصنعي إليها أحد.

احذروا التقليد

شيءٌ في عالم المال والأعمال والتجارة اسمه «Industrial espionage» لا أعرف له ترجمةً موثقةً، على مسؤوليتي سأسميه التجسس الصناعي. وهو ضربٌ من التخريب والتجسس لأغراضٍ لا علاقة لها مباشرة بالأمن القومي. مؤسساته ليست صغيرة، تُرصد له المليارات سنوياً. وهناك فرعٌ منه يختصُّ بمكافحة قرصنة المنتجات والتزوير. شركات السيارات الكبرى حين تجرّب موديلًا جديدًا تختبره بنسخة خاصة مضادة للتجسس. مرقطة مثل ملابس التمويه العسكرية ومغلقة بمخدراتٍ كبيرة تُخفي الشكل الخارجي.

تعرفون بيل جيتس طبعاً. هذا رجلٌ يُنفق الملايين لحماية «ويندوز» من المزورين. منذ زمنٍ توصّلت مايكروسوفت إلى وضع علامة بطريقة الهولوجرام على كلّ أسطوانات برامج الشركة درءاً للتزوير. وشركة كوكاكولا تحيط مختبراتها بإجراءاتٍ أمنية لا تقل صرامة عن المنشآت النووية.

تلك مقدمة لا بُدَّ منها للحديث عن «فلافل العصفور» التي تُباع في شارعٍ قرب سوق الحميدية بدمشق. صاحب مسحوق الفلافل هذا حريصٌ على منتجه. لكنَّ حرصه فيه مبالغة مثل كلّ منتجي الأشياء

الجميلة والبسيطة في الدول النامية وفي الوطن العربي بالذات. شيء غريبٌ وإجراءاتٌ تشبه إجراءات مايكروسوفت وكوكاكولا وكبريات الماركات التجارية.

خوفٌ وهلعٌ من قيام مؤسسات التخريب الصناعي العالمية وأجهزة الاستخبارات الشريرة بالاستيلاء على خلطة الفلافل. تحرز من السي أي إيه والإف بي أي بالتغلغل وشراء الضمائر لمعرفة كمية الكزبرة المخلوطة بالمسحوق بالمليجرام. إجراءات درء التزوير تبدأ من لافتة المحل. تحت اسم فلافل العصفور، مكتوبٌ تحذيرٌ صارمٌ ينبؤنا بالآتي: لا توجد لدينا أيُّ فروعٍ أخرى. خشية أن تقوم الكي جي بي عبر عملائها الأوغاد بفتح محل يزعم أنه «فلافل العصفور» زورًا وبهتانًا بهدف هدم الاقتصاد الوطني.

ولا يكفي المحل بهذا. هذا إجراءٌ بسيطٌ وتحذيرٌ مباشرٌ للمواطنين الحريصين على رفعة الوطن. هناك إجراءٌ أبعد وأعمق أثرًا: (المحل انتبه إلى أن بيل جيتس وَضَعَ هولوجرام على منتجه)، شيءٌ معقد وصعب التقليد. على كلِّ علبة من مسحوق الفلافل هناك رسمٌ لعصفورٍ رسمها طفلٌ موهوبٌ، في الرابعة من عمره، له منقارٌ أسودٌ وجسمٌ أحمرٌ (العصفور وليس الطفل). ومكتوبٌ على العلبة: تأكد من وجود علامة العصفور قبل الشراء. ما أحوجنا إلى هذا التحذير وتلك العلامة التي ستحبط محاولات أجهزة التخريب العالمية.

في بغداد هناك محل كعك السيد، يبيع الكعك والبقسماط، ولا يقل حرصًا وتخوفًا من المؤامرات العالمية الدنيئة عن نظيره الدمشقي. هناك

صورة للسيد نفسه تُطالع الزائر وتحتها التحذير الخطير «لا يوجد لدينا أي فروع» و«احذروا التقليد». وأتمنى صدقاً أن يبلغ بالمحل التطور بحيث يستطيع وضع هولوجرام على كل قطعة كعكٍ أو بقسماط.

لا أظنُّ أنَّ بلدًا عربيًّا يخلو من شيءٍ من هذا. خبز، طرشي، بقلادة، مرجاز، كل شيء مُعرَّضٌ لدسائس أعداء الأمة. وأدعو إلى وضع هولوجرام على كلِّ خيارة من الطرشي وكلِّ قطعة مرجاز. عندئذٍ فقط سنغفو آمنين مطمئنين على الوطن.

هي التي تركل

زميلتان انتقلتا إلى شقة جديدة قُرب شارع الحرية الشهير في تونس العاصمة. عشية نقل الأثاث قلتُ لإحدهما: «سترين قطعاً أو على الأقل قطعة واحدة تتفرج على عملية النقل». صباح اليوم التالي خاطبني صاحبتني لتقول كانت هناك أربع قطع في مستوى الرصيف وواحدة تعتلي شاحنة النقل تتفرج على نقل الأثاث.

لا أعرف تونس جيداً، لكنني عرفتُ أنَّ قطعاً ستراقب نقل أثاث الزميلتين. هذا طبعٌ لدى القطط انتبهتُ إليه منذ زمنٍ. أعيش في نفس المنطقة في جنوب إنجلترا منذ أكثر من ثلاثين عاماً. لم أشهد في حياتي عملية نقل بيتٍ دون أن تكون هناك قطعة تتفرج مبهورة على المقاعد والأسرة في غير محلها المألوف والثلاجات في وضعٍ أفقيٍّ وهي تُحمل لتبتلعها شاحنة مشرّعة الأبواب. مشهد الكنبات والفراش في الشارع عجيبٌ.

سبب ذلك أنَّ القطط حيواناتٌ متسكّعة. المتسكّع يوقفه أيُّ شيء؛ أيُّ دكانٍ أيُّ أنوارٍ أيُّ كيس زبالة. ثم إنَّ القطط في كلِّ العالم، من تاوان حتى كولورادو، وفي عصرنا هذا تعرف أنَّها كانت معبودة في مصر الفرعونية.

كيف تعرف وهي لا تقرأ كتباً في الفرعونيات ولا تزور المتاحف
إلا نادراً؟ لا أحد يدري، لكنّها تعرف وتتصرف بموجب تلك المعرفة
الغريبة. لاحظوها جيداً؛ كيف تمشي وكيف تنظر، كلُّ شيءٍ فيها ينطق
بـ «أنا معبودة، أنا الإلهة باستيت».

القطط تعتني بمظهرها. جارنا عنده قطّة، أنظر إليها من النافذة وقت
الغروب. أراها تلعق وتمشّط بمخالبها وتترزّن، مثل سيدةٍ حسناءٍ، زينة
قبل السهرة.

تأخذ زينتّها وتُنهي آخرَ لمسات التّسريح وترطيب فروها. بعد كلّ
هذا التّجمل تخرج لتغوص في صناديق القمامة، فتلك هي أماكن السهر
التي تستعد لها كلّ هذا الاستعداد.

عندما تمضي القطّة لسهرتها أو عندما تظهر لتسكّع، تمضي بهدوءٍ
وتمشي مشيةً واثقة، فيها تعمد تحريك الوركين صعوداً ونزولاً بحركة
ثقيلة وواثقة.

تمشي مثل جون وين في أفلام رعاة البقر أو مثل قائد كمين شرطة
عندما يوقف سيارتك ويأتي إليك بثاقلٍ وغطرسة. القطّة في هذا الحال
ترفع ذيلها إلى أعلى مثل إيريال الراديو.

وعند العراك تشتبك القطط بضراوة صادقة مثل الشيشان، ويُخيل
إليّ أنّ لكل واحدة منها ستّ عشرة يدًا مشتبكة.

تبدأ بأصواتٍ تشبه الغرغرة قبل الاشتباك، ثم تصير صُراخاً مفزعاً
يحمل خلاصة شرور الدنيا، صراخاً مفزعاً حقاً ومريعاً.

الأمر المُبهج هو أنَّ القِطْطَ تتعرَّضُ يوميًّا للركل . لماذا الركل بالذات؟ أعرف لماذا، لأنَّ ارتفاعها لا يسمح بالصفع واللكمات .
القطعة مصنوعة للركل، وتستأهل ذلك، وهذا ما يُوصي به الحكماء وذوو الحِجَا والأطباء أيضًا . متعبٌ وغير مجدٍ أن توجّه لكمةً أو صفعةً إلى قِطْطَ؟ الركلُ هو الحلُّ .

له طريقة

في ذات صيفٍ كنتُ في القاهرة أقيم في شقة صديقٍ سافر ودعاني للإقامة في سكنه فترة غيابه. انتبهتُ إلى أنَّ محمَّص الخبز عنده لا يعمل. «محمَّص الخبز» هذه ترجمة سمجة لجهازٍ اسمه توستر. سأُدخل هذه الكلمة، الـ «توستر»، إلى لغتنا الجميلة في هذا العمود ولا ضيرَ من ذلك، فهكذا تنمو اللغاتُ وتتسعُ. مجرَّم من يمارِس التطهير العرقي في اللغة. رحتُ اشتريتُ توستراً جديداً، وعندما أخبرْتُ صديقي المسافر بالهاتف عمَّا فعلتُ، امتعَّض وقال إنَّ التوستر يعمل ولكن له طريقة.

الـ «له» هنا تلفظ بضمِّ اللام وسكون الهاء، بالنطق المصري. اتَّضح أنَّه سيعمل إذا ما أبقىْتُ مفتاحاً معيناً مضغوطاً طوال وقت التحميص. لم أَلتفت إلى خطورة المسألة في حينه.

بعد أيامٍ زرتُ صديقاً آخر في القاهرة. دخلتُ مصعدَ العمارة وكبستُ الزرَّ للطابق السادس ولم يتحرَّك المصعد وظلَّ في سُباتٍ عميقٍ. كبستُ الزرَّ ثانية فصدر عن المصعد صوتٌ يشبه النههة العميقة ولم يتحرك، صوت مثل همهمة الغافي الذي لم يشيع نوماً. كان يشعرني بانزعاجه من

مقاطعتي سُبَاتِه. كلمتُ صديقي وقلتُ له إِنِّي واقِفٌ تحت، وإنَّ المِصعد عاطِلٌ. قال صاحبي القاهري إنَّ المِصعد يعمل ولكن «لُه طريقة».

شرح لي أَنَّ عليَّ أَنْ أدخل المِصعد وأغلق البابَ ثم أدسُ أظفاري في مسافة المليمتر الواحد بين السطح المعدني للباب وسطح النافذة الزجاجية الضيقة الواقعة في وسط باب المِصعد. هناك فراغٌ صغيرٌ؛ أقل من مليمتر يكفي لاندساس ظفر. تضع أظفرك فيه وتشُدُّ الباب شدةً إضافيةً هيئةً ينطلق عندها المِصعد بهمةً ونشاطٍ مثل الأتراك. هنا أدركتُ أَنَّ المسألة أكبرُ ممَّا كنتُ أتصور، وأنَّ الـ «لُه طريقة» توجهٌ وأسلوبٌ وفلسفةٌ في الحياة.

رحتُ أرصد الـ «لُه طريقة» ووجدتها مطبَّقة في كلِّ شيءٍ، في السيارة، في المكواة، في أجهزة السي دي، في تشغيل التلفزيون، كلِّ جهازٍ أو عتلة وحتى الباب والنافذة لها طريقة. تفتح النافذة بضغطٍ شيءٍ ورفع شيءٍ في آنٍ واحدٍ. الحياة مُتعبة وفق مبدأ الـ «لُه طريقة».

الأخطر من هذا كله أنني رأيتُ بشرًا يحتاجون إلى عملية زرع مفصلٍ اصطناعيٍّ بين الساق والحوض.

تأكلُ ذاك المفصل يؤدي إلى حالٍ مؤلمٍ وملازمٍ للإنسان في كلِّ حركة ولدى النوم والاستلقاء أيضًا. عذابٌ في كلِّ لحظة، ومشْيٌ موجعٌ ومناوراتٌ غيرٌ محمودةٍ للورك.

في الاستلقاء يُحرِّك الورك بتدويره عدة درجات، بحيث يصبح الإنسان مثل مكعب روبيك، إن كنتم تذكرونه. وفي المشي عرجٌ غريبٌ وحركة ورك مصاحبة مضحكة لولا الألم الذي يدرأ السخرية.

تقول لصاحب العذاب المستمر لأعوامٍ إنَّك تحتاج إلى عملية في
مفصل الحوض، فيقول لك: «لا. مفصل الحوض عندي شغَّال، ولكن
له طريقة».

الأطباء في الغرب يتعجَّبون من قدراتنا على التعايش مع الألم. هم
لا يعرفون أنَّ الألم له طريقة.

القليل القاتل

القليلُ من المعرفة خطر. هذه حكمةٌ قديمةٌ لا يُعرَف قائلُها فقد ضاع في أرشيفِ التاريخ. قلَّةُ المعرفة متفشيةٌ في مجتمعاتنا وتحركُ الألسنة والعقول والمخيلات. الناسُ تعرف أشياء كثيرة من الصحف لكنَّها تعلَّمتُ القراءة ولم تتمكَّن من اكتساب المعرفة.

رأيتُ في جولاتي بالوطن العربي رجالاً في المقاهي الشعبية يتخاصمون ويتجادلون حول جرائم الخمير الحمر في كامبوديا بينما شوارعهم طافحة بمياه المجاري ومستشفياتهم لا تكاد تعمل. يُنهبهم الجوعُ والمرضُ وسوءُ المواصلات، ويناقشون بضراوة قَمَّةَ ريكيفيك بين ريجان وجورباتشوف وانهيار الاتحاد السوفيتي.

الحكَّامُ مُساءلون عن الجوعِ والمرضِ وسوءِ الخدمات، ويروق لهم أن ينصرفَ عنهم الناس إلى ما هو خارج اختصاصهم: إلى كمبوديا والاتحاد السوفيتي. يعرفون أنَّ نصفَ العارف متحمسٌ ومنشغلٌ بكلِّ شيء سوى مشاكله الآنية والقريبة. ولعلَّ الحكام يشجَّعون هذا.

كان المصْرِفُ المركزي المصري قد قرَّر تعويم الجنيه قبل عشرة أعوام. ركبْتُ التاكسي وسألتُ السائق عن الحال مع تعويم الجنيه. كانت

رائحة الرجل تشي بأنه مدخن، ومهنته تعني اعتماد ميزانيته الخاصة على سعر الوقود، وأسعار السجائر والوقود يتأثران بسعر صرف الجنيه.

لكنه قارئٌ للصحف القومية رخيصة الثمن في ساعات انتظار الزبائن خارج الفندق. يعني أنه نموذجٌ طيبٌ لما نحن بصدده. قال بثقة إنَّ السجائر ارتفع سعرها وكذلك البنزين، وعبر عن ارتياحه لقرار المصرف المركزي وقال بثقة وحماسة: «لازم تعويم الجنيه، أمال سيبويه يغرق؟».

القراءة عرّفته على فعل تعويم العملة وتركته يخمن ويتوهم المعنى والتطبيق. ولا حظوا أنَّ الجهل هذا مع معرفة مبتسرة يثير حماسًا جامحًا. يقرؤون معلوماتٍ تاريخية لكنَّ الجهل يحذف البُعد الزمني ويمنح الأحداث صفة الطوارئ. يتصرّف هؤلاء وكأنَّ نيرون سيحرق روما بعد ساعتين من الآن وعلينا منعه.

ثم انظروا إلى الاختصام والاشتباك حول من يجب أن يكون الخليفة الأوّل بعد الرسول: أبو بكر (رضي الله عنه) أم علي (رضي الله عنه)، وكأننا سنختار الخليفة غدًا ونحن الآن في مرحلة الترويج لمرشحنا. حمى ليلة القرار هذا بعد ألف وأربعمائة عام على الحدث تؤذينا حقًا وتوقع قتلى حقيقيين في القرن الواحد والعشرين.

لنترك التاريخ لأنَّ الحديث فيه متفجّرٌ بعقلية المعرفة المبتورة. سائق تاكسي آخر ممن يعرفون القراءة حكى لي أنَّهم اكتشفوا أنبوبيًا لسرقة النفط الخام من مصر وإيصاله إلى السعودية. سمع من أصحابه عن أنَّ الكل متستّر على وجود الأنبوب الذي كشفتهُ الصدفة في قعر

البحر الأحمر. وتعرفون أنَّ مدَّ الأنابيب في قعر البحر عملية هندسية
كبرى لا يمكن أن تكون أخفى من السر. سألته عن سعة الأنبوب فقال
إنَّه يحمل مائة برميلٍ يوميًّا وهي هدف المشروع الهندسي العملاق.
يتصوَّر أنَّ المائة برميلٍ شيءٌ خطيرٌ قياسًا بما يملأ به خزان سيارته
فيتوهَّم أنَّها كمية تستحق السرقة عبر مشاريع هندسية عملاقة سرية.
يعرف أنَّ النفط يُنقل عبر أنابيب ولا يعرف اقتصاد النفط.

في بيتنا قنفذ^{١٩}

نعيش في إنجلترا، وفي جنوبها. وكان عندنا بيتٌ صغيرٌ فيه كلنا: الأب والأم والابن. ولا نملك، بمناسبة شريقتنا، حيواناً أليفاً. لا نضيق بأحدٍ إذا كانت إقامته بيننا لا تزيد عن شهرٍ لكنَّ الحيوان الأليف يقيم لسنين. ونحن لا نريد من يقيم عندنا دهرًا حتى لو كان الضيفُ إنساناً رائعاً مثل فريدة النقاش.

الابن سبب المشكلة. يختلف إلى روضة لمن هم دون الرابعة، والكل فيها إنجليز من المعلمّات إلى المشرفات إلى الأطفال. والكلُّ عنده حيوانٌ أليفٌ. ويُفترض أن يكون لابننا واحدٌ أيضًا. حتى الآن هذا الافتراض قائمٌ في اختيار السؤال السري للمصارف والشركات الأجنبية، إذ يسألونك عن اسم الحيوان الأليف. عشنا دون حيوانٍ أليفٍ والمجتمع يحسبنا أننا شاذون أو قُطَاعُ طُرُق.

ذات صباح باردٍ وقعت معجزة مذهلة. فتحتُ بابَ الدار ووجدتُ مشروعَ حيوانٍ أليفٍ على عتبة الدار. وكان أليفاً جدًّا إلى حدِّ الاستخذاء والمسكنة. كان قنفذًا كاشفًا عن وجهه وأنفه الطويل الذي يرقص. لكنّه تكوّر فجأة لرؤيتي وادّعى أنّه كرة تنس بُنيّة غامقة. هذه الحيلة لم تنطَلِ

عليّ لأسبابٍ عدة منها أنّني أعرف شكل كرة التنس وأنّ عليها أن لا تكون مغطّاة بأشواكٍ بارزة، وأنّ تستجيب للمضرب وأن تقفز عندما تلامس أرضاً.

الكذبة كانت مفضوحة لكل ذي دراية وفطنة. وصحّت بابني أن يأتي بسرعة.

وقفنا نتأمل القنفذ ونشكر الله على عطيتّه الجميلة. صار عندنا حيوانٌ أليفٌ لا يأكل ولا يشرب وهادئٌ تمامًا ومتخاذلٌ. على الفور طلب ابني أن يعرف اسم ضيفنا المستجدي. نظرتُ بسرعة إلى هيئته، وفرض الاسم نفسه. بعد ثوانٍ فقط من التفكير اسميته «شوكت». وذكرتُ أنّ كنيته هي أبو الأشواك. قد تقولون ولماذا شوكت وليس شوكة. أعني كيف عرفت أنّه ذكرٌ؟

المسألة لا تحتاج إلى عناء لو كان شوكة لكان بصحبته أخته سكينه. وتأمّلتُ في حيلته وخداعه وكيف أنّه يزعم أنّه كرة تنس، واكتشفتُ أنّ الحيلة فيها مثلبٌ آخر مهم، وهو أنّ أجدادَ شوكت ادّعوا أنّهم كرة تنس قبل اختراع لعبة التنس بقرون.

كيف يدّعي شخصٌ أنّه كرة تنس والتنس غير موجودٍ. إذن هو زعمٌ لم يصدّقه أحدٌ.

أحضرنا له لحمًا مفرومًا قطعته على شكل دودٍ، ظانًّا أنّ من يزعم أنّه كرة تنس سيصدّق أنّ ما أقدمه دودة أرضٍ. لكنّ الشرير لم ينخدع وأشاح بوجهه متعفّفًا.

ظَلَّ شوكت على عتبة الدار متأملاً مترفعاً عن طبق حليب قدمته.
ووقفنا نتفرج عليه ثم غلبنا الضجرُ. فالقنفذ لا يصنع شيئاً بالمرّة، لا
يغني ولا يرقص أو يروي حكاياتٍ ولا أي شيء. سيئنا منه ورددنا
البابَ ودخلنا وترددنا عليه بقية اليوم وهو في محله لا يريم. في صباح
اليوم التالي كان شوكت قد اختفى. أذكره إلى الآن بحزنٍ فقد كان ضيفاً
خفيفاً.

عند الطبيب المرء يهان

كُلُّ من يذهب إلى الطبيب يعتقد أنه ليس مريضًا حقًا وأنَّ الأمر لن يعدو كونه رشعًا بسيطًا أو تقلُّصًا في عضلة أو تشنُّجًا في عصب. يروح إلى الطبيب ليطمئننه لا ليكتشف مرضًا جديدًا. يريد شهادة موثقة على صحة ودقة تفسيره الرغائبي.

الطبيب لن يفعل أكثر من أن يخزّه بإصبعه في خاصرته وضلوعه ويقوم بطقوسٍ عجيبة في النقرِ على كفه المنبسط على الجسم وهو يدور حولك مثل ساحر قبيلة الهنود الحمر. الطبيب سيسأل أسئلةً غير لائقة وغير مهذبة مثل الاستفسار عما يحصل لدى الذهاب إلى الحمام ومسائل خاصة جدًا عيب الخوض فيها. كلُّ هذه الجلافة ستتمُّ ووجه الطبيب عبوسٌ وفي منتهى الوقار. ومن يعتقد أنَّ لديه مرضًا خطيرًا لا يذهب إلى الطبيب إلا متباطئًا جدًا.

والإنسان عند الطبيب ذليلٌ، مستخذٍ، متملقٌ. عندما يطلب منه أن يقف على رجلٍ واحدة أو ينقلب على بطنه ويرفع يده، مثلاً، يفعل كلَّ

ما يُطلب منه مثل حيوانٍ مُدرَّب في السيرك. هنا يفقد الإنسان وقارَه وكبرياءه وهو يتسم بذلّ.

وبسبب حالة التملُّق هذه لم أرَ طبيباً إلّا وهو يعتقد أنّه ذكيٌّ ومضحكٌ. كلُّ من يراهم يضحكون لأسمعج نكاته. وحين يقول رأياً يهزُّون رأسهم متفقين معه مظهرين أنّ ما قاله هو الحكمة بعينها. وهناك شيءٌ مثل هذا يقع لكيّار المسؤولين. القوة والغطرسة عند الطبيب هي منحة بشرٍ خائفين.

كنتُ في جلسة صغيرة مع نجيب محفوظ وآخرين. كان هناك جراحٌ أعين جرّني إلى حديثٍ جانبي. قال الجراحُ إنّ رجلاً من غزّة حضر إلى عيادته في القاهرة لإجراء عملية. وذكر أنّه قال للمريض: «أنتم الفلسطينيون أضعتم فرصاً تاريخية. ألم يكن من الأجدى أن تقبلوا بتقسيم عام ٤٧؟ ثم أضعتم الفرصة تلوَ الفرصة، ألا تحسُّ بالندم؟»، ثم أكمل الطبيب مزهوّاً: «أتعرف أنّه وافقني تماماً؟ وأبدى الندم حقاً».

سألته سؤالاً بسيطاً وهو «هل كانت عين الرجل مفتوحة إلى أقصاها مشدودة الجفنين وأنتَ تحمل مشرطاً؟» فهم السؤال صديقي الذي أحضرني إلى الجلسة، وأطلق ضحكة عالية.

هناك طبيبٌ واحدٌ قريبٌ مني إلى حدّ أنّه صارحني بمعرفة رهبة الناس منه. هو إنجليزي تماماً إلى حدّ أنّ اسمه نايجل. أذهب عنده كلّ عام ليزر قني إبرة تحصّني من الإنفلونزا الموسمية. كنتُ أسخر منه أحياناً. كان قد أعدّ الإبرة وأنا رافعٌ قميصي إلى حدّ الكتف. كنتُ

أقول له ناصحًا بتهكمٍ: «لديَّ حكمةٌ أريدُكَ أن تتعلَّمَهَا وهي أن تواظب
التحصيل والبحوث مهما بلغت درجتك، فالإنسان مكتوبٌ عليه التعلُّم
والبحث حتى مماته»..

فقال وهو يبتسم بخبثٍ: «وهل تريد أن تسمع مني حكمة تفيدك
حتى الممات؟» قلت: تفضَّل. فقال وابتسامته تزداد اتساعًا: «يا حسين،
لا تهزأ من رجلٍ سيغرس إبرة في جسمك بعد ثوانٍ».

الزّي المُوحد

في الشتاء الماضي زرتُ تونس. وتونس بلدٌ تخرج فيه المرأة إلى الشوارع وترتدي ثياباً عصرية، يعني ليست مثل دول الخليج. والملابس تتيح للمرأة التعبير عن نفسها وعن شخصيتها كما تعلمون. لكني رأيتُ أنّ كلّهن تقريباً متقمصات شخصية دارتانيان أو أي من أصحابه الفرسان الثلاثة.

أيّما تذهب تجد الفتاة قد ارتدت بنطلوناً محزّزاً نصفه الأسفل مغطّى بحذاءٍ ذي رقبة طويلة يصل إلى الركبة ونصف الجسم الأعلى من الكتفين حتى الركبة مغطّى بشالٍ ليؤكّد الالتزام بهيئة دارتانيان.

الفرسان الثلاثة يرتدون عباءة قصيرة حتى الركبة ينصونها عنهم لدى اشتداد حدة المباراة، ولم تتبارز بتتان أمامي لأتأكّد من القيام بتلك الحركة. ولم تتبارز بتتان لأنّ النساء في تونس لا يحملن سيوفاً، ممنوعٌ في ما يبدو. لا شكّ أنّ الشرطة الساهرة على أمن المواطن تدرك شراسة البنات وكيف أنّ السيف يمكن أن يتجرّد من غمده ويكون له صليلٌ وسط صرخات «هكّا ولا هكّا» المرعبة.

الشرطة تطالبهن بنزع السلاح لحظة الخروج من المنزل. وأذكر هنا أنَّ المرأة التونسية فيها شراسة طبيعية، وأنا أرتعب من «هكا» هذه، فهي صرخة معركة مخيفة. وهناك كلمة أخرى لديهنَّ لا تقل رعباً وهي «هكاكا»، وأظنُّها مدرسة في الطعن وطريقة في أعمال السيف. المهم، كلُّه رعبٌ. الذي أريد أن أقوله هو أنَّ الناس في بلادنا لا يألِفون التعددية ربما بسبب البيئة السياسية مما يجعل البنات يرتدين -باختيارهن- زيّاً مُوحّداً.

المرأة في تونس، مثلاً، مسموح لها بأشكال التعبير عن الذات عبر فساتينَ ومعاطفَ وأحذيةٍ جميلة، لكنَّهنَّ يأبين إلاَّ طريق الـ «هكا» والفرسان الثلاثة.

وتمضي عقلية الشيء الواحد في مجتمعاتنا طاغية على كلِّ شيء. في الرياضة، مثلاً، هناك كرة القدم ولا شيء عداها. في دولٍ أوروبية تجد من لا يأبه لكرة القدم ويفضِّل التنس. في نهائي ويمبلدون تجد شوارع إنجلترا خالية مثل أجواء نهائي كرة القدم. الكلُّ مشغولٌ عن التسوُّق والتمشِّي ليتابع نهائي التنس أو الكريكت أو الرغبي.

في الكوميديا الصامتة القديمة عندنا تشارلي تشابلن ولا شيء سواه. في إنجلترا، مثلاً، الناس منقسمة بين من يعشق بستر كيتين ومن يميل إلى هارولد لويد ومُريدي تشابلن طبعاً. وفي السيارات الفارهة، عندنا المرسيدس ولا شيء آخر، لا بي أم دبليو ولا أودي. عقلية الشيء الواحد في كلِّ شيء.

المؤسف أننا بهذا تضيع منّا معرفة عباقرة كبار أثروا في إنسانيتنا
بأعمالهم. في الكارتون لا نعرف سوى والت ديزني الذي لا أحبه
ونُسقط من حسابنا مبدعين رائعين مثل تشاك جونز وتيكس أفري.
ميكي ماوس ليس وليد الفن بل ابن الصناعة بينما دافي دك وبجس بني
وياسمتي سام أبناء الفن والضحكات الصافية. نحن لا نأبه لهم لأننا
نحب ديزني في ما يشبه التوحيد. أظن أنها البيئة السياسية التي تربينا
على النفور من التعدد وكأنه شرك.

لحمة ولا فراخ بموجب ويندوز

هناك نوعٌ من الخيار (بمعنى ما تختاره لا بمعنى ما تشتريه بالكيلو من سوق الخضار) يسمونه بالإنجليزية «خيار هوبسون»، هو في الواقع لا خيار. وهناك أيضًا حكاية تقول إنّ الأسد والثعلب اصطادا غزالًا وأرنبًا وجلس الأسد يورّع الغنيمة. قال للثعلب إذا أردت الأرنب فخذ الأرنب، وإذا تريد الغزال خذ الأرنب. هذا نوعٌ من خيار هوبسون.

مناسبة الحديث هي أنني كنتُ في القاهرة وأردتُ من المطعم القريب أن يمدّني بصحن شاورمة يرسله إلى الشقة. عندهم العنوان وكلُّ شيء. طلبتُ ممن يتلقّى الأوامر، ويقولون عنها الطلبات، أن يرسل صحن شاورمة وعددًا من السلطات. فسألني الرجل: هل تريد شاورمة لحمة ولا فراخ؟

كنتُ جائعًا تمامًا ومستعدًّا لالتهام شاورمة بامية أو حتى خس. فقلت: لا فرق، أريد شاورمة بسرعة، ولا تهمني فراخ أو لحمة، أي شيء، المهم سرعة التوصيل. قال الرجل بشيءٍ من النرفزة: حضرتك لازم تحدّد. لا أستطيع أن أقبل الطلب دون تحديد. دون أن تحدّد لن تكون هناك شاورمة لحمة كانت أو فراخًا.

كان حازماً وقاطعاً. فكرتُ بسرعة وحسمتُ أمري وقلتُ: إذن
فلتكن لحمة. هنا قال: حضرتك مفيش لحمة. عندنا فراخ فقط.

هذا نموذجٌ بارعٌ لكنه يُغضبُ فعلاً لخيار هوبسون. ما معنى كلام
الخمس دقائق الفائتة؟ ما معناه؟ لعنتُ البائعَ والمطعمَ والظروفَ
وجلسْتُ أنتظر شاورمة الفراخ مع السلطات. المشكلة هي أنَّ خيارَ
هوبسون هذا أطلَّ برأسه لحظة وصولي البلاد ولم ألقِ له بالاً. حين
خروجي من المطار كانت هناك سيارة في انتظاري. سائقها سألني ما إذا
كان التبريد كافياً وأن أخبره إذا كنتُ أريد أن يزيده. اخترتُ الزيادة بلووم
لا لشيءٍ إلا لأنني لمحتُ مؤشر درجات التبريد وكان يشير إلى الحدِّ
الأقصى. فقال السائق إنَّ التبريد في السيارة هو الأقصى ولا يمكن أن
يزيده. لماذا إذن عرض أن يعليَّ التبريد؟

هذا ضربٌ من السلوك له اسمٌ في مصر. والناس لا تطلقُ أسماءَ
على شيءٍ غير سائدٍ وغير دارجٍ. اللغات لا تعبث. اللغات تضع كلماتٍ
لِمَا هو موجودٌ ومحسوسٌ وحتى متوهمٌ. يبدو أنَّ الأمر متفشٍّ، وهو
جزءٌ من ظاهرة أوسع وأنَّ له اسمًا هو «الملاوغة».

ورغم غرابة شأن اللحمية والفراخ وخيار هوبسون، تردَّد في
ذهني صدى لشيءٍ آخر يشبه هذا. ثمَّة شيءٌ في سياقٍ آخر تمامًا لكنه
وفق نفس القاعدة. فكرت في الأمر ولم أصل إلى شيء، وظلَّ شأن
اللحمية والفراخ عالقًا في الذهن، لكنه يعود بين حينٍ وآخر مثل وجع
الضرس.

فجأة تذكرتُ بيل جيتس. تذكرتُ أنَّ نظام ويندوز يفعل الشيء نفسه. تعدّل في وثيقة على الكمبيوتر وتريد حفظها فيسألك «هل تريد حفظ التعديلات على الوثيقة؟»، فتكبس على الموافقة فيقول: «لا يمكنك حفظ التعديلات». لماذا عرض ويندوز خيار حفظ التعديلات. إنَّها الملاوعة.

شفوف بالمطرقة

في الخرائط والرسوم الهندسية يظهر رقمٌ مثل واحدٍ إلى خمسمائة أو واحدٍ إلى مليون إلى آخره. هذا الرقم ينبئك بأنَّ كلَّ سنتيمتر مما تراه أمامك يساوي خمسة أمتارٍ أو عشرة كيلومترات. هذا هو مقياس الرسم. أحياناً تجد صورة قطعة قماشٍ موضوع عليها درهم لتعرف بصرياً مقياس الصورة. لكنَّ المقياسَ إذا كان غيرَ مألوفٍ يبعث تساؤلاتٍ من ناسٍ لا يعرفون فكرة المقياس.

كان عندي صورةٌ التقطتها بنفسِي لعقربٍ أسود ميتٍ وضعتُ إلى جانبه عُلبة كبريتٍ ليعرف الرائي حجم العقرب، وكان عقرباً كبيراً مبهرًا، ليس من النوع الأصفر اللئيم بل الأسود المخيف. لم يسألني أحدٌ لماذا العقرب عنده عُلبة كبريت؟ هل يدخن أم أنه يريد أن يطبخ عشاءه بموقدٍ غازيٍّ. الكلُّ أدرك حجم العقرب بنظرة واحدة. لم يحلَّ أحدٌ عُلبة الكبريت.

لكن هذا الإدراك يقصر ويعجز في أحيانٍ كثيرة عندما يكون المقياس معقدًا وذكيًا جدًا. خذ شعار شركة أبل تلك التفاحة المقضومة، القضمة مقياس رسمٍ، بسبب القضمة ترى تفاحة وليس

ثمرة كرزٍ، الكرز يشبه التفاح تمامًا دون مقياسٍ، القضمة تجعلك ترى تفاحة، لكنَّ النَّاسَ يروّجون لإشاعاتٍ غريبة، منها أنَّ الموضوعَ له علاقةٌ بآلان تورننج وانتحاره، ومن قائلٍ إنَّها ترمز لشجرة المعرفة وفق الفهم التوراتي للخلق وآدم وحواء، يعني وضعًا مضحكًا يشبه التساؤل عمّا يفعلُه العقرب بعلبة الكبريت، ليست هناك طاقةٌ ذهنيّةٌ لفهم أنَّ القضمة مقياسٌ لا أكثر.

ما حصل لي مع المقياس مضحكٌ أيضًا. كنتُ خصّصْتُ يومًا لالتقاط صورٍ لمقاطع جيولوجية في صحراء النخيب في العراق. أنهيتُ عملي البحثي لقراءة الشهر وفي اليوم الأخير حملتُ الكاميرا وخرجتُ مع سائقي وسيارة لأحوم في المنطقة وأزور النقاط التي تظهر فيها تكويناتٌ أو مقاطعٌ تستحق التصوير.

الظواهر الرسوبية ومقاطع طبقات الصخور لا تشبه شيئًا مألوفًا ويقتضي تصويرها وجودَ مقياسٍ في الصورة. الجيولوجيون يحملون مطرقة طولها قدمٌ في العادة لتكسير الصخور والحصول على عيناتٍ ويمكن استخدامها مقياسًا. وبدأتُ زيارة الأماكن التي تستحق التصوير والتي أعددتُ لها سلفًا.

ترجّلتُ في النقطة الأولى، ورحتُ إلى المَقطع المطلوب وأزلتُ شيئًا من التراب بالكفِّ ووضعتُ المطرقة بعناية لتظهر في الصورة مقياسًا والتقطتُ صورةً. وتوالى الفعلُ عشرين مرّةً، أنظف المكان وأضع المطرقة متخيرًا لها مكانًا جيّدًا وألتقط صورةً.

كان السائق يتابعني بفضولٍ محاولاً أن يفهم ما يجري. في النقطة الأخيرة خرج من السيارة ووضع كوعه على مقدمتها مبتسماً قائلاً: «صورني مع السيارة». رفضتُ بأدبٍ، فانزعج بوضوح، وقال: «وهل أنا أقلُّ شأنًا من هذه المطرقة؟ أخذتَ لها عشرين صورة، وتخيرَ لها الأمكنة وتنظَّف ما حولها وتصوِّرها». وابتعد مدمدماً: «كل نفسٍ وما تهوى».

هكذا هُيئَ له أنَّ المطرقة نوعٌ من الفَتَشِ وأني شغوفٌ بها، وعقله يسوغ أيَّ تفسيرٍ لكنَّه لا يقبل فكرة المقياس.

مجرد سؤال

لو أنَّ أحدًا طَرَقَ بابَ بيتِكَ، بغضِ النظر عن الوقتِ صُبْحًا أو مساءً، وسألكَ سؤالًا بسيطًا لا تزيد إجابته عن نعم أو لا، هل ستجيبه مهما كانت غرابة السؤال؟ لو أنَّ الطارقَ الذي انتزعك من مشاهدة التلفزيون قال ببساطة: آسفٌ جدًّا للإزعاج، أريد أن أعرف هل الشيطان موجودٌ عندكم في البيت؟ مثلاً.

أنا شخصيًّا سأجيب بـ«لا» وأودِّع السائلَ متمنيًا له ليلة سعيدة وأغلق الباب. وهو أيضًا سيشكرني ويمضي. لكنَّ معظمَ الناس سيجيبونه بجملة أسئلة من قبيل: ماذا تعني؟ وكيف ظننت أن الشيطان عندنا وربما شتموه أيضًا، في حين كلُّ ما هو مطلوبٌ هو الإجابة بـ«لا» وينتهي الموضوع.

التعاملُ مع السؤال بشكلٍ مجردٍ ضربٌ من الرفاهية الفكرية وأنا أتمنَّع بها. قَبُولُ التجريدِ رفاهية وقَبُولُ السؤالِ المجردِ يعني أيضًا إثارة أسئلة مجردة لا تفضي إلى شيءٍ عمليٍّ. أسئلةٌ تشغلُ بالَ مَنْ على شاكلتي ممن يحاولون أن يعرفوا كيف تُصنَعُ الشوكولاتة البيضاء، يعني أين يروح لون الكاكاو؟

أفكر في هذا، وأفكر أيضًا في سؤالٍ بسيطٍ مجردٍ آخر وهو «عندما ينفذون الإعدام بحقنة السيانيد، لماذا يستخدمون إبرة معقمة؟» أعني لا بد أن يكون هناك سببٌ لتعقيم الإبرة، ما هو؟

معظم الناس يرون في هذه التساؤلات بطرًا، لكن البطر هو بالضبط الرفاهية والترف المطلوبان لتناول المعرفة. والناس في العالم الثالث خصوصًا يريدون لأيِّ معرفة أن تكون وظيفيّة وتطبيقيّة وليست مجردة. في لندن ذات عصرٍ أحدٍ كنتُ أمشي بسرعةٍ ولهاثٍ لأركب الأوتوبيس، موعده في المحطة التي أقصدها الرابعة وأربعين دقيقة. وصلتُ بعد دقيقة من الموعد، ورأيتُ أوتوبيس يغادر المحطة. سألتُ رجلًا واقفًا في المحطة: «ما كان رقم الأوتوبيس الذي غادر للتو؟» لكنَّ الرجلَ كان مهاجرًا هنديًا ممن يملأون شوارع لندن. لم يُجب عن سُوالي البسيط بأن يقول كان رقمه ٨٨ مثلاً. السؤال كان عن رقم الأوتوبيس وجوابه كان «أين تريد أن تذهب؟».

تفكيره عملي ووظيفي لكنّه لا يجيب عن السؤال. حياة ذلك الرجل في بلده وفي المهجر كلّها شقاءٌ بل وقهرٌ لذلك لا يستوعب السؤال عن أوتوبيس غادر ومضى. سُوالي لم يكن عابثًا. فرق الدقيقة الواحدة يعني احتمال أن يكون الـ ٨٨ لم يأتِ بعد. وإذا كان قد غادر فسأبحث عن وسيلة أخرى. ما كنتُ أتوقّع الرجل الهندي أن يعرف هذا لكني أتوقّع أن يجيب الإنسان عن سؤالٍ مجردٍ ومباشرٍ بشكلٍ مباشرٍ. لو كان إنجليزيًا لقال رقم ٨٨ أو ٧٦ وينتهي الأمرُ.

واين روني وستيفن هوكنج

كنتُ في تاكسي مهترئ، وسائقه مهترئ أيضًا، وكان ذلك في القاهرة. التاكسي على شيخوخته لعبٌ ويتقافز لأي نقرة في الطريق. السائق رث الثياب والأسنان، لكنّه يفتح كلّ جملة بعبارة بدت غريبة وغير مناسبة. عندما يبدأ حديثه بقول «يا سيدي الفاضل». هكذا، بالفصحى. لعنتُ الفضائيات في سري وبرامج المهاترة التي يسمونها حوارًا. بدت العبارة رثة مثل السائق ومفتعلة لكنّه يقولها بفخرٍ كمن ألّفها واخترعها.

هناك ثقافةٌ جديدةٌ مُستقاة من الفضائيات واليوتيوب والفيس بوك أيضًا. تجد ربة بيت نصف متعلمة وهي امرأة جيدة تعرف كيف تنتقي البامية وتنشر الغسيل كما لا ينشره أحد، امرأة طيبة كهذه لم تعد ترسل الهدوم إلى صاحب المكوى الفلاني، مثلاً، لأنّه يُخلف مواعيد كواء الملابس وإيصالها، اليوم صارت لا تقول ذلك بل تقول وبفخرٍ أيضًا: «المكوجي عملت له بلوك». أو تجد فتاة تهين رفيقة لها قائلة: «إنك تستحقين الشفقة» على سبيل الإهانة. وهذه عبارة لا شك أنّها مُستقاة من فيلم أجنبيّ على يوتيوب كتبها سيناريس تافه وترجمت إلى العربية. لعلّ كاتبها فريدريك ثريوود.

كمية التفاهة في هذا التعبير لا يمكن أن يحيط بها وصفٌ لكنّها شائعة عند الشباب العرب. لم يفكر أحدٌ في الالتفات إلى الشفقة وكيف أنّها عاطفةٌ نبيلةٌ وسامية. هكذا نزعوا عن الشفقة نُبْلَها، وصار الكلُّ يردّد «تستحق الشفقة» من باب الازدراء. ولم ينتبه أحدٌ إلى أنّ العبارة مبتدلة ولا معنى لها.

تجد رجلاً حاسرَ الرأس أشعثَ الشعر أو يرتدي طاقية أو عقلاً وغترة ويرتدي ملابسَ نصف مهترئة يقول بُنبِلٌ وغطرسة «أرفعُ لك قبعتي»، أي قبعة؟ أي قبعة أريد أن أفهم؟ هل أنتَ لويد جورج أو بسمارك. وقبولاً بمبدأ رفع غطاء الرأس كدليلٍ على الاحترام، وهي حركة غير مألوفة، لماذا لا تقول أخلع طاقيتي أو أتفرّع من عقالي. ومن لكَ بعبارة نقبلها فقط من نبيلٍ أوروبي من القرن التاسع عشر؟ لكنّه قد رآها في ما يرى من مترجمات يوتيوب أو ما يردّده المتهاترون في الفضائيات.

العبارات التي لا معنى لها لا تقتصر على إفرافات الفضائيات واليوتيوب. قَبول عباراتٍ مهترئة مرضٌ يمتدّ لعقود. هناك واحدة تستفزني بالذات وهي مقولة «العقل السليم في الجسم السليم». هذه مقولة إغريقية أظنّ أنّها إسبارطية تنتمي إلى عصر ما كان للمُعاق فيه مكانٌ ضمن مجتمعٍ محاربٍ وعسكري الإنشاء. يعني مثل وأد البنات لدى قبائل عربية همّها القتال والغزو، البنت فيها تعيق عن إتمام مهمة القبيلة.

العبارة لا تعني شيئاً لا قديماً ولا حديثاً. عندما تُقال أتذكر الأحف
ابن قيس والجاحظ. هما العقل كلُّه والأناة وحُسن التفكير. في عصرنا
هذا أودُّ أن أصنع بوضوحاً أضعه في كلِّ الشوارع، أضع فيه صورة لاعب
كرة مشهور مثل واين روني وإلى الجنب منه صورة عالم الفيزياء
الكونية العظيم ستيفن هوكنج، وأكتبُ تحتها «العقل السليم في الجسم
السليم».

الحياة يطريها الكذبُ

الذي يكذب يعتمد على غفلة المكذوب عليه، ويفترض فيه الغفلة والجهل. وعندما يمنح الإنسان ثقته المطلقة لشخصٍ ما فكأنَّه يدعوه إلى الكذب عليه. وأكثر الناس منحًا للثقة هم الأطفال، لذلك الأمهات أكبر كذاباتٍ. الثقة المطلقة بهنَّ يحولنها إلى رخصة للكذب القراح.

يحاول الطفل تقشير بيضة الإفطار المسلوقة. البيضة لا تتقشر، تنخلع قطعٌ صغيرة منها مع كلِّ جزءٍ صغيرٍ من القشرة، ويصير التقشير كابوسًا، والبيضة تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى جسمٍ مغطّى بالنُّقر، مثل سطح القمر. يصرخ الطفل في الأم «البيضة لا تتقشر» فتجيب الأم وهي منغمسة في غسل المواعين ودون أن يطرف لها جفنٌ «هذا لأنّها طازجة». كذبٌ طبعًا.

تجلس بنتٌ صغيرة متأمّلة أصابع قدمها، كعادة البنات، وتقول مرعوبة: «ماما، إصبعنا قدمي التاليان للإبهام ملتصقان في الأسفل ثم يتفرعان»، فتكذب الأم دون خجلٍ «هذا لأنك جميلة»، فتصدّق الصغيرة وتسعد. وهكذا الكذب كلُّ يومٍ من الصباح حتى المساء. أكل القرنبيط سيجعلك متفوقًا في الدراسة، والسيانخ ستجعلك جبارًا قويًا، وإذا لم

تستحم فستموت، وإذا بللت سريرك وأنت نائم سيسقط من جسمك عضو أو أعضاء. عند الأمهات سيُل من الأكاذيب لا ينقطع، ويتأتى لهن بسهولة ودون حتى تفكير.

في المدرسة، مقرُّ العِلْم وطلب الحقيقة، قال لنا المُعَلِّم وهو يشرح كيف أنَّ غلي الماء يطهره من الجراثيم، واستطرد شارحاً «استمعوا إلى مغلاة الماء في المطبخ حين تبدأ أمهاتكم تحضير الشاي، ستسمعون صوتاً يبدئ مع صعود حرارة الماء، صوتاً يشبه الخرخشة ويبدو قادمًا من بعيد. هذا صوت ملايين الجراثيم وهي تصرخ مستنجدة». صدقناه طبعاً، وراحت مخيلتنا تتصوّر مخلوقاتٍ صغيرة وجهها مدورٌ وأفواؤها مفتوحة إلى مداها الأقصى زاعقة من الألم، بل وتخيلتُ أنَّ لها شعراً تشدُّه يديها من الألم.

إلى يومي هذا عندما أستمع لملايين المتظاهرين في الربيع العربي أو غيره يصرخون «ارحل، ارحل»، صوتٌ آتٍ من بعيدٍ وتجميع لأصوات الناس فأسمع صوتَ ماءٍ يغلي.

ويؤكد هذا صوت المذيع وهو يقول «الشارع يغلي». وأعتقد أنَّ كلَّ من يقرأ هذا العمود حين يسمع صوتَ الماء وهو يغلي سيتذكَّر الجراثيم وصراخها. هذه كذبة تجعل من المألوف شيئاً جديداً وممتعاً. الكاتب الأمريكي بل برايسون يذكر أنَّه في طفولته قال له أحد أصدقائه الصغار إنَّ له أحياناً أكلته الحشرات ولم يبقَ منه سوى الرأس، وإنَّ العائلة أخذت الرأس إلى البيت وأودعته صندوق القبعات، وكيف أنَّ العائلة تُخرج الرأس من الصندوق كي يتفرَّج على التلفزيون في

المساء. هذه قصة جميلة حاصرها الصغار وقتلوها بأسئلة عن كيف
يتنفس الرأس؟ وأين الرئتان؟ وما إلى ذلك من ثرعات.
هذه الأكاذيب تطري الحياة وتجعلها أبهج وأجمل وملؤها الخيال.
عند الإنجليز مثل أحبّه يقول: «لا تدع الحقيقة تقف حائلاً بينك وبين
حكاية طيبة».

بضع كلمات

عندما تكون متأنقاً مزهواً حسب نظرتك إلى نفسك في المرأة وتستقل سيارة أجرة، يحصل أن يخاطبك السائق بكلمة «يا حاج» فتشعر فوراً أن منظرِكَ ليس من الزهو والأناقة في شيء. عبارة «يا حاج» ترديك عجزاً رثاً. عندها تحس أنك طعنت في السن، وعبارة السائق تلك وصف لحالك الحقيقي. تدرك أن ملابسك لا ترشحك للقب «باشا» عند سائق التاكسي في مصر أو حتى أستاذ في الدول العربية الأخرى، وأن ما رأيته في المرأة كان رؤية رغائية بعين متحيّزة.

عندما تكون موفور النشاط تمشي وفي خطواتك قفزة وفي قلبك ربيع كامل وعلى شفئك أغانٍ وتروح لتشتري خضاراً، مثلاً، وعند الدفع يقول لك البائع «الله يعطيك الصحة»، عند ذاك تحس أنك ستودّع الدنيا قريباً جداً. عبارة البائع ستنزع عنك الصحة وتطرد الربيع من قلبك وتحيله خريفاً وتحول الأغاني إلى سُعالٍ، عبارة صغيرة تشعر أنها أدق من الفحص الطبي الكامل وتحاليل الدم لدى كبار الاختصاصيين.

هذه عبارات تشخيصٍ مُوجعة تلتقأها من فم الأغراب ولها مفعول. لكنّ هناك عباراتٍ أخرى تُشخص ناطقها وليس المُخاطب. يكشف الإنسان أغواراً ومجاهل في نفسه، ويتحدّث عن جهله وقلة درايته بقولٍ صغير لا يتجاوز بضع كلمات. أتذكّر صديقاً اضطره الزمن إلى

التعامل مع الكمبيوتر بحكم العمل، ولم يكن يعرف كيف ينطق اسمه (اسم الجهاز وليس اسمه هو). كان في عقله فراغٌ هائلٌ في ما يتعلق بالكمبيوتر وتبعاته. كان في جهازه ملفٌ والجهاز لا يراه لأنَّ الاكستنشن غير معروفٍ. قلتُ له: الملف موجود، ربَّما، لكن الكمبيوتر لا يراه، فقال: «العمى».

هذه «العمى» تكشف حالة من الجهل الهائل. وتأكيِّدًا لذلك الجهل سألني مرة وهو قلْتُ: «الساعة كم يأتي الإيميل؟»، حاولتُ أن أشرح أنَّ الإيميل يأتي عندما يرسلونه وليس له وقتٌ توزيعٍ مثل الرسائل ولم يفهم. ذكر أنَّ ساعي البريد في منطقتهم يأتي بين الثامنة والتاسعة كلَّ صباح، عدا يوم الأحد، ويوزع الرسائل. لم يكن لديَّ نفْسُ كافٍ لأشرح فكرة الإيميل وحتى إن شرحتها لن يفهم.

وهناك آخر كان يحدثني بشيءٍ من الاستفاضة عن الهجرة السرية من بلدٍ إلى آخر. ذكر ما سمعه عن معاناة المتسللين لدى عبورهم الجبال الفاصلة بين البلدين، وكان كلامه مؤزَّرًا بالإحصائيات والوقائع، ومضى في سرده قائلاً: «إنَّ هناك متسلِّلين يموتون أثناء عبور الجبال» وتوقَّف قليلاً ليقول عبارة تكشف جهلاً فظيئاً حين أضاف «أظنُّهم يسقطون من الجبل». هذا يكشف أنَّ الرجل لم يرَ جبلاً إلَّا في أفلام الكرتون. الجبل عنده شيءٌ مدبَّبٌ ينزل منه المرء ويسقط إلى حتفه. وقوعه مصحوبٌ بصرخة تتلاشى ثم صوت ارتطامٍ وموت. لا يعرف أنَّ الجبل أرضٌ فيها طرقٌ ومفازات وكهوفٌ يمكن أن يتوه فيها الإنسان ويموت عطشاً وجوعاً، مثل الصحراء أو أي أرضٍ يباب. جهله انكشف مع عبارة «أظنُّهم يسقطون».

ومن الحبّ ما قتل

المُدن الصغيرة الواقعة على الطرق العامة في العراق وربّما في غيره مدنٌ ضحلة وما فيها عمقٌ. انعدام العمق يأتي من أنّ وجود المدينة وحياتها يقومان على وجود الطريق العام والمدينة تنمو بمرافقته. هي هبة الطريق العام مثل ما مصر هبة النيل. وحياتها تقضي بالتماشي مع الطريق مثل ما حياة مصر تقوم على شريطٍ يمشي مع النيل.

لذلك ترى المدينة طولها كيلومتران وعرضها أو عمقها بالكاد ثلاثة بيوتٍ خلف بعضها على كلّ جانبٍ من الطريق. وهي إلى هذا تتباهى ببضعة مطاعمٍ متفرقة على الطريق، زبائنهما من أبناء السبيل أي المسافرين.

في ذات يومٍ شتائيٍّ في زمنٍ بعيدٍ توقّفنا لتتغدّى في أحد تلك المطاعم. فيه نادٍ يحفظ المنيو عن ظهر قلب ويتلوّه المرّة بعد المرّة بنغمة موقعة مغمضاً عينيه رافعاً رأسه قليلاً كمن ينشد شعراً مدرسياً. النادل يقوم بكلّ شيءٍ من مسح الطاولة إلى ترتيب المنيو إلى إحضار الطعام، وفي الآخر ينادي بصوتٍ مُنغمٍ مخاطباً صاحب المحل منبئاً بحساب كلّ مغادرٍ.

كلُّ هذا عاديٌّ ومألوفٌ. لكنَّ المبهِّر أنَّ صاحبَ المحلِّ جالسٌ عند البابِ وأمامه صينيةٌ صفَّ عليها نقودًا حسب فئاتها، وفوق رأسه لافتةٌ مكتوبٌ عليها «الرجاء الاتفاق على مَنْ سيدفع قبل الوصول إلى هذه النقطة». هذه عبارةٌ من نوع العبارات التي تلخِّص ثقافة كاملة.

مسألة مَنْ سيدفع ليست سهلة، فيها صُراخٌ وشتائمٌ واشتباكٌ بالأيدي وبالعقال أحيانًا. والعقال لمن لا يعرفه سلاحٌ فتاكٌ يجب أن يُعاد البرادعي من تقاعده ليحقِّق فيه. شيءٌ مؤذٍ. والضرب والاشتباك هنا ليست وراءهما بغضاء وكراهية بل الودُّ والاحترامُ كلُّه. ثم إنَّ الاشتباك قد يمتدُّ ويمتد وتعالى فيه نبرة أغلظ الأيمان والقسم بالطلاق.

يعني تكون المرأة جالسة في بيتها بين أطفالها ويأتيها الطلاق لأنَّ أحدهم لم يدع زوجها يدفع ثمن الفاصوليا اليابسة والأرز في مطعمٍ ناءٍ. وحتى هذا الطلاق لا يأتي من عاطفة سيئة بل هو نتاج الحبِّ والتقدير، فهو يعني أنَّ الزوجة هي أغلى ما عند الزوج الذي يحلف بطلاقها. كلُّ هذه الاشتباكات التي تصل حدَّ الركلِ واللكمات والطلاقات وتخريب البيوت يدفعها الحبُّ والتقدير. والزوجة ينبغي أن تسعد لأنَّها غالبية إلى هذا الحدِّ.

هذا التعبير عن الحبِّ بالركل والشرِّ ليس نادرًا ومعزولًا وحكرًا على مجتمعات المدن الصغيرة والأرياف. هناك نساءٌ في الحواضر الكبرى يُؤذِن أزواجهن أذىً شريًّا لأنَّهنَّ يغرنَّ عليهم، وعليهم أن يكونوا ممتنِّين عاشقين. وحتى في العالم الأول تجد الأذى مُعبرًا عن حبٍّ سامٍ.

قرأتُ منذ سنين خبيرًا صغيرًا قادمًا من كندا. لا أذكر المدينة لكنَّها
في كندا. يقول الخبر إنَّ زوجة أَلقَتْ بزوجهَا من شرفة شقة في الطابق
التاسع لأنَّها وجدته يدخن وهي تخاف على صحته ولا تطيق الحياة
دونه. وهكذا حرَّكتها دوافعُ الحب الخالد وأَلقته إلى حتفه من الطابق
التاسع.

وقفه مع الأندال والطيبين

لا أكتمكم أن لديّ أصدقاءً أندالاً. عندي أصحابٌ أوغادٌ أيضاً وهناك كذّابون ضمن الجوقة. المسألة هي أنني أرى أن الأوغاد يحتاجون أصدقاءً أيضاً، مثلنا. وإذا لم أصادقهم أنا فمن يصاحبهم. وهكذا أمنح صداقتي بدلاً عن ناسٍ كثيرين لا تروقهم صحبتهم. هذه تضحية لا أنتظر مكافأة عليها. في شيءٍ من الفدائي.

لي فلسفة قديمة في هذا الصدد تقوم على أنك لا تخشى ندالة أحدٍ ولا كذبه طالما عرفت طبيعته. النذل لن يؤذيك طالما صنّفته تصنيفاً صحيحاً ووضعته في موقعه الصحيح ضمن تلك الخانات الصغيرة التي نصنّف بها الناس. هناك صناديق تشبه صناديق البريد في العمارات، وهي مبنّية ونودع فيها علاقاتنا، كلُّ إنسانٍ ضمن تبويبه الصحيح. هنا الصادق النقي وهنا الوفيّ وهنا الوغدُ والنذلُ والشهمُ إلى آخر تلك السمات. وتعرفون أن النذل يحتاج الشهم. الندالة مرهونة بالشهامة مثل السالب والموجب. وإذا لم يكن هناك طيبون ما كان هناك أوغادٌ.

عندي قصصٌ كثيرة عن أصدقائي الأوغاد، ولي صديقٌ كذّابٌ من النوع الذي إذا كان رأسه يوجعه يقول بطني يؤلمني وإذا أفطر بيضاً

مسلوقاً يقول إنه أفرط بيضاً مقلّياً. كذب قراح لا فائدة من ورائه. ولا ينبغي الاسترسال في سرد حكايات الأوغاد لأنها لا تسرّ.

الطيبون من الأصدقاء هم الذين يبادلون الإنسان ودّاً بودّ وهم الذين يصغون إليك بصفاء وتصغي إليهم بصفاء أيضاً، ويحدثون متى يحملون كلامك محمل الجدّ ومتى يضحكون منك. قبل نحو شهرٍ طرأت على بالي فكرةٌ جديدةٌ مفادها أنّ الناس يشبهون أحذيتهم. قلتها لصديقٍ يعيش في تونس وهو من فئة الطيبين فوجد جاداً بأن ينظر في وجوه الناس وينزل بنظره إلى أحذيتهم ليتحقّق من الأمر بنفسه. لم يقبل كلامي على علّاته لكنّه عامله كما ينبغي؛ فكرة جادة صارمة تستحقّ التحقّق والتدبّر يخضعها للاختبار العلمي والإحصائي.

الفكرة جاءتني حين حاولتُ تفسيرَ سرعة تعرّف الرجل الذي يرمى أحذية المصلّين في المساجد على صاحب كلّ حذاءٍ في عهده. راعي الأحذية والنعال يسمّونه في العراق «كيشوان»، وهي كلمة يبدو أنّها فارسية. الناس يسرفون في وصف ذكائه وفطنته ودقّة ذاكرته. اكتشفتُ أنّ الأمر لا يتطلّب ذكاءً وذاكرةً استثنائيةً لأنّ الناس يشبهون أحذيتهم، وما أسهلّ التعرف على صاحب أي حذاءٍ مثلما يمكن بسهولة نسب كل طفلٍ إلى أبيه في حفلة مزدحمة بالتقاط الشبه، وهو نفس مقدار الشبه بين الحذاء وصاحبه.

هنا ينبغي الاستطراد قليلاً لتوضيح نقطة مهمة، وهي أنّ ذكاء راعي الأحذية وفطنته لا يستحقّان الثناء والإعجاب. هي ذكاوة لا تفضي إلى أكثر من تسليم الأحذية إلى أصحابها. الذكاء الموظّف توظيفاً تافهاً

لا يسمو كثيرًا على الغباء، فهناك أدباءٌ يملكون ناصية العربية، مثلاً، لكنهم يوظفونها في رواية أو قصيدة سيئة. لو كان ذكاء راعي الأحذية مستخدمًا في بناء الجسور لاحترمته.

رائحة الوطن

المغترب يعرف زيارات الصيف السنوية حين يتوافد الأحبة حاملين أشياء جميلة أهمها وجوههم وبسمتهم وبعض الأكلات والخضراوات والخبز والجبن. يحملونها ضاحكين وقيمون لدى المغترب مهما كان عددهم، ومهما كانت سعة بيته.

المغترب فيه حنينٌ دائمٌ لوطنه ولا يحمله معه كما يقولون. ويستعد لزيارة الأحباء ويترقّب وصولهم ويراجع معلوماته عن بلد الإقامة في انتظار أن يقصّ عليهم ويفرجهم. يذاكر تاريخ الكاتدرائيات التي سيزورونها ويخشى أن يخطئ في تاريخ الفتح النورماندي، في حالة إنجلترا، ويحفظ أسماء المواقع، ويخطّط للترفيه عنهم مثل مرشدٍ سياحيّ.

لكنّ الأحبة القادمين تهمهم معرفة واحدة. كلّ أسئلتهم تدور حول أسعار الأشياء. يريدون معرفة سعر كلّ شيء يخطر على بالهم من إطارات السيارات إلى القرنبيط. كم ثمن إطار السيارة المتوسطة هنا؟ أقول: «لا أدري، ولكن اسمع وليام الفاتح أنزل قواته قرب هيستنج عام ١٠٦٦»، فتقاطعك امرأة: «هل عندهم قرنبيط؟ وما ثمنه؟» أقول: «انتبهوا إلى أنّ الكاتدرائية التي ترونها تضمّ طرزا معمارية من عصور

مختلفة، وكيف هي تنمو» فيتدخل رجلٌ فارصًا سؤالاً عن سعر المطرقة العادية أو لمبة النور، وهكذا.

وأذكر مرة أنني زهقتُ من أسئلة الأحبة، ورحتُ أعبتُ وأكذب لإزجاء الوقت. كانت هناك سيدةٌ تريد أن تعرف اسم النهر في لندن، فقلت هذا نهر التيمس والإنجليز مولعون بجماله إلى حدٍّ أنَّ عندهم أغنية تقول: «امتى الزمان يسمح يا جيمس وأقعد معاك على شط التيمس».

فصرختُ السيدة وقالت بسخطٍ: هؤلاء حرامية والأغنية مسروقة من عبد الوهاب، الأغنية الأصلية يقول فيها «امتى الزمان يسمح يا جميل وأقعد معاك على شط النيل».

يعني أنها صدقتُ فعلاً أنَّ الإنجليز يؤلفون أغانٍ بالعامية المصرية ويسرقون من عبد الوهاب.

يقضون وقتهم في التسوق. وفي المساء يعرضون على بعضهم ما اشتروه في ساعات النهار كلها. وبموجب هذا الجدول الصارم ينتهي بي الحال مؤنسًا لأبناء السيدات اللاتي يقضين اليوم بأسره في المحلات. وأطفال الوطن لا يستهويهم شيءٌ. لا شيء مألوفٌ لديهم في إنجلترا.

كان معي يومًا طفلان من هؤلاء، أحدهم في سن السادسة والثاني في سن الرابعة. اهتديتُ إلى طريقة لأسعدهما وأرفه عن نفسي وأثأر منهما أيضًا. منحتهما شيئاً يفهمانه جيدًا بأن أخذتهما إلى محل أحذية كبيرٍ جدًا. وقلتُ لهما: «تستطيعان أن تختارا أي حذاءٍ يعجبكما نسائيًا كان أم رجاليًا، على ذوقكما، وتأتياني به وأنا أتعهد بضربكما بذات

الحذاء المُختار على الرأس». طارا فرحًا. وراحا يجلبان كلَّ صنوف
الأحذية متسابقين قائلين: «عمو أنا، عمو أنا»، والأحذية تنهال على
رأسيهما وأنا مبتهَجٌ وهما سعيدان والعاملات في المحل ينظرن إلى ما
يجري بصبرٍ.

لم نعد نستقبل حاملي رائحة الوطن للأسف. فقد تكفَّلت هواجسُ
الأمْن في أوروبا بقمع القادمين من الشرق الأوسط، وصار الحصول
على الفيزا حُلْمًا لا يتحقَّق.

على شاطئ البحر

هذا موسم الإجازات والبحر. البحر لا يحتاج إلى تعريف. هو ذلك الجسم المائي الذي يفترض أن يكون مستويًا وأفقيًا لكنه يبدو مرتفعًا مثل الجدار. وتنبعث منه رائحة سكانه الأصليين وكلهم من الأسماك والحيوانات الغريبة أخرى.

سكان البحر هؤلاء خارجون من صورة المخلوقات الطبيعية مثل السلحفاة والخروف والأرنب. فيهم ناسٌ يتنفسون من خدودهم، وفيهم من لديه ثماني أذرع. لكن ما يشفع لهم أنهم مكتفون ذاتيًا ولا يتعدون على سكان البرية مثلنا. يعني لا تجد سمك القرش في الشوارع يصيد الأغنام ليأكلها. بينما نحن نذهب إلى البحر ونمسك الأسماك ونأكلها. وهذا يُحسب لهم.

المهم، البحر يقصده الناس أفواجًا ليستمتعوا رغم أن البحر نفسه لا يسلي ولا يعرف سوى بثّ أمواج رتيبة ومملة وساحله يعني الرمل، والرمل يدخل في كل مكان. تدخل حباته المزعجة في كل شيء: الأحذية والملابس والساندويتشات والأنف والحنجرة.

عند ساحل البحر تغوص الأقدام في الرمل، ويصير المشي مهمة شاقة. تغوص الأقدام وينبغي انتشالها بجهدٍ يفوق عناء المشي في

الوحد. وإلى ذلك كل شيء على شاطئ البحر بعيداً عنك. محل بيع
المرطبات يحتاج إلى مسيرة والتوالت يحتاج إلى رحلة شاقة، وكل
التنقلات وقطع المسافات الشاسعة تتم مشياً في الرمال. والناس يرون
في كل هذا مدعاة للبهجة والسرور.

ويجب أن نذكر هنا أن هذه الحياة المريحة على الشاطئ تُسعد
الأطفال عادة. وكل ما يسعد الأطفال يزعج الإنسان العاقل. فالأطفال
حين يكونون سعداء لا يكتفون بابتسامة صامتة ونظرة أمل وتطلع إلى
مستقبل أفضل لأنفسهم ولبلادهم، بل يملأون الدنيا صخباً وزعيقاً
وركضاً عشوائياً في كل اتجاهٍ مثل ركض الدجاجة.

على شاطئ البحر يفقد البشر توازنهم المعهود وهيبتهم بل
وحضارتهم. ينضون عن أنفسهم ملابسهم، ويكشفون أجسامهم التي لا
تسرّ والتي تستثمر البشرية أموالاً هائلة لصناعة ما يكسوها ويحجبها عن
العين. حتى الجلوس قرب البحر عملية متعبة. أمامك خياران أولهما
الجلوس على الأرض واكتساب المزيد من الرمل، وثانيهما الجلوس
على كرسي ليس فيه من الكراسي سوى الاسم. اختراع عجيب مطبق
تطبيقاً ملغزاً تنجم عنه تشكيلات هندسية مختلفة لم أفلح يوماً في
الاهتداء إلى فك لغزه.

تبدأ عملية فتح الكرسي بهدوء ثم تستحيل غضباً ونفاد صبرٍ
فيتطوع أحد محترفي الجلوس عند البحر بالمساعدة مزهواً بمعارفه
ويمنحك ابتسامة العارف الظافر. وحين الجلوس لا تكون جالساً حقاً
بل في وضعٍ شبه أفقي غاطسٍ في الوسط يصعب النهوض منه.

وحين ينتهي اليوم العصيب تعود الأسرة إلى البيت مثل الجيش المكسور، مثل قوات نابليون العائدة من موسكو، تلملم أشياءها من عند الشاطئ وتجرُّ أذيالَ الخيبة وتحاول أن تقنع نفسها بأنَّه كان يومًا بهيجًا. في طريق العودة يقولون أكلنا طعامًا به حبات رملٍ ودخل الرمل في شعرنا وأحذيتنا وأنوفنا، يا لنا من سعداء، يا للبهجة.

لكني مع كلِّ هذا لستُ ضد البحر من حيث المبدأ، بل أشجعه وأدعمه. لا بُدَّ من مكان يعيش فيه الأخطبوط وأنواع المحار وضروري جدًا أن تكون هناك بيئة لإقامة الأسماك. ولا بُدَّ من شيءٍ تسير فيه السفن وتختبئ فيه الغواصات، وإلاَّ فما فائدتها. ثم إنَّ البحارَ تمنح كوكبنا الجميل لونه الأزرق المتميِّز. أتمنَّى التوفيق والنجاح للبحار والمحيطات على كافة الأصعدة، لكنني أنصح بالابتعاد عنها وتركها للبواخر والسمك.

للسياحة أحكامها

في وقتٍ ما أو في آخر من كلِّ عامٍ يطرأ تغييرٌ خطيرٌ على الملايين من البشر. شيءٌ مثل أطوار الاستحالة لدى الحشرات. ترى رجلًا محترمًا قضى سنين عمره في التحصيل والجدِّ وصار طبيبًا وقورًا أو باحثًا أو مديرَ مصرفٍ، تراه ينضو عن نفسه ثوبَ الوقار ويروح يلبس ملابسَ غريبة وشورتًا وقبعة من القشِّ ويصير إنسانًا آخر تمامًا. يصير سائحًا.

السَّيَّاح مجموعةٌ وظيفيَّةٌ بشريَّةٌ مثل المحامين أو حتى المماليك. صنفٌ آدميٌّ له منظومته الذوقية والأخلاقية والسلوكية. المشكلة في السائح هي أننا كلنا مشروع سائح. يعني لا يوجد أحدٌ محصَّنٌ من هذا التحول الخطير.

وعندما نصير سائحين تجمعنا روحٌ انتمائية نقابية. عندما يهاجم الإرهابيون السَّيَّاح ننتفض كلنا ونغضب. يعني لو أنَّ الخبر الذي يأتينا يتحدَّث عن مجزرة استهدفت محامين أو محاسبين لَمَّا غضبنا كلُّ هذا الغضب. هذا يثبت أننا كلنا سَيَّاح أو مشاريع سَيَّاح. السياحة ليست مجرد سفرة ورحلة، وما هي حالة فقط. إنَّها ضربٌ من السلوك أيضًا.

السائح يتسكّع مثل القطط ويستوقفه كلُّ شيء، فضوليٌّ وسريعُ الانبهار. والناس من حوله متضايقون من حركته ويتجاوزونه بسرعة وهو واقفٌ يصور تاكسي أو كلبًا مشردًا أو محلَّ جزّارٍ.

أذكر مرّةً أنني قرأتُ في صحيفةٍ مصرية أن جماعة من اللصوص هاجمت محلًّا في وضح النهار وسرقت محتوياته. ويذكر الخبر أن اللصوص كانوا متنكرّين بهيئة السياح. يعني السياح لهم زيٌّ موحدٌ مثل الشرطة أو الممرضات.

وهم أيضًا لا يشترون ما يشتريه الناس. لا تجد سائحًا يشتري لترًا من زيت عباد الشمس أو صندوق بيضٍ أو خبزًا، بل يشتري أشياءً مثل جملٍ صغيرٍ من الخشب أو مسبحة لا يمكن التسبيح بها، حبّاتها بحجم كرات البنغ بونغ. وأشياء غريبة عجائبية لا يمكن أن يشتريها إنسانٌ سوى، لكنّها للسائح.

في تونس، كنتُ سائحًا ودخلتُ محلًّا يبيع سلعًا تذكارية. لسببٍ أو لآخر، يقدّر صاحب المحل أن كلَّ ما تطلبه وتتوق إليه في حياتك هو صحون على شكل كفٍّ آدمي وطفائيات سجائر على شكل سمكٍ وبعير من الخشب. اشتريتُ طبقًا على شكل كفٍّ من بائعٍ توقّعتُ أن يكون كفُّه على شكل طبقٍ تضع فيه نقودك، لكن كفّه كانت عادية مثل أكفنا.

ومعروضٌ للبيع أيضًا طاجن لا يمكن الطبخ به، عليه رسوم أسماك تسبح في بحرٍ. والطاجن لا يفيد طبعًا وليس جميلًا ويفترضون أنك ستشتريه وأن مكانه في غرفة الضيوف، باعتباره تحفة. وهناك مواعين لا للأكل ولكن للتعليق على الحائط وأشياء سخيفة أخرى.

ولك أن تشتري دُمى ألبسوها الزي الوطني للبلد الذي تزوره. لكن
الدمى أوروبية الوجه شكلها طفولي محمر الخدود وقد جعلوها ترتدي
عقالاً ودشداشة أو شاشية على أنَّها رجلٌ عربيٌّ رغم خدود التفاح
والأعين الكحيلة والشفاه الحمراء. والملابس التي ترتديها الدمى سيئة
التفصيل كثيرة الزواق وكبيرة على الدمية ومنشأة. كلها تذكر بملابس
حميد كارزاي وهيئته الفولكلورية المفتعلة.

الذي يبعث على الاطمئنان أنَّ هذا الطور لا يستمر. بعد فترة
أقصاها شهر يعود الإنسان إلى صوابه ويرجع طبيعياً عاقلاً لكنَّ في بيته
بعيراً من خشبٍ، أو محاسباً ماهراً عنده طفاية سجائر على شكل سمكة
أو طاجن مزوَّق لا يصلح للطبخ موضوعٌ في غرفة الجلوس. وتعلق
في الدهن أضغاثُ ذكرياتٍ ومعها تصميمٌ على ارتكاب السَّفه نفسه في
العام القادم.

برسم الخدمة

الخدمة، بمعنى أن يكون المرء خادماً، مثلها مثل الطب والهندسة. تحتاج الخدمة إلى إعدادٍ وتأهيلٍ وإلى ذلك الفيض الوجداني الذي يجعل الإنسان متفوقاً في ما يعمل. ليس بمقدور أيّ كان أن يكون مهندساً بارعاً وإن درس وأعدّ نفسه إعداداً صحيحاً. هناك من يريد أن يبني طرقات وجسوراً وهناك من لا يريد. وبهذا تكون الخدمة رغبة أيضاً. في بلادنا، الرغبة محذوفة من قائمة متطلبات أي مهنة. عندنا لا يصبح المرء أمين مكتبة برضاه وتخطيطه، إنّما هي الظروف والمعدّل النهائي في الثانوية العامة. ولولا المعدّلات لِمَا وجدت عالم آثارٍ ولا محاسباً ولا أي شيء آخر ولكان المجتمع كله أطباءً ومهندسين.

لاحظتُ في سفراتي إلى البلاد العربية أنّ الذين يخدمون ليسوا خدماً حقاً. هم ناسٌ ساقهم المعدّل إلى الخدمة. الظروف في القرية تدفع الآلاف سنوياً إلى العاصمة للخدمة في البيوت والفنادق والمطاعم وهم في طبيعهم فلاحون. في عاصمة عربية كبرى نزلتُ في فندقٍ فاخرٍ إلى حدّ أنّ عندهم قائمة اختيارات، «منيو»، للوسائد جنب السرير.

في ذلك المكان الباذخ كان ثمة خادمٌ وظيفته توزيع زجاجات الماء المجانية على الضيوف في الغرف بمعدلٍ قنيتي ماءٍ سعة لترٍ للضيف الواحد. كان الرجلُ فلاحًا في داخله. كنتُ أحسن معاملته وأسأله عن الأحوال والمواصلات والأولاد. صارتُ بيننا ألفة وأراد أن يكرمني فاقترح أن يعطيني أربع أو خمس قناني مياه معدنية بدل اثنتين في اليوم. قلتُ: لكنّ الذين ينظفون الغرف سيلاحظون، فاقترح أن يخبئ القناني الإضافية تحت السرير حيث لا يراها أحدٌ. ولم أشأ أن أرفض كرمه الفلاحي فقبلتُ ممتنًا رغم أنني لا أحتاج ماءً إضافيًا. صارت قناني الماء سرًّا بيننا عمقٌ أو اصر الصداقة. لا شيء مثل السرِّ المشترك يضيف للمودة عمقًا وصلابة.

دارت الأيام وغادرتُ الفندق مخلِّفًا ذكريات صداقة الفلاح وستًا وعشرين قنينة ماء تحت السرير.

في بلدٍ عربي آخر عندي صديقٌ من مدينة نائية فيها مقهى بسيطٌ به مقاعد خشبية وطاولاتٌ معدنية ونادلٌ صار خادمًا بسبب المعدل. زار ضيفٌ من العاصمة صديقي هذا يومًا فاصطحبه إلى المقهى. جاء النادل وطلب الضيف زجاجة «فانتا» فجاءه النادل بزجاجة مشروبٍ غازيٍّ محلّيٍّ يسمونه جزافًا «كازوز». قال ابن العاصمة: لكني طلبتُ فانتا، فقال النادل: «هل سيخنقك الكازوز. هل ستموت إذا شربته؟» قال الضيف: «لا طبعًا» فرد النادل: «إذن اشربه واسكت». هكذا بكلِّ رقة.

الحكاية الثالثة مسرحها بلدٌ عربي ثالثٌ معروفٌ بخشونة طباع أهله. حكى لي صديقٌ أنّه نزل بفندقٍ هناك ونفدت سجائره. فطلب

بالتليفون ما يُسمَّى تجاوزًا بـ «خدمة النزلاء». أجابه رجلٌ يبدو أنه سيق
إلى الخدمة سوقًا. قال له صاحبي: «ابعث لي علبة سجائر مارلبورو».
قال الرجل بحدة: «ما عندنا». قال صديقي: «هل لك أن تبعث أحدًا
يحضرها من الخارج؟»، فقال خادم النزلاء: «لماذا لا تبعث أمك
تحضرها لك». وصفق التليفون.

السفهاء في حياتنا

هناك دعاءٌ جميلٌ أحبهُ لأنَّه يطلبُ الإنصافَ بشكله المُطلق، العدلَ بهيئته الصحيحة والمكتملة. الابتهاال يقول: «ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منّا». وهذا مطلبٌ معقولٌ جدًّا؛ إذ ليس من العدالة أن يُؤخَذ المرءُ بجريرة أحدٍ آخر وخصوصًا إذا كان هذا الآخر سفيهاً.

لكنَّا نمضي في حياتنا مُؤاخذين بما يفعل السفهاء منّا. والذي يؤاخذنا ليس الله سبحانه وتعالى بل البشر والهيئات الحكومية والمسؤولون عن السلامة العامة والمجالس البلدية وكلُّ القائمين على أمرنا من بني الإنسان.

المعاناة التي نمرُّ بها من صُنع البشر، وهي نوعٌ من العقوبة الجماعية ردًّا على حماقاتٍ ليست من صُنعنا بل من صُنع السفهاء منّا وأقصد الأطفال. والأطفال كما تعلمون ينقسمون إلى معسكرين مثل بقية الخلق: إناث وذكور. لكنَّ تصنيفهم الحقيقي هو أنَّ البنات سخيفاتٌ والأولاد حيواناتٌ. والقاسم المشترك بين المجموعتين هو السَّفه والطيش.

المعاناة التي نعاني منها نحن العقلاء هي أنك بسببِ رعوتهم لا تستطيع أن تفتح أي شيء دون جهد استثنائي. جرّبوا أن تفتحوا أي قنينة تحتوي على مواد مؤذية إذا دخلت الجسم، من السائل القاصر المستخدم للتعقيم والغسيل حتى زجاجات المواد الحارقة والأدوية وكل شيء. جرّبوا أن تفتحوا الزجاجات أو الحاوية ستجدون أنّ عليكم الضغط على الغطاء من الجانبين أو الضغط إلى أسفل مع اللفّ بعكس اتجاه حركة عقرب الساعة. لماذا كلُّ هذا العناء؟ لأنّ الأطفال سيشرّبونها لو كان فتحها سهلاً. هذا فضلاً عن أكل الكتب وإغراق الريموت في التواليت.

اذهبوا إلى جناح الطوارئ في أي مستشفى ستجدون ولداً قد أفلح في شرب النفط وبتنا نجحت في احتساء كولونيا، وهذا قد أكل صابونة، وتلك قد بلعت دبابيس، وهكذا. ونسأل هنا: الذي أكل الصابونة، هل يغسل وجهه بالهامبورجر؟ لا أستبعد. في المطابخ والحدائق والحمامات كلُّ شيء مغلقٌ بإحكامٍ بسببهم وهناك متاريس تحمي الدواليب.

حتى الأكياس البلاستيكية التي تُمنح مجاناً في السوبر ماركت لم تعدّ متاحة وفي تناول اليد. يجب أن توضع في درج غير متاح لأنّ الأطفال، حفظهم الله، سيرتدونها في رؤوسهم ويختنقون، يعني الطفل هذا يمسك الكيس البلاستيك وبدلاً من أن يضع فيه أشياء يضع فيه رأسه، وبسبب هذه الحماقة علينا كلنا أن نشقى لنصل إليها.

في صغري كان عندي صديق في السادسة وكان أوروبياً. كان مأخوذاً بطقوس حلاقة الوجه التي يمارسها أبوه كل صباح. انتظر خروج أبيه إلى العمل وانفرد بأدوات الحلاقة ليحلق شعر وجهه. عنده

العدّة من فرشة وصابون حلقة وأمّواسٍ وحمامٍ وبابٍ مغلق، لكنّ هناك شيئاً ناقصاً: شعر الوجه، ليس عنده شوارب أو لحية. لكن هذا لم يفل من عزمه فحلّق حاجبيه.

في التاسعة صباحاً، وفي ملعب الـ«ميني غولف» القريب من بيوتنا، ظهر صديقي هذا في الموعد دون حواجب. وسيعاني أبوه من عناء استخدام مفتاحٍ وفتح أقفال ليصل إلى أمّواس الحلقة.

رحلة النكد والشك

وسيلة المواصلات في العادة ليست ملهمة بل عملية ولا تستحضر الفن. هناك أغانٍ طبعاً تذكر السيارة أو الطائرة لكنّها لا تستلهم السيارة نفسها بل تتغنّى بحدثٍ أو سفرة أو بصحبة حبيبٍ. القطار يختلف من حيث كونه ملهمًا بذاته فيه أغانٍ تستلهمه كقطارٍ ذي صوتٍ رتيبٍ جميلٍ وصافرة وبخارٍ أو دخانٍ. الطائرة هي الأسوأ من حيث إنّها تختزل السفر بمشاهدٍ من مطارين: واحد في بلد الإقلاع وآخر في بلد الهبوط. وهي مشاهد لا تسرُّ يظهر فيها ضباط جوازات ورجال أمنٍ يتفحصون المسافرين بشكٍّ وريبة، ويظنون أنّ البشر لا همّ لهم سوى التفجير أو تهريب المخدرات.

وليس بين مشهدي المطارين سوى طنينٍ مستمرٍّ ومشاهد بحارٍ يشبه النظر إليها التطلّع في أطلس العالم. لا موج ولا مياه ولا رذاذ ولا رائحة. تقطع آلاف الأميال ولا ترى شجرة أو حقل قمح. تقطع مساحاتٍ من قارة بأكملها فيها بشرٌ يعرفون كلّ شبرٍ منها وفيها قطعٌ ومشاكل دون أن ترى منها شيئاً. والطائرة نفسها بكلّ من فيها تبدو لأعين من على الأرض أصغر من بعوضة. لهذا السبب، ربما، الطائرة غير ملهمة لا لمن على متنها ولا لمن يرقبها من الأرض.

ومشكلة الطائرة أيضًا هي أنَّ ركَّابها متوتِّرون متجهِّمون. الناس فيها يضيِّقون ذرعًا بصحبة الآخرين وهناك نظراتُ عداٍ وتوجُّس. لم أرَ أحدًا يقدِّم طعامًا لآخر كرمًا وأريحية. ما فيها مجتمع وصحبة يتشكَّلان في الآن. والمسافرون في مقاعد يبدو أنَّها من تصميم قزم معقَّد حاقِد على كلِّ من يزيد طوله على أربعة أقدام، وأفرغ غلَّه في وضع مقاعد تُعاقب الجالسَ فيها على أبعاده. أتصوِّر أنَّ القزم هذا، وأنا أضمن فأنا لا أعرفه، عنده قناعة بأنَّ الإنسان، ذكرًا كان أم أنثى، يستطيع القيام بكلِّ وظائفه وارتفاعه لا يتجاوز الأربعة أقدام، ومن يبلغ طوله أكثر من ذلك فقد تجاوز وطني واستكبر ووجب عذابه.

ولا توجد وسيلة مواصلات تضاهيها في رغبة من على متنها في الفرار منها. ما إن تقف الطائرة حتى يهبَّ الناسُ بخشونة وكلُّ يريد أن يكون أوَّل الفارِّين. يدفع الشاب اليافع عجوزًا ضعيفة وينحِّيها جانبًا بفظاظة، والشاب هو نفسه كان سيساعدها على عبور شارعٍ كبيرٍ بكلِّ عطفٍ ورقة، لكنَّها الرغبة في الفرار.

تنزل من الطائرة لتحط في مشهد المطار الآخر وتشتعل ثورة الشكِّ والترُّبص. في المطارات يستحيل الرجلُ من أمين مكتبة وديع يحظى بثقة أهل مدينته إلى مشروع انتحاري يرتدي حزامًا ناسفًا أو من عتاة المجرمين، فهذا هو الافتراض القائم في المطارات. وتخرج من المطار لتتلقَّى صدمة أخرى. صدمة جوٍّ آخر وثقافة أخرى وملابس مختلفة وعاداتٍ لم تهيتك لها الأربع ساعات من الجلوس في الطائرة للانتقال من لندن إلى القاهرة. أول لفحة هواء صادمة. المسافة الزمنية بين لندن والقاهرة ينبغي أن تكون أسبوعًا على الأقل، لكنَّها الطائرة اللعينة.

الحب والخبز والجبن

أحلى مشهد حبّ في تاريخ الشعر كتبه عبد الرحمن الأبنودي وصار أغنية لفائزة أحمد. تقول الأغنية: «قاعد معاي اللي بحبه وأريده قاعد معاي / وبنقسم اللقمة ونضحك وبنشرب شاي».

هناك من يزعم أنّ مشهد المناجاة من البلكونة في روميو وجوليت هو الأجل. لكنّه مشهدٌ عاديٌّ وخصوصًا لمن زار القاهرة. يعني مشهد المرأة في البلكونة والرجل على الأرض مشهدًا مكرّرًا في أي شارع في القاهرة حين تخاطب الشغالة بواب العمارة في ساعات الضحى. تقف الشغالة في الشرفة وتنادي البواب لتتأكّد هل أحضر شيئًا أو أنّها بصدد أن تطلب منه شيئًا نيابة عن أصحاب البيت. كلّ هذا يتم من البلكونة ويذكّر بروميو وجوليت.

الذي يزيّن مشهد الأبنودي وتقاسم اللقمة والضحك وشرب الشاي هو اللقمة. أحبّ هذا الشعر لأنّي متأكّد أنّ اللقمة جبنٌ وخبزٌ. الانسجام بين الخبز والجبن سماويٌّ رائعٌ وطبيعيٌّ، توصّل إليه الإنسان منذ أقدم العصور. كلاهما، الخبز والجبن، فيه صلابة ومطاوعة في آنٍ واحدٍ. وكلاهما تعبيريٌّ مقطّرٌ عن ثقافة وحضارة وذوق شعبٍ.

أحرص على أكل جُبْن محلي في كلِّ بلدٍ أزوره، والبلد الذي لم أذُق جُبْنَه أشعر أنني لا أعرفه. وهناك بلدانٌ لم أزرها لكنني ذقتُ جُبْنها وأحسُّ أنني أعرفها. أعرف عكا لأنني أكلت الجُبْن العكاوي. تونس زرتها أربع مرات ولا أعرفها لأنني لم أذُق جُبْنها المحلي. في الفندق كانوا يضعون جُبْنًا أوروبيًا ما فيه روح فلاحِي تونس ورعاتها. هذا فضلًا عن أنَّهم يقدِّمونه على شكل شرائح رقيقة، والجُبْن يجب أن يؤكَّل ويمضغ وله حجم وكتلة في الفم.

الجُبْن في بلاد العرب ليس الجُبْن في أوروبا، بل إنَّه يختلف مذاقًا وطريقة صُنع بين مدينة وأخرى في البلد نفسه. تلال يوركشير تنتج الونزليديل، وسهوب ويلز تصنع الكيرفيلي مثلاً. ليس هناك جُبْن واحدٌ بل أجبانٌ ذات أشكالٍ وهشاشة وصلابة مختلفة. وكلها تجد أليفها في الخبز المحلي.

إذا أردت أن أوفي الجُبْن حقه فعليَّ أن أضع كتابًا من عدة أجزاء، عشرة على الأقل. لكي أدوّن كلَّ مشاعري حول الجُبْن، ينبغي أن أطيل وأسهب وما أظنُّ أنَّه عندي بقية من العمر لإيفاء الجُبْن حقه.

ويظلُّ الجُبْن غائبًا عن الأدب العربي رغم روعته. لم يكتب عنه بشَّار بن برد أو المتنبي ولا حتى أحمد شوقي. الأبنودي يظل الوحيد رغم أنَّه لم يوضِّح ما هي اللقمة التي كان يأكلها الحبيبان. لكنني واثقٌ أنَّها جُبْنٌ وخبزٌ مع الشاي. لا يمكن لصفاء اللحظة أن يكتمل إلا بالجُبْن الأبيض مع الخبز.

والذي يثيرني في المشهد ويجعلني أغبط الرجل الذي فيه هو أنه
يتقاسم اللقمة مع الحبيبة. ليس هناك أروغ من تقاسم الأكل مع امرأة
تحبُّك لأنك ستحصل على أكثر من نصيبك بكثير. لاحظ أن المرأة
حين تجالس الحبيب لا تأكل إلا لِمَامًا، بل قد لا تأكل إطلاقًا؛ لدواعي
الولَه والرومانسية، وبذلك يؤول إليك الجُبْن والخبز كُلُّه.

عالم الحكايات

في إنجلترا لا تسمع حكاياتِ. النَّاسُ لا تحكي لبعضِها قصصًا، رغم أنَّ البشر فيها، مثل البشر في بلادنا، ملائون إلى آذانهم تواريخ ومواقف وبالتالي حكايات. يروون شيئًا أثناء السَّمر ودعوات الأصدقاء إلى البيوت والحانات لكنَّك لا تسمع شيئًا من رجلٍ لا تعرفه. الحكايات حُكِّرُ على الأصدقاء.

في لندن تستقلُّ تاكسي وبينك وبين السائق جدارٌ من زجاج. تمضي بسيارة الأجرة من بيتك إلى محطة القطار وتغادر التاكسي دون أن تكون محمَّلًا بحكاية. السائق يضمنُ بأخباره ولا يتكلَّم، وأنت قابعٌ في مقعدك الخلفي لا تصدر منك كلمةٌ واحدة.

تذهب إلى بلدٍ عربيٍّ وتعود محمَّلًا بألف حكاية. في القاهرة يبدأ سئل الحكايات من الصباح وأنت لم تغادر الفندق بعد. منظِّفة الغرفة عندها حكاية، نادل البوفيه في الإفطار عنده قصة، وكذلك موظفة الاستقبال. تتجمَّع عندك على الأقل ثلاث قصصٍ وأنت لم تغادر الفندق بعد.

كُلُّ هذا وأنتَ لم تركب التاكسي بعد. سيارات الأجرة موطن الحكايات. عنده حكاياتٌ عن الشارع الذي تمرّون به، وعن البنات وعن البضاعة المُعلّنة في الملتصقات من «طلّمبات كالبيدا» إلى «تلفزيونات إل جي» مرورًا بالزبادي والشيسسي. عنده حكاياتٌ عن أسرته وأقاربه وعن الكوارث والسياسة. حتى إنّ قررتَ أن تتشاغل عنه بقراءة كتابٍ سيسألك: «ماذا تقرأ؟» ومن هذه النقطة ينطلق الحديث.

تصل إلى حيث تريد وتغادر التاكسي وأنتَ محمّلٌ بمعلوماتٍ غريبة. في ركوب تاكسي واحد قد تسمع عن ابنة السائق التي عمرها تسعة أشهر والتي تدمن الأرجيلة ولا تنام إلّا في المقهى. يصطحبها أبوها زاعقة ساخطة ولا تهدأ إلّا عندما يدخل الوالد أرجيلة في المقهى القريب وتستنشق هي دخان أراجيل رواد المقهى كلهم فتغفو ويحملها الأب برفقٍ إلى البيت. كُلُّ هذا واسمها ليلي.

الخيّط الذي ينظّم القصص هو الشكوى من الغلاء. تسمع آلاف القصص وتتعلم أسعار الأشياء وقطع الغيار، وتتعرف على فواتير الماء والكهرباء والغاز. وسط سيلٍ من هذه المعلومات توقّف السائق مرّة وسألني: «هل تسمع عن شيء اسمه الإحصاء؟» فقلت: «أسمع». فقال إنّ مجموعة من علماء الإحصاء الأمريكيّين حضروا إلى مصر لإجراء دراسة. وسألني: «هل تعرف شيئاً عن علماء الإحصاء؟» واستطرد لوحده «عالم الإحصاء هذا ينظر إليك نظرة واحدة، مجرد نظرة، ويخبرك كم تنفق على الكهرباء والإيجار وطعام الأسرة وكل شيء ويعرف دخلك أيضاً» فأبدتُ العجب.

علماء الإحصاء وجدوا، قال السائق، إنَّ دخل الفرد لا يتجاوز الألف جنيه وإنَّه ينفق نحو ألف وأربعمائة جنيه موزَّعة بين الإيجار والنقل والكهرباء والطعام. ذهل العلماء ولم يعرفوا حلًّا لهذه المعضلة الحسابية. وبعد أن حَكُّوا رؤوسهم وحسبوا وحسبوا توصلوا إلى الحل. فكتبوا في تقريرهم النهائي أنَّ «في مصر ربًّا اسمه الكريم».

لو تقضي عمرًا في إنجلترا لن تسمع قصة جميلة كهذه. دِعْكَ من الحقيقة واستمتع بالحكاية.

في القطار

لا أعرف مَنْ هو العبقري معدوم الإحساس والإنسانية الذي قرّر أن يكون القطار فائق السرعة. جمال القطار أنّه ليس فائق السرعة. كان القطار يسمح للصغار الذين بالكاد يعرفون العدّ من الواحد إلى العشرة أن يحسبوا عرباته حين يمر على مرأى منهم. وكان القطار أيضًا يُشعر الصغار بقدومه بإطلاق صفيرٍ من بعيدٍ. وسرعته تتيح للأطفال أن يؤدّوا واجبَ التحية للركاب ويلوّحون لهم. القطار واثقٌ من نفسه، ويعلن عن وجوده بزهوٍّ ولا يتسلّل ويتسرّب من بين أصابع المدن مثل الحافلات. في كلّ الثقافات القطارٌ مُلهمٌ. والناس يؤنسونه ويسألونه عن وجهته ويطلبون منه أشياء. عبد الوهاب يسأل: «يا وابور قوّلي رايح على فين؟» وياس خضر يطلب منه أن يصيح بقهرٍ صيحة عشقٍ. وأبناء الصعيد يفاتحونه الحديث ولا يقولون ماذا يريدون ويكتفون بمناداته «يا وابور الساعة اتناشر يا مقبّل ع الصعيد».

أيام الرق في جنوب الولايات المتحدة كان العبيد في مزارع القطن يرون فيه شيئاً حراً منطلقاً. غمسوا صيخته في موسيقاهم. تسمع القطار وهو يؤدى بالهارمونيكا في الأغنيات وفي الموسيقى من الجاز إلى السول إلى البلوز.

من يريد أن يرى بلدًا فليسافر في قطاراته. الجلوس فيه يتيح سماع الناس والنظر إليهم وتخمين مقاصدهم بل ومحادثتهم. في قطار في الأناضول رأيت عائلة فلاحين فتحوا صرة طعامهم وتناول الأطفال طعامهم بتسابق، شبعوا لكن ولدًا إحدى عينيهِ زجاجة وبهذا لم يستطع أن يجاري إخوته، وتسَلَّل من الجمع وراح يبكي منعزلاً وبصمت. وفي قطار في إنجلترا كان هناك صبي في الثالثة ينحب بحرقه ويرفض أي محاولة لمراضاته. سألت أباه عن سبب بكائه فقال الأب: «لا أستطيع أن أرضيه، وليس بيدي أن أرضيه أصلاً. هو يبكي لأن القطار ليس أحمر».

في القطار قد يجلس الناس قبالة بعضهم، وفي بلادنا يعزّمون بعضهم لتقاسم ما أحضروه من شطائر وغير ذلك من طعام الرحلة. وفي مصر قد يعزّمك أحد على قرص أسبرين أو حبوب علاج الضغط أو السكري. كل هذا والقطار يمضي على إيقاعٍ منغوم يتكوّن من نوتتين واحدة قصيرة جدًا والثانية قصيرة فقط يعيدهما ويعيدهما دون توقّف. يعني «تُتْك تُتْك، تُتْك تُتْك». وهي نوتات مسالمة تتيح للسامع أن يركّب عليها اسم الحبيب أو الحبيبة، البنت ستردد «أحمد أحمد»، والشاب يهمس على وقع القطار «ليلي ليلي» وهذا بعد ذاته يفضي إلى التنهّد وإغلاق العينين.

في بعض المحطات يكون هناك باعةٌ يزحمون الشبابيك لبيعوا ما لديهم للركاب. القطار محمّلٌ بالناس وبالتالي جالبٌ زبائن. وفي مصر يصعد الباعة إلى القطار ويعرضون ما لديهم من حمص وحلويات وسجائر ومجلات عمرها سنين مقطوعة الأغلفة ولا يغادرون حتى يمشي القطار وتبلغ سرعته حدًّا معيّنًا هم يعرفونه ليقفزوا دون أن يكسروا رقابهم.

قطار اليوم المتوحش لا يسمح بهذا، وليس فيه أصلاً شابكٌ يُفتح ولا يُطلق صفيّرًا، ولا يمكن للأطفال أن يحسبوا عرباته.

الألبوم في جيبِي

في زمنٍ أجمل من هذا الذي نحن فيه كان ألبوم العائلة شيئًا يمكن تلافيه. لم يكن مستترًا وكان له حجمٌ وكتلة وهيئة ألبوم وليس مموّها على شكل راديو أو هاتف. يخرجونه من مكمّنه ويحملونه بخشوع ويفردون صفحاته بإجلالٍ وعناية، ففيه صور الأجداد والأحفاد ويحمل ذكريات ما لا يقل عن ثلاثة أجيالٍ. وكان موعد عرضه يقع بعد العشاء وبعد تناول الحلويات، أي مع القهوة الأخيرة.

هناك وقتٌ كافٍ للتملّص من وجبة الألبوم. تستأذن وتنصرف إن كنتَ تنفّر من سماجة صور العائلة والابتسامات المعلّبة التي عمرها دهورٌ، وهي مفتعلة أصلاً. ولأنّ الشرّ يدعو إلى المزيد من الشرّ فإنّ الألبوم يفضي إلى المزيد من الصور، من رحلة إلى قبرص أو عرس في كركوك. يعني صورًا حديثة لم تجد طريقها إلى الأرشفة بعد.

هذا في الزمن الجميل الذي ودّعناه بحسرة. الآن لا مفرّ من الألبوم. الناس تحمل ألبوماتها في جيوبها ويشهرونها في وجهك وأنت في مقهى تريد أن تخلو إلى نفسك وتحسّي قهوتك وأنت دفانٌ ومتأمّلٌ.

يقفز أحد معارفك في وجهك ويسحب كرسياً ويُخرج تليفونه. التليفون لم يعد تليفوناً فهو ألبوم صورٍ وهو كاميرا أيضاً.

تصوّروا مناسب الشر وأين وصلت! الجهاز الذي يلتقط الصور هو نفسه ألبوم تلك الصور بل ويثُثها حول العالم. يعني صور خطبة بُشري لم تعد محصورة في البيت لا يراها إلا مَنْ سَوَّلت له نفسه البقاء بعد العشاء والحلويات. صور خطوبة بُشري تأتيك إلى المقهى أو وأنت تستريح على مصطبة في حديقة عامة أو وأنت تنتظر الأوتوبيس. وإذا كنت من أصحاب الهواتف الذكية ستصلك صور الخطوبة وأنت في ساحة الطرف الأغر أو في المتحف البريطاني.

وبسبب يُسر النقاط الصور وسهولة بثها صارتُ الناس توثق كلَّ شيء. ويصبح ابن خالتك أو زوجة أخيك وكالة أنباءٍ تبثُّ صوراً كل دقيقة. كانت خالتك عزيزة والآن صارت رويترز.

ولأنَّ الناس تحمل معها هاتفها كلَّ يوم وفي الحلِّ والترحال وفي المواصلات العامة والمقاهي والمكاتب، فإنَّها تحمل كاميرا أيضاً. والهاتف اليوم يلتقط الصور، وقریباً الساعة تحمّص الخبز، وإبريق الشاي يصلح الأحذية. كلُّ شيء يقوم به أي شيء. وبمناسبة وجود كاميرا جاهزة وفي المتناول تلتقط الصور بمناسبة ومن دون مناسبة.

حين يُقال لك هذه صورة خالد تتوقَّع أن يكون ظهوره في مناسبة تستحق التصوير. تتوقَّع أن ترى خالدًا وهو يتسلَّم جائزة نوبل للفيزياء، أو ترى خالدًا يغرس علم بلاده على قمة جبل إيفرست أو على الأقل وهو يتزوَّج. أبدًا، لا يوجد شيءٌ من هذا. سترى صورة خالد وهو

يستعرض رضوضاً أُصيب بها إذ انقلبت به دراجته أو وهو يملأ خزان
سيارته بالوقود.

في زمن النكد هذا صرنا نستقل الحافلة متوجسين لئلا نرى أحداً
نعرفه يحمل في جيبه ألبوماً يضمُّ عشرة آلاف صورة. في زمن البهجة لم
يكن الألبوم يتسع لأكثر من خمسين صورة.

متلازمة ستوكهولم في الحافلة

القنانة تصبح روحًا ووجدانًا. حين يُستعبد الإنسان يظلُّ لفترة حرًّا وطيِّقًا في داخله ويتحَيَّن فرص الهرب والتمرُّد، لكنَّه يستكين بعد حينٍ ويقبل العبودية. يصبح يرى الأشياء بأعين السيِّد. شيء من متلازمة ستوكهولم في هذا. السيِّد يُطعمه ويكسبه ويؤويه.

لا يوجد من عانى من العبودية مثل الإنسان الأسود. لسببٍ أو لآخر أُستعبد لقرونٍ. كانوا يصيدونهم ويحملونهم في السفن إلى بقاع العالم المختلفة. في الولايات المتحدة عملوا في مزارع القطن عملاً مضنيًا ولا إنسانيًا. وكان السيِّد الأبيض ينتقي من انكسر تمامًا وتمكَّنت منه العبودية ويسمح له بالخدمة في البيت، حيث يكون على مقربة من البيض في حُجَر نومهم ولا ضررَ منه.

الذي يُسمَح له بدخول البيت يقال له: «زنجي البيوت». مأمون الجانب ويشعر عبر حواس سيِّده. بل إنَّ أحدهم حين يغضب من زنجي آخر يقول له: «أيُّها الزنجي القذر».

وفي أوروبا دخلوا البيوت كبدعة في القرن السابع عشر. وهناك قصة حقيقية عن كونتيسة أرستقراطية فرنسية كان عندها عبدٌ وسيِّمٌ مفتول العضلات يلزمها. حبلت الكونتيسة وولدت طفلاً أسوداً. فسَّرت لهم السيِّدة الأرستقراطية الأمر بأن قالت: «هذا لأنني أسرفتُ في شُرْبِ القهوة». وكان زوجها والقصر كلُّه والقرية مستعدين لتصديق ذلك وصدِّقوه؛ لأنَّ البديلَ هو افتراض أنَّ الرجلَ الأسودَ يمكن حتى أن يلمس امرأة بيضاء وكونتيسة أيضاً. وهذا مستحيلٌ. واستساغوا حكاية القهوة لأنَّها البديلُ المريح.

في أوروبا اليوم تحوَّلت مشاعر الكراهية لدى السيِّد الأبيض من السود إلى المسلمين. ومن استقرَّت في وجدانه القنائة يكره ما يكرهه السادة. هنا تفسير حكاية المرأة السوداء التي هاجمت المسلمات في حافلة النقل العام الأسبوع الفائت.

المساكين ما صدَّقوا أنَّ السيِّد يكره ناساً أكثر منهم حتى انضمَّ المستعبد منهم تماماً إلى السادة؛ وتفجَّرت عنده كراهية هو ليس منها في شيء. وهذه ظاهرة لمستُها منذ أكثر من عقدٍ في إنجلترا.

متلازمة ستوكهولم هذه لا تتوقَّف عند السود. هناك عربٌ ومسلمون يكرهون أبناء جلدتهم تمثلاً بالسيِّد الأبيض. اطلعتُ على رسومٍ كاريكاتيرٍ سمجةٍ لعربيٍّ مسلمٍ يقيم في باريس يُسرِف في الإساءة والشتيمة الموجهة إلى قومه من عربٍ ومسلمين ليربت السيِّد الأبيض على كتفه. ووصلت بهم العبودية حدَّ أنَّهم ينحنون شُكراً وامتناناً للسيِّد لمجرد أنَّه لا يصفعهم.

عندما أصل إلى مطار هيثرو أتوَّخَى أن أروح عند مسؤول جوازاتٍ أبيض وليس من أبناء المهاجرين؛ لأنَّ احتمالَ العنتِ أقلُّ بكثيرٍ عند الأبيض المتسيّد بطبعه. المهاجر سيحاول في الغالب إثباتَ أنَّه يستحق الثقة التي أولاها إياه السيّد ويسرف في إيذاء بني جلدته. ولا ننسى أنَّ رجال الشرطة السود في ظلِّ الأبارتهايد في جنوب إفريقيا كانوا أكثر وحشية من البيض بكثيرٍ. وابن خلدون لاحظ أنَّ المغلوب يتشبه بالغالب.

لكنَّ المُفْرِح هو أنَّ هذه الظاهرة، متلازمة ستوكهولم، لا تلمُّ بأكثر من ثمانية في المائة من المغلوبين. والسيّدة السوداء في الحافلة منهم ومسؤولو الجوازات في هيثرو كلُّهم من الثمانية في المائة.

العمر الطويل

عندي نظرية جديدة ووصفة ناجعة لإطالة العمر بمقدار ما لا يقل عن أربعة أضعافٍ. يمكن أن تمتدَّ خمس الدقائق وتجعلها نصف ساعة بسهولة. ولك أن تحسَّ أنَّكَ عِشْتَ دهرًا وأنتَ لم تعيش غير بضع ساعاتٍ. إحدى طرق بلوغ هذا الزمن المطوَّل هو القُنُوت دون أفكارٍ. مثل الرهبان البوذيين. يجلسون دون أي تفكيرٍ ودون حركة فتتمرُّ الدقائق وكأنَّها ساعاتٌ. ولمن يستثقل أن يصبح راهبًا بوذيًا، ولا ألومه، فعليه أن يجرب استنشاق البخار من إناءٍ فيه ماءٌ مغليٌّ وفوق رأسه فوطة حمام تغطيه وتضعه في ظلامٍ دامسٍ بحيث لا يرى حتى طاسة الماء. في الظلام ومع التنفُّس البطيء تمرُّ الدقيقة مرور عشر دقائق. ربَّما هو الملل، ولكن ما العيب في الملل. إنَّه يطيل العمر.

كُنَّا في المدارس نحضر دروسًا لمعلمين مضجرين. كلُّ هذا انتهى للأسف؛ وصارت المناهج الدراسية أكثر تسلية وإشاعة للبهجة بحيث يتخرَّج التلميذ غير مستعد للحياة. سينهار مع أول اجتماع في العمل حيث يجتمع الموظفون ويتحدَّث كلُّ منهم ظانًّا أنَّه يقول أشياءً ذكيَّة

وساطعة في حين يروي أفكارًا مملة وخاوية، والتشاؤم ممنوع. المدرسة يفترض أن تُعدّ التلاميذ للحياة، والضجر جزءٌ منها. أعطني تلميذًا حضر دروسًا مضجرة وسأعطيك رجلًا مؤهلًا لخوض تجارب الحياة وعلى رأسها عدم التشاؤم في الاجتماعات ومحاولة إبداء الاهتمام بما يُقال، مثلما كان يفعل في المدرسة.

وبهذا يتوجب إعادة الضجر إلى الصفوف والمدارس.

ينبغي أن تعود الدروس مثل الزمن الأول لا جرافيك فيها ولا صور ملونة، بل كلامٌ رتيبٌ وسبورة سوداء وطباشير أبيض، فالطباشير الملونة بدعة لا تليق بالسأم المطلق في الدروس. وينبغي أيضًا مكافأة المعلم المضحّر.

الضّجر لا يقتصر على الاجتماعات. عندي صديقٌ لم أره منذ سنين كان يطيل عمري لعقود. جلوس ربع ساعة معه يعادل سنة كاملة. في الربع ساعة الواحدة تتعاقب فصولٌ ويأتي الخريف وتتساقط أوراق الأشجار ويأتي بعده شتاءٌ ثم يزهر ربيعٌ يليه صيفٌ جميلٌ. يعيد الكلام ويقف عند تفصيلات هي الملل نفسه ويراجع نفسه ويخطئها ويصححها في دورة مكرورة. أبسط مقطعٍ من حكاياته يستحيل إلى تجربة سماعٍ قاسية. يعني بعد تفصيلات مملة عن لقائه بصديقه حميد في مقهى يقول: «وجاء النادل ومسح الطاولة ورفع ما عليها من أكواب الزبائن الذين كانوا قبلنا جالسين على نفس الطاولة. وطلب حميد قهوة، لا. لم يطلب قهوة، طلب شايًا»، إلخ.

أذكر أنني قرأت منذ سنين عرضاً نقدياً لإحدى أوبرات فاجنر
لناقدٍ ذكيٍّ وشيطان. افتتاحية الأوبرا مملّة فعلاً وبطيئة. أظن الأوبرا هي
لوهينجرين وليس غيرها. ومن يريد أن يسمع مقدماتها سيحدها على
يوتيوب باسم Lohengrin prelude.

يقول الناقد: «في الثامنة بالضبط بدأ العزف. وكان عزفاً رائعاً
منسجماً، تستسلم له ويأخذ بقيادك وينسيك كلّ شيء. وبعد ثلث ساعةٍ
من الأداء السامي نظرتُ إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى الثامنة وخمس
دقائق».

شكراً لساعي البريد

الكتابة اختراعٌ ناجحٌ جداً. بلغ من نجاحه أن أحداً لا يلاحظه. يعني أنت لا تقول كل يوم وأنت تطالع صحيفة أو تتصفح الإنترنت أو تقرأ إرشادات الطبخ على قفا كرتونة البيتزا: يا له من اختراعٍ عظيم! ولا تنبهر كل يومٍ بقدرتك على الكتابة والقراءة.

الاختراع الناجح يصير في خلفية الأشياء ولا يلاحظه أحدٌ. كم رأينا في أفلام الخيال العلمي تصوّراً للمستقبل فيه الكمبيوتر مهيمٌ ويصدر أوامر للناس وهو بحجم الغرفة. نجح الكمبيوتر بحيث صار شيئاً ذليلاً مخفياً يقع ضمن ساعة اليد ولا يأبه له أحدٌ، لا يسيطر، بل أليفٌ يمكن أن يلعب معه الصغار، بل ويلعبون به فعلاً عبر البلادي ستيشن والتابلت والتناندو.

لا أحد عاقلٌ يتوقّف ليلقي نظرة انبهارٍ على دوايب السيارة رغم أن العجلة اختراعٌ كبيرٌ وعظيمٌ حقاً. أنا شخصياً لم ألمس إعجاباً بالعجلة، ولم أشهد مدحاً في الكتابة وعملية تحويل أفكار شخصٍ ما إلى رموزٍ يفكّها شخصٌ آخر.

المشكلة ليست في الكتابة بل إنَّها تكمن في الرسائل والبريد وسهولة نقل الرسالة حتى غير الإلكترونيّة من مكانٍ إلى آخر ضمن منظومة تُدعى البريد. كل يومٍ تصلُّك قوائمٌ وأشياءٌ تشيع النكد بالبريد. في الزمن الجميل منذ آلاف السنين كان الناس يكتبون على الحجر. اليوم يكتبون على الورق وهو خفيفٌ وسهلُ الحملِ ولا يتجاوز وزن الصفحة الجرام أو الجرامين.

أتصوّر أيامَ العزِّ والنقش على الحجر؛ وأتمنّى أن يعودَ ذلك الزمن الجميل. أتخيّل أنّ شركة الكهرباء أو مأمور الضرائب وهما يبعثان رسائل يبلغ وزنها نصفَ طنٍّ. والذين يدسّون من فتحة البريد في الباب ويرتقون بضعة طوابق ليوصلوا إعلان بيتزا ديلفري وهم يحملون صخرة وزنها ربع طنٍّ. أتصوّر هذا وأبتسم بتشفٍّ.

البريد أيام الدولة العباسية والدولة الأموية غريبٌ أيضًا. يعني الخليفة عندما يجيئه البريد ليس مثلنا. لا يتوقَّع قوائمَ كهرباءٍ وغازٍ ولا حتى بطاقات معايدة. البريد أيامها كان يحمل رؤوسًا بشرية مقطوعة للعصاة والمتمردين من الخوارج وغيرهم. وأحيانًا يتضمَّن البريد شاعرًا صحيحَ الجسم أو راوية شعر. يأرق الخليفة أو الأمير محاولاً تذكّر بقية بيت: يذكر الشطر ولا يذكر العجز. يقول احملوا حماد الراوية على البريد. حماد الراوية سيكون مرعوباً لأيامٍ وليالٍ وهو رسالة محمولة على البغال بين الكوفة ودمشق. لا أحد يعرف ماذا يُراد به. تصل الرسالة، التي هي حماد الراوية بشخصه، إلى أمير المؤمنين وإذا به يطلب شعرًا لجرير، لا أكثر.

والأمور تسير من سيئ إلى أسوأ. وصارت هناك رسالة لا وزن لها
إطلاقاً، لا تزن حتى جراماً واحداً، تأتي ضمن منظومة بريد يُقال لها «إي
ميل». رسالة تصل دون إتاحة فسحة للتنفّس بين المرسل والمرسل إليه.
ضمن شوقي للزمن الجميل أتصوّر رافعة ميكانيكية جبّارة تقف
أمام بيتي وأنظر إليها من النافذة. الرافعة تحرك ذراعها العملاق وتحمل
صخرة ذات ربع طنّ. وأبتسم وأقول جاءت قائمة الكهرباء.

غوغاء لكنهم ليبراليون

كان التلفزيون يعرض مشاهدَ صاخبةَ لنحو مليون إنسانٍ غاضِبٍ. الإنسان الغاضِب مخلوقٌ خطيرٌ وأوصي بالابتعاد عنه. لم يكن الجمع المتفجّر يهتف «ارحل ارحل»، ولم تكن المشاهد من ميدان التحرير، بل من باريس. كان الغاضِبون يهتفون «جيه سوي شارلي» (أنا شارلي) ويتقدّم مسيرة الاحتجاج رئيس الدولة نفسه. المظاهرة رسمية وكالعادة، هناك شيءٌ مضحكٌ في أن يقودَ رئيس الدولة مسيرة احتجاجٍ في دولته. الدعوة كانت للمطالبة بإرساء قيم الليبرالية وتحمل الرأي الآخر، ذاك الذي يُسمّى تسامحًا. وراح خيالي النشط يتصوّر رجلاً وسط هذه الحشود يقول: «علينا أن نفهم الأسباب التي حملت القتلة إلى ارتكاب جريمتهم». أتخيّل أنّ الليبراليين سيقتلونه ضربًا ويقطعون أوصاله بأسنانهم.

هذا ما آلت إليه أمور الليبرالية حديثًا. المتسامحون صاروا يحاصرون بيوتًا ويضرمون فيها النار. ورثة عصر التنوير ما فيهم شيءٌ من التنوّر. لديهم من احترام الآخر ما يكفي للتعصّب لشيءٍ يسمّونه «الاستقامة السياسية» وهي عبارة يُراد بها فهم الآخر ومشاعره ولها ممارساتٌ مضحكة.

من تلك الممارسات ما أعلنته ناظرة مدرسة ليبرالية وتقدمية في لندن في التسعينيات عن منع تدريس المراهقين مسرحية «روميو وجولييت». قرار المنع موجودٌ وموثَّق، بل وله حثاياتٌ.

تقول ناظرة المدرسة إنَّ مسرحية شكسبير الأشهر تروِّج للحبِّ بين ولدٍ وبنْتٍ، أي لمشاعرٍ حبِّ بين طرفين من جنسين مختلفين. والمسرحية، في نظرها تتجاهل المثليين والسحاقيات، وهذا تحاملٌ كبيرٌ وانعدامٌ كاملٌ لقيم التسامح. هذه حكاية حقيقية.

وبناءً على تفهّم مشاعر الآخرين صارت الـ «بي. بي. سي» لا تقول سنة كذا وكذا قبل الميلاد؛ لأنَّ هذا قد يجرح غير المسيحيين وهذا فيه اضطهاد للأقليات. واستعاضت عن قبل الميلاد بعبارة «قبل الحقبة العامة».

كلُّ هذا والمسلمون أنفسهم وفي بلادهم يقولون «قبل الميلاد». تُحمِّلنا الـ «بي. بي. سي» فضلاً نحن في غنى عنه تماماً، لكنَّه يظل فضلاً ويداً بيضاء وديناً في رقبتنا دون أدنى داعٍ.

وهناك في الولايات المتحدة مدارس تضع في فترة عيد الميلاد شجرة مزوّقة ومزدانة بالمصابيح الصغيرة والأشرطة البراقة، ولكنها لا تسمح للأطفال بأن يسمّوها شجرة عيد الميلاد أي «شجرة الكريسماس»، وعليهم أن يسمّوها اسمًا سميحاً وهو «شجرة العطلة»، من باب احترام مشاعر المسلمين. ومرةً أخرى نذكر أنَّ المسلمين وفي بلدانهم يسمّونها «شجرة الكريسماس»، وتحتلُّ واجهات المحلات والفنادق والمولات التجارية بهذا الاسم.

هذا ما كان من أمر الليبراليين في الغرب، أما عندنا فالغوغاء الليبراليون يكتفون من التحرر والتسامح بشرب المشروبات من الزجاجاة مباشرة والكوكاكولا من العلبة دون قدح. وقد تمتدُّ ليبراليتهم إلى حدودٍ أبعد وأسمى، فيرتدون قبعة بيزبول بالمقلوب، ويضعون وشماً غريباً وقد يدسُّون دبابيس في أنوفهم للتوكيد.

هذه الإجراءات أسهل بكثيرٍ من مراجعة النفس وحملها على تحمُّل الآخر وفهمه، وأيسر من قراءة مونتسكيو وفهم فكر إدموند بيرك وحصافة توم باين وتسامح الإمام الشافعي. إجراءاتٌ بسيطةٌ بموجبها تبلغ ذروة الفكر الليبرالي بمجرد احتساء الكوكاكولا من العلبة مباشرة.

وداعاً بريد القراء

كانت الناس تبعث رسائلَ إلى محرّر صفحة بريد القراء. كتابة الرسالة ومن ثم وضعها في ظرفٍ وإلصاق الطابع والذهاب إلى مكتب البريد، إجراءات تُملِي على الكاتب شيئاً من الوقار والتأمل في ما يكتب والتخطيط لما سيقول. كتابة كتلك فيها تهيبٌ ومسؤولية. ومن تُنشر رسالته يسعد ويفتخر ويقتطع الصفحة التي فيها رسالته المنشورة ويحملها في جيبه ليفرجها للناس بزهوٍ.

الكاتب الإنجليزي بي جي وودهاوس يذكر كيف أنّ وليام فوكنر كتب رسالة لصحيفة التايمز اللندنية ونُشرت فراح فوكنر يستعرض رسالته المنشورة تلك مزهوّاً. يحمل في جيبه صفحة التايمز التي بها رسالته في المقاهي ويفرّج الناس عليها ملؤه الفخر. كلُّ هذا ووليام فوكنر حائزٌ على جائزة نوبل للآداب.

جائزة نوبل شيءٌ والرسالة المنشورة شيءٌ آخر. أن تُنشر لك رسالة في صحيفة يملؤك تيهًا لسببٍ لا نعرفه. وأذكر أنني مرة طُلب إليّ أن أختار اسمًا مبتكرًا لصفحة بريد القراء في المجلة التي أعمل فيها ولم يسعفني التفكير والقدرة على الابتكار إلا بعنوانين. الأوّل كان «وقفة مع الأندال» والثاني «الأوغاد يكتبون» ورُفِض الاقتراحان بالطبع. كنتُ

متحاملاً على القراء ورسائلهم. وكنتُ ساخطاً متبرماً من الزمن الذي جعلني أقرأ ما يخطئه القراء العرب في التسعينيات. أحلم بأني مسؤول بريد القراء في مجلة «الرسالة» في القاهرة في الثلاثينيات، وأتلقى رسائل من زكي مبارك وطه حسين والرافعي.

أذكر أنَّ الصحافة العربية في التسعينيات كانت ضاحجة بقصة فنانة قيل إنها أسمت كلبها اسماً فيه إساءة للدين والأصول. هاجت الناس وامتلأ بريد القراء برسائل تعبر عن السخط والغضب الشديدين من الواقعة المزعومة. من بين الرسائل كانت هناك واحدة قادمة من مدينة في قلب صحراء العرب وما كنتُ أتوقع أنَّ فيها خدمات بريد. لكنَّ أحد سكانها عرف بحكاية الفنانة وكتبها وما يُشاع. بلغ هياجه إلى حدِّ أنه قرَّر أن يكتب رسالة. قرأتُ رسالته وأحببْتُها لبساطتها. لا أذكر كلَّ ما جاء فيها فهي شتائم ورغو في الفم وسُعار. لكنَّه ختمها بسؤالين لا أزال أذكرهما وأضحك، حيث قال: «خبروني ما هو دين هذه الفاجرة؟ هل هي أردنية؟».

هاكمُ رجلاً من بيئة ترى في الأردن ضرباً من الدنمارك، وتعتبره عملياً بلداً اسكندنافية، أو أنَّ «الأردنية» طائفة ستهلك بإذن الله، وليست من الفرق الناجية حتماً.

الآن اختفى بريد القراء في معظمه، وحلَّت محله تعليقاتُ القراء في المواقع الإلكترونية للصحف مما زاد في تفاهة المعروض. اختفى التهيب الذي تمليه الرسالة، وصارت الناس تكتب تعليقاتاً من الفراش أو من الحمام على هواتف ذكية. الأفكار لا تنضج ولكنها تُبثُّ آنياً، وتظهر

أوتوماتيكياً. تقرأ الخبر أو المقال وتقرأ معه سيلاً من اللغو والتفاهة المبرحة، بل وأنواعاً من السباب والشتائم.

ولكن لا بأس مع الحياة. هناك اليوم دعواتٌ حصيفة لإغلاق باب التعليقات. وأخذتُ بعضُ المواقع بالفعل قراراً بوقف نشر التعليقات. لن أفقد التعليقات؛ فمعظمها يقول تعقيباً على أي خبر: «حسبي الله ونعم الوكيل» لا غير.

علام تضحك؟

في وحول التخلف، الناس يضحكون على من يكرهونه مهما كانت النكتة بحقه سمجة وغبية. ويكفي أن تنظر إلى تعليقات القراء في مواقع الإنترنت وإعادة بث التغريدات التي يُفترض أنها ذكية ومضحكة لكنها ليست كذلك وإنك تعجب بها لأنك تتفق معها.

زمان، كان رسم الكاريكاتير أقرب إلى ازدراء شخص وتضخيم عيوبه منه إلى النكتة الذكية. كان كارهو ملك فرنسي من ملوك ما بعد الثورة يعتقدون أن الصورة الأذكى هي مجرد رسمه بمؤخرة كبيرة جدًا وبنظرون مفتوح، أو نشر صورة لجمال عبد الناصر وأنفه طويل جدًا، يضحك منها من يكره عبد الناصر. هذا العمل اسمه *lamponing* وقد اختفى من أوروبا تقريبًا لكنه ما زال موجودًا عندنا. بالأمس رأيت كاريكاتيرًا يسخر من زعيمٍ سياسيٍّ أحترمه لصدقه وعدم التوائه لكني ضحكتُ لأنَّ الفكرة ذكيَّة ومضحكة. يعني أنَّ بإمكانني أن أضحك من سخرية على شخصٍ أحترمه.

لا بُدَّ أن أذكر أنني أكتب عن الضحك لأنني مهمومٌ ومقطَّبٌ. أعمل بالحكمة القديمة التي تقول: «من يستطيع أن يفعل شيئًا يفعله، ومن لا يقدر يكتفي بالحديث عن الشيء». الضحك التلقائي الذي لا يبدو أن له سببًا ما زال موجودًا وهو فطريُّ. أن ترى رجلًا يتزحلق بقشرة موز

وينكفى على وجهه يظل مضحكاً مهما تطوّرنا. وسنضحك أكثر لو كان الرجل وقوراً وأنيقاً. لا يزال مشهد رجلٍ يمشي ويرتطم بعمودٍ أو حاجزٍ زجاجي يضحكننا رغم أنّ الارتطام مؤذٍ. الأطفال الذين لا يزالون رضعاً يضحكون. ينظر أحدهم بمكرٍ ثم ينفجر ضاحكاً.

وهناك الضحك الغبي الذي لا يؤسّس له سوى كراهية من يُستَم. شتيمة خالصة لا ذكاء من خلفها ولا نكتة، لكنّها تفجّر الضحكات وتثير الإعجاب. وأذكر أنّ قناة تلفزيونية كانت تنقل بالبثّ المباشر وعبر الأقمار الصناعية صوراً من غرفة كئيبة لرجالٍ جالسين على حشّيات يشتمون رئيس الدولة وأباه وأمه شتيمة سوقية، والقناة ترى فيها شيئاً يُستحقّ أن يشاهده العالم وبالبثّ المباشر.

وكُلّنا يذكر بيتَ شعرٍ شهيراً جدّاً حفظه العرب وابتهجوا به وهو ليس من الشعر في شيء. بيتاً يقول «أولاد الـ... لا أستثني منكم أحداً»، شتيمة بذينة لا لماحية فيها ولا سخرية لكنّها موجّهة إلى الحُكّام.

منذ قرابة عشر سنين ذهبتُ إلى محلٍ يبيع قطع غيارٍ ومواد سبّاقة. لدى وصولي كان هناك سبّاكان واقفان في انتظار تلقّي ما اشترياه. قال أحدهما للآخر مستمراً في سرد حكاية كانا قد بدأ بها قبل وصولي. ما سمعته كان أنّ المتحدث يسأل المستمع بالاح «أعرف ماذا قلتُ له؟» ويستطرد قائلاً: «قلتُ له ثمانين جنيهاً» وانفجراً ضاحكين. مضى على ذلك عشر سنواتٍ، وإلى اليوم أخصّص ربع ساعة من يومي محاولاً أن أضع سيناريو الحكاية التي أدّت إلى تفجير الضحك لقول «ثمانين جنيهاً». يعني ماذا حصل ليكون هذا القول مضحكاً. وإلى يومي هذا ما زلتُ عاجزاً عن تصوّر الحكاية. الضحك لغزٌ.

صناديد اليوم

دائمًا أقارن الحاضر بالماضي، ودائمًا المقارنة تأتي لصالح الماضي. الأسبوع الماضي تقارير الأخبار كلها تُظهر شبَّانًا وفتيات عاقدين العزم على الذهاب إلى مرقصٍ أو بارٍ أو مباراة كرة قدم في عواصم أوروبية شتَّى كشأنهم في ليلة عطلة نهاية الأسبوع. وهذا فعل ترفيه لا غبار عليه، لكنَّ المذيع يُخبرنا أنَّ هؤلاء يتحدثون الإرهاب. الشباب أنفسهم مقتنعون أنَّهم بالذهاب إلى المرقص إنما يتصدُّون للإرهاب بقلبٍ من الفولاذ.

الأشياء لم تعد الأشياء. الزمن تغير. كلُّ مسمَّى لا يعني ما يقوله. حتى الطعام مصنوعٌ من موادٍ ذات أسماءٍ غريبة. والمعادن بلاستيكية وكيس الورق ربَّما مصنوعٌ من خلاصة السمك أو الأرز، والهاتف الذي في يدك إنما هو كاميرا وأطلس. صرنا لا ندري، كلُّ شيء ليس بمعناه. والآن حان دور القيم والمفاهيم لتتغير بحيث تصير البطولة تعني الذهاب إلى مقصفٍ أو السُّكر في حانة أو الرقص على صخب الروك أند رول. المشكلة أنَّ الجميع مقتنعٌ بمفهوم الشجاعة الجديد هذا.

المسألة تكمن في الإقناع. الإعلام الآن يروج لمفهوم عجيب وهو أن الإرهابيين يغارون من أسلوب حياتنا ويصوّر لنا أن مقاتلي طالبان في تورا بورا يموتون غيرة وحسدًا. الأوروبي مقتنع تمامًا بأن هناك مقاتلين في الجبال جالسون يتمنون لو أن عندهم قروضًا مصرفية وبطاقة ائتمان، وأنهم مستعدون لأن يدفعوا حياتهم لقاء رحلة تسوق واحدة في المول التجاري وزيارة لمتجر بيناتون أو كلاركس. أغلى أمانهم أن يشتروا نظارات شمسية عبر الإنترنت.

بهذه القناعة يتغيّر مفهوم البطولة. هنا نقف لتذكّر البطولة القديمة. في الحرب العظمى، مثلاً، يتوجّب على المُلازم أن يخرج من الخندق بمفرده شاهراً مسدساً ليُطْلِق رصاصة بدء الهجوم ثم يندفع نحو الموت مكشوفاً وحده ماثلاً أمام مدافع رشاشة من خندق العدو. وفي زمن أبعد يغير الفارس وحده مخترقاً صفوف العدو في ما يُعرف بالحملة. يحمل عليهم والسيوف في انتظاره تتخاطفه يميناً ويساراً. الشجاعة، أيام زمان، تكمن في اقتحام الخطر المميت.

أبطال اليوم مختلفون. يخرجون من معاليلهم مسلحون بأي فون ويذهبون إلى لعبة كرة قدم غير هيّابين. يسأله الناس «أين ذاهب؟» يقول «لحضور مباراة تشيلسي وأرسنال». يبهتون ويقولون له «ألا تخاف؟ ألا تفكر بمآل عائلتك؟ كن عاقلاً ولا تسمع صفارة الحكم». فيقول هازئاً بالموت «نحن لها».

في أوروبا كلما ترى سكراناً يغني في الشارع أو فتاة ترقص في ديسكو فأعلم أنك إزاء أبطال هم مادة الأساطير وعناوين قصائد الفخر.

وهناك من تبُلِّغ بهم الشجاعة والفروسية حدَّ أنَّهم يذهبون إلى البار ويطلبون «دراي مارتيني»، ولا يكتفون بقدحٍ واحدٍ من كثرة الجرأة والرغبة في الاقتحام.

الجبنة الهَيَّابون يجلسون في البيت ويقرأون كتبًا بينما الشجعان يرقصون في الـ «ديسكو»، ويجوسون خلال المسارح والبارات. لكنني واثقٌ أنَّ أبطالَ اليوم لا يستطيعون أن يواجهوا جماعة مثل هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إن وُجِدَت. يتحدون الإرهاب فقط، فهذا اختصاص.

الغيورون

أعرف ناسًا غيورين على الدين، لا بمعنى أنَّهم يذودون عنه ولكن بمعنى أنَّهم لا يريدون لأحدٍ غيرهم أن يكون عنده دينٌ، مثل الغيرة على العرض. لا يطيقون أن يروا صائمًا مصليًا غيرهم. ولو رأوه سيجدون ألفَ مطعن ومطعن على صيامه، ويسألونه بتشفٍّ: منذ متى وأنتَ تصوم؟ وينقَّبون عن أي مثلبٍ ليبطلوا صيامه. يبحثون عن أخطاءٍ إجرائيةٍ بدأبٍ ليفسدوا عليه تديُّنه. الهدف هو أن يخلص الدين لهم وحدهم. هؤلاء لا سبيل إلى إسعادهم سوى أن تدَّعي أمامهم أنَّك لا تعرف شيئًا ولا تحافظ على صلاتك بل إنَّك لا تعرف كيف تؤدي الصلاة أصلاً. حينئذٍ سيبتسمون ويحبونك ويربتون على كتفك قائلين بتسامحٍ «لا عليك، لا عليك».

وأعرف حقًا صاحبَ مطعمٍ عنده غيرة على أكله ولا يحب أن يأكله كل من هبَّ ودبَّ، يعني الزبائن. لا يطيق مشهَدَ إنسانٍ غريبٍ يأكل زنود الخراف التي يطبخها مطعمه. صاحب المطعم هذا يسمح لبعض الزبائن بالأكل ولكن على مضضٍ لكي يحقق دخلاً. ولو تيسَّرت له سُبُل العيش لفتح مطعمًا يمنع دخول الزبائن تمامًا. وحده يتحرَّك بين قدور الطبخ ويأكل ما يريد.

كل هذا موجودٌ وأستطيع أن أسمى المذكورين بأسمائهم للتحقق من صدق الزعم.

ولا بُدَّ أنكم صادفتُم سائق حافلة نقلٍ عامٍ يضيق ذرعًا بالركاب. يحب حافلته ويريدها خالصة له، ينطلق بها من موقفٍ إلى موقفٍ دون أن يحمل راكبًا واحدًا. وهناك طبعًا كثيرون يغارون على المعرفة. تسعدهم رؤية الجاهل ويبتهجون برؤية الأخطاء. ينزعجون ويغضبون إن قلتَ أمامهم شيئًا ينمُّ عن معرفة. يقبلون معرفتك كمن يتجرَّع السمَّ. المعرفة لهم والذكاء ملك يمينهم، ومن يتجرَّأ على أن يحوز شيئًا من هذا يعتبرونه معتديًا آثمًا.

أيضًا يوجد من يحتكرون الثواب والأجر. يعتقدون أن كمية الثواب التي يمكن أن يوجد بها الله محدودة، وأنَّ عليهم الاستئثار بالقسط الأعظم منها. يتصرَّفون وكأنَّ أي أجرٍ يصيبك إنما ينقص من حصتهم وأنَّك تحصل على الأجر عدوانًا واغتصابًا وكأنَّ أجرك مسحوبٌ من رصيدهم.

لذلك يحاصر هؤلاء منابع الأجر ويتخذون الخطوات لدرئكَ عنه. يعرفون أنَّ الإنسان مُطالب بأن يردَّ التحية بأحسنَ منها أو يردّها فقط. الردُّ بالمثل حد أدنى. الآية الكريمة تقول ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾. هم لا يملكون أن يُملُّوا عليك كيف ترد لكنهم يملكون أن يصيغوا تحيتهم. لذلك يصيغونها بخبثٍ بحيث لا تستطيع أن تحيي بأحسن منها فيحملونك على سلوك الحد الأدنى.

يصلون إلى ذلك بأن يحيوك قائلين: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته». بماذا تجيب؟ لا تستطيع أن تقول «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وهابي نيوير» فهذا غير مسموح به إطلاقاً. يعني هم يبلغون الغاية في السلام فيحصرونك في خيار الردِّ بالمثل. الـ «هابي نيوير» ممنوعٌ وهذا مؤكَّد. وهذه مسألة سُئِلَ فيها ابن عباس فقال: «إنَّ السلام ينتهي إلى البركة».

وهكذا يبلغ اللؤم والاستحواذ على الأجر والثواب آفاقاً جديدة.

الترفع عن الصغائر

نحن شعبٌ عظيمٌ وقومٌ جبّارون. لا نأبه بالصغائر واهتماماتنا عالية وراقية. نهزأ من الصغائر مثل التعليم والصحة والمواصلات، فهذه أمورٌ تافهة لا تستحق اهتمام العظماء. العظماء على أكتافهم تقوم المدنيات والحضارات والسلام العالمي.

معرفتنا أوسع وأعلى وأرقى. أي بائع خضار عندنا يعرف كيف جرت عملية تفجير برجى مركز التجارة العالمي في نيويورك. أسأله سيحكي لك بنصف تركيز، إذ هو مشغولٌ بلفّ كيلو الطماطم في كيسٍ، عن علاقة «الأف بي آي» بالإرهابيين، وعن إخراج الموظفين اليهود من المبنيين حتى لا يُصابوا بأذى. المئات منهم سيقولون ذلك وقد يعطونك رقمًا محدّدًا مثل مائتين أو اثنين وسبعين، إذا كنتَ محظوظًا.

أساس هذا هو ليس مجرد الإيمان بالمؤامرات، وبأنّ أمور العالم تُدبّر بليلٍ وهناك كيدٌ دائمٌ. الأساس الحقيقي هو حب الظهور بمظهر العارف بشؤون كونية والترفع عن الصغائر. يعني أنّ بائع الخضار يدع الأمور التافهة مثل سبب ارتفاع سعر الطماطم التي يبيعها، يدعها للتافهين بينما هو يعمل فكره في أسباب انهيار الاتحاد السوفيتي. والتوصّل إلى أنّ جورباتشوف عميلٌ للسي آي إيه.

ويستطيع أن يروي لك كيف جُنِّد وكيف تسَلَّق سُلَّم الحزب الشيوعي السوفيتي وفي أي عام. المشكلة أنَّ رفاقه وأصحابه في السهر بالمقاهي كلهم على شاكلته. تقرقر النرجيلة على وقع حديثٍ عن تمويل حركة طالبان وكيف أنَّهم مدعومون من قِبَل القوى الغربية. والاستشهادات التي يسوقونها عجيبة. اكتشفتُ أنَّهم يحبون التحليل الجيو-استراتيجي لكن أدوات التحليل تنتمي إلى سوق الخضار ومكائده اليومية. المضحك هو علو شأن الموضوع وتدني أدوات معالجته.

أذكر أنني وصلتُ إلى القاهرة ليلة انعقاد قمة شرم الشيخ لاتخاذ موقفٍ عربي موحدٍ من غزو العراق الذي بات وشيكًا في مطلع مارس من عام ٢٠٠٣. راح سائق التاكسي القاهري، كالعادة، يحدِّثني عن الغزو وعن المؤتمر واحتمالات الحرب بلهجة الخبير العالم. سألته بلهفة «هل حضر العراق إلى الاجتماع» فقال مترددًا: «لا أظن فشرم الشيخ منطقة سياحية والعراق شعبي شوية بسبب الحصار، ربنا يعينهم». الحكاية لا تحتاج إلى تعليقٍ لكنَّها تثبت ما أذهب إليه حول الموضوع والأدوات. أي بائع بطيخ عندنا يقول بلهجة المتحكِّم في موضوعه «اسمع مني» بيقينٍ ساطع ولهجة أمرة لا تدع مجالًا للطعن في صحة ما يقول. «اسمع مني. أنا أخبرك بما قال ريجان لجورباتشوف في قمة ريكيافيك» ويمضي يسرد وقائع أكثر اجتماعات العالم سرية وقتذاك. يعجبني اليقين الذي لديه.

الحكومات والمسؤولون عندنا سعداء بهذا. الشعب المنشغل باقتصاد الطاقة وبأسباب انهيار الإمبراطوريات وتراجع سعر البين،

شعبٌ مريحٌ ولا يناكف الحكومة. رأيتُ بنفسِي في حارات عاصمة
عربية طفح مجاري الصرف الصحي وأقرأ عن سوء صيانة المنشآت
وعن تدهور التعليم ومدارس آيلة للسقوط ومستشفيات فيها جردان
سعيدة، بينما الشعب يتحلَّق كلَّ ليلة في مقهى ويستهجن جرائم الخمير
الحمَر في كمبوديا. الحكومات سعيدة طبعاً لأنَّها ليست مسؤولة عن
جرائم الخمير الحمَر. هي مسؤولة عن الصرف الصحي لكنَّ الناس
منشغلة بما هو أهم.

الجلافة في التطور

الإنسان عندما لا يكون مرثياً يصبح كائنًا مخيفًا. الذي لا تراه قد يشتمك ويؤذيك. نفس الشخص المهذب الذي لا يتكلم بما لا يليق، وعندما تكونان في موضع واحد من السير يصرُّ على أن تمضي أنت قبله، هو ذاته يصير وحشاً عديم الأخلاق عندما لا تراه ولا يراك.

قد تقول إنَّ هذه الظاهرة لا أهمية لها. لكنَّها مهمة جدًّا في عالمنا هذا. عالم يلتقي فيه البشر ويتواصلون دون أن يرى أحدهم الآخر في وسائل الاتصال الجديدة من فيسبوك إلى واتساب مرورًا بفايبر وسكايب وصولاً إلى الرسائل النصِّية، تنعقد صداقاتٌ وعداواتٌ يميزها ميلٌ إلى جلافة الألفاظ وخشونتها.

في البداية كان التليفون. أذكر أوَّل مرَّة استخدمتُ التليفون في حياتي وكنتُ حينها في الخامسة. كان التليفون له هيبة وله مقرٌّ دائمٌ على رفٍّ مُغطًى بفرشة من الدانتيل وموضوعٌ بحيث لا تطاله أيادي الصغار. أيامها كان لكلِّ شيءٍ هيبة وفرشة: الراديو والتلفزيون مغطيان بفرشة مُطرزة بالورد وفي حافاتها شريطٌ من الدانتيل. استخدمته واقفاً على كرسي. سمعتُ صوتاً مألوفاً يحييني فشتمته. هكذا، بكلِّ وقاحة. كنتُ في الخامسة وأدركتُ للتو أنَّ الذي يحييني لا يراني فانطلق الشرُّ من

عقاله وشمته. كان قاموس شتامي محدودًا جدًا لكنني فعلتها لأنه لا يراني ولا أنا أراه. غريزة.

اليوم، نتعامل معظم يومنا مع من لا يرانا وليس حاضراً متجسداً أمامنا. نرى بشراً كل حينٍ وآخر رؤية طبيعية وبالعين المجردة وهم على مقربة، فتأدّب ونحتشم. لكنّ علاقاتنا في التخاطب تكاد تكون محصورة على من لا نرى.

أصدق الإحصائيات واستطلاعات الرأي هي تلك التي تُجرى عبر الإنترنت. هناك قانونٌ طبيعيٌّ يجعل الذي تستوقفه في الشارع وتسأله رأيه يتأدّب ويعبر عن مشاعر تدرج في إطار التيار العام المقبول. الإنسان الذي يراك وتراه مجامِلٌ ولطيفٌ. كانت العادة في استطلاعات الرأي أن يقف صاحب السؤال على قارعة الطريق ويستوقف المارة أو يجوب الشوارع ويطرق أبواب البيوت فتجيبه الناس بما هو لائق. اليوم هناك هوةٌ ظهرت وأخذت بالاتساع بين الاستطلاع عبر الإنترنت والاستطلاع التقليدي.

قبل شهوٍ كان هناك استطلاع رأيٍ أُجري عبر الإنترنت أظهر أنّ ثمانين في المائة من البريطانيين يتطيرون من رؤية الملتحي ذي الجلباب القصير ويتصوّرون أنّه يريد بهم شراً. لا يعبرون عن خوفهم من الملتحي لكنّه خوفٌ أو توترٌ قائم. والـ ٨٠ في المائة رقمٌ مخيفٌ لكنني أراه صحيحاً وأصدق في التعبير عن المكنون. يتبادل الناس التحيّات مع الملتحي ويتسمون لكنّ القلق قارٌّ في قلوبهم ويكتمونه. فالمكنون لا يُقال وجهاً لوجهٍ لكنّه يُقال عبر الإنترنت وانعدام الرؤية.

أعتقد أنَّ الكياسة موجودة منذ عصور ما قبل التاريخ ومنذ سكن الإنسان الكهوف على شكل مجموعاتٍ. لكن اللياقة في الحديث وفي التعبير راحتْ تَضمحل في القرن الحادي والعشرين بسبب التطور في وسائل الاتصال. كل هذا يعني أنَّ التطوُّر يقودنا إلى ما قبل عصر الكهوف. مرحى مرحى.

كلام له قعقعة

في مطلع هذا الشهر انشغل الناس بمناظرة برلمانية بريطانية حول التدخّل لضرب داعش في سوريا. وكما هو معروف الآن انتهت المداولات بغلبة أنصار التدخّل. سهرت ليلتها أسمع المتحاجين وسرى في ذهني خاطرٌ غريبٌ. كانت المناظرة حول الحرب أو اللا حرب. وخُيّل إليّ أنّ دُعاة الحرب ما كانوا حريصين على القصف بمقدار حرصهم على البلاغة.

الدعوة إلى الحرب دائماً أبلغ من الانتصار للسلام والتفاوض. مفردات القتال جميلة وأخاذة ومفردات السّلم والحوار خابية وفاترة. من تكلم داعياً إلى القتال كان أبلغ وأعظم تأثيراً، وعضو البرلمان يحب أن يكون بليغاً ومؤثراً. أعتقد أنّ هذا هو السبب الحقيقي لتبني الحرب. باختصارٍ الكل يريد أن يكون بليغاً والبلاغة لا تتأتّى إلّا بالدعوة إلى الشرّ.

كلُّ مقولات تشرتشل التي شاعت وذاعت كانت في اتجاه الدعوة إلى القتال والقصف. خطابه الذي يقول فيه: «سنقاتلهم على السواحل وسنقاتلهم في البحار»، إلخ، ما كان سيحفظه التاريخ لو أنّه كان «سنحاورهم على السواحل وسنحاورهم في البحار»، الدعوة إلى التحاور سخيّة في الخطابة.

تاريخنا مليءٌ بخطبٍ مزلزلة لا نزال نتأمل في بلاغتها لأنها شريرة. تصوّروا لو أنّ الحجاج الذي نذوب في بلاغته حين قال: «إني أرى الرؤوس قد أينعت وحنّ قطافها وإني لصاحبها»، لو أنّه عوضاً عن ذلك قال «إني أرى الرؤوس جميلة وحنّ وقت احتضانها والتربيت عليها» لِمَا نال خطابه إعجابَ أحدٍ ولِمَا صُنّف بليغاً مؤثراً. الشرُّ في كلامه هو مصدر إعجابنا الحقيقي وأساس تصورنا لجمال كلامه. لو قال إنه محبٌّ للرؤوس ويودُّ تقبيلَ الجباه لصار الحجاج تافهاً وقبحَ الله من يأبه له.

الصليل والقعقة كلمتان تملآن الفم وتثير الإعجاب، في حين أنّ كلماتٍ مثل الهمس والرفيف نراها تافهة. الإعجاب بدعوات القتل والشرّ يجعلنا نتوسّم البلاغة والجمال. أحاول أن أتذكّر خطبة ليس فيها شرٌّ أو ترويع أو على الأقلّ شتيمة للمستمع ولا أستطيع أن أتذكر. لم نحفظ كلاماً جميلاً وإنسانياً.

تحضرني الآن خطبة أخرى كلّها شرٌّ، هي خطبة زياد بن أبيه التي بلغ إعجابنا بها إلى حدٍّ أنّنا وضعنا لها اسماً، اسمها الخطبة البتراء، وهي كلامٌ مُوغل في السوء وحب الأذى والدعوة إليه. الخطبة تقوم على فكرة معاقبة البريء بذنبِ المجرم وعندما اعترض أحدُ المستمعين قال له زياد: «إنّا لا نبلغ ما نريد فيكم حتى نخوض إليكم الباطل خوفاً». هذه جملة شريرة تماماً يملئها وجدانٌ فاسدٌ، لكنّنا نحفظها ونتأمل في بلاغتها ونهيم بجمالها. ولو أنّ زياداً قال: «إنّا لكي نتواصل معكم مستعدون للحوار، وإنّ خُضنا البحار لنصل إليكم» لكانت الخطبة طي النسيان.

انتهت جلسة البرلمان البريطاني بقرار شنّ الهجمات. وامتلأت
صحف اليوم التالي بمقتطفاتٍ من خطابات دعاة شنّ الغارات وكلها
بليغة وفيها كلامٌ له قعقة وزمجرة. وهذا يدعو إلى التأمل والتدبّر وإثارة
سؤال: كم من الحروب سببها طلب البلاغة؟

خرافة الكهوف

الطوارئ حالة استثنائية، وكذلك الأزمات. وهي أحوالٌ إن استمرَّت دهرًا لن تكون أزماتٍ ولا طوارئ؛ لأنها لن تعودَ كذلك. يعني أنَّ أهم ما يميّز العيد هو أنَّه استثناءٌ. العيد الذي يبلغ طوله ستة أشهرٍ وما فوق لن يكون عيدًا، لن يتزاور فيه الناس ولن يتسموا لمقبله ولن يتهجّجوا فيه. جمال العيد في أنَّه ليس دائمًا، يأتي ويروح وننتظره.

أذكر أنني كنتُ يومًا في عاصمة عربية وأمرُّ يوميًا ببنية كبيرة مكتوب عليها «لجنة الطوارئ الدائمة». فهمتُ ما يعنون لكنَّ الالفة تظلُّ مُستهجّنة. هم يعنون اللجنة الدائمة للطوارئ لكنَّهم استسهلوا الإضافة بدل وضع حرف الجر.

ولفتَ نظري أيضًا في كلِّ المدن التي زُرتها في حياتي أنَّ هناك أزمة سكنٍ. الناس لا تجد بيوتًا تعيش فيها إلَّا بمشقة، وهذا وضعٌ قائمٌ منذ دهورٍ. رحتُ أحاول أن أخمّن منذ متى بدأت الأزمة لأثبت أنَّها ليست أزمة، فهي واقعٌ عمره عقودٌ وربما قرون.

أعتقد أنَّ أزمة السكن موجودة منذ أن قرّر الإنسان أن يعيش في مكانٍ ذي جدرانٍ وسقفٍ. وهي بهذا ليست أزمة وقد رُفعت عنها الاستثنائية. الواقع يقول ليست هناك بيوتٌ تكفي لإسكان البشر، ولم

يكن هناك ما يكفي أبداً وفي كلِّ العصور. قرَّر الإنسان أن يستقرَّ، وأن يكون له سكنٌ دائمٌ وعنده عنوانٌ في العصر الحجري القديم. ولم يكن يبني مسكنه بل اختار طريق البيوت الجاهزة. ولم يكن هناك سوى خيارٍ واحدٍ: الكهف. والكهف هذا تتملَّكه بوضع اليد. العملية أبسط كثيراً من عملية شراء عقار في أيامنا هذه التي كلُّ شيءٍ فيها مُعقَّد.

تبدأ عملية الحصول على كهفٍ جيِّدٍ وذو موقعٍ قريبٍ من مصدر ماءٍ وقريبٍ أيضاً من الحقول ومراعي الغزلان ليسهل على ربة الكهف التسوق، تبدأ العملية بالتجوال والمعاينة. وحين يروق لك كهفٌ معينٌ تدخله وتخليه من السكان بركل المقيمين فيه وشدهم من شعورهم وصفعهم، ولا بأس من استخدام هراوة غليظة أو فأسٍ حجريٍّ لإعداد الكهف للسكان الجُدُد. عملية سهلة ويمكن إجراؤها في غضون ساعتين على أبعد الحدود.

ومهما شَخَّص علماء الآثار حقبة عمرها آلاف السنين أظُلُّ غير مقتنعٍ بحكاية العيش في الكهوف، والسبب أنَّ الكهوف نادرة. انظر إلى مصر مثلاً. كهوفها كلُّها لا تكفي لإيواء سكان شارع البادية في مصر الجديدة، وكهوف تونس لا تكفي لسكنى أهالي نهج الإمام سحنون في تونس العاصمة. ثم إنَّ الإنسان في تلك العصور راح يطلب أرضاً منبسطة ليحاول الزراعة ومطاردة الغزلان، والكهوف تقع في مناطق جبلية نائية والمواصلات صعبة.

وإنسان عصر الكهوف كان يتنقل برشاقة ولا يأكل إلاَّ منتجاتٍ عضوية خالية من كلِّ المواد الحافظة وأصباغ الطعام والمسرطنات

والمبيدات. علاوة على كونها طازجة. كان إنساناً يحقق كلَّ شروط
الأكل الصحي وأسلوب الحياة اللذين نطلبهما اليوم. ومع ذلك كان
يموت في الثلاثين. هذا أيضا يجعلني أشكُّ في حكاية العصر الحجري
أصلاً.

لُوم الضحية

المعتدي قويٌّ والمُعتدى عليه ضعيفٌ. هذه قاعدة عامة لكنَّ معرفتها مهمة. لنعرف الانحطاط الذي وصلنا إليه ألاحظ تفشّي ظاهرة إلقاء اللوم على الضحية. في كلّ شيءٍ من التحرش بالبنات إلى سرقة الهواتف المحمولة إلى غزو البلدان واستباحة أراضيها.

في مصر هناك تيارٌ كبيرٌ وواضحٌ يُلقِي اللوم على أحمد عرابي لأنَّ الإنجليز هاجموا مصرَ واحتلُّوها لقمع ثورته. يقولون إنَّ عرابي هو الذي جاء بالمعتدين. يعني أنَّه قام بعملٍ جعل الإنجليز يحتلُّون مصر. إلقاء اللوم على الإنجليز أنفسهم أمرٌ مشوبٌّ بالمخاطر. كانوا الطرف الأقوى والمعتدي، وبهذا نخاف منهم ومن بطشهم ويصير عدوانهم حقاً طبيعياً وعملاً مبدئياً والعيب يأتي على من أعطاهم حُجَّة وذريعة لاقتحام مصر. وسمعتُ أيضاً من يُلقِي بتبعة الدمار الذي حلَّ بالعراق على رئيسه الراحل صدام حسين -مثل عرابي باشا- هو من جاء بالأمريكان. الذي يقصِّف ويدمِّر لا عتبَ عليه، والعيب في مَنْ تحدّاه أو لم ينصع لأوامر المعتدي. وبهذا يصير العدوان مقبولاً من حيث المبدأ، بل مُتوقَّعاً ولا خير في قوي لا يعتدي. القوي الذي لا يضرب طائشٌ ومنحرفٌ.

هذه ليست حالاتٍ استثنائية، هذه حالة ذهنيّة ونفسيّة. فكرة لوم الضحية مقبولة وتشمل كلّ شيءٍ. لا يمرُّ شهرٌ دون أن نسمع عن حالة اعتداءٍ جنسيٍّ أو اغتصابٍ ويروح أصحاب الرأي والإعلاميون وأبناء الشعب كلهم يلقون باللوم على المرأة ضحية العدوان. لن نعدم من يقول إنّها كانت ترتدي ملابس ضيقة أو قصيرة أو إنّها كانت تمشي بطريقة تستدعي الاعتداء وتطلبه.

أذكر أنّي كنتُ أزور دارَ نشرٍ في عاصمة عربية وكان كلّ الحضور من النخبة من رسامٍ إلى شاعرٍ إلى ناقدٍ. كانت لديّ حكايةٌ عن هاتفٍ المحمول وكيف أنّ نشالاً سرقه من جيبِي. أوّل رد فعلٍ منهم كان سؤالي «أين كنتَ تحمل الهاتف؟ في أي جيبٍ؟» أحسستُ فوراً أنّهم يريدون أن يتلمّسوا عذراً للسارق ويجعلوني مذنباً. قلتُ إنّهُ كان في جيب القميص، فقالوا مثل أطفالٍ يردّدون نشيداً، بصوتٍ واحدٍ ضحكوا وقالوا: «وهل هناك من يضع هاتفه في جيب القميص؟! طبعاً سيُسرق». ولكن ماذا عن الحرامي الذي دسَّ يده في جيب إنسانٍ آخر؟ السارق لا لوم عليه فهو يقوم بعملٍ طبيعيٍّ بل وأخلاقيٍّ، وصاحب الهاتف هو المُتعدّي لأنّه يضع المحمول في جيب قميصه.

لوم الضحية حالة جُبنٍ واستخذاء تتملّق القاتل والسارق والمتحرّش والمغتصب. عندما كنتُ صغيراً كنتُ أستهجن وضع المجني عليه في موقع ينوب فيه عن الجاني. كان ذلك في درس النحو عندما علّمونا أنّ جملة «قُتلت الفتاة» فيها الفتاة (القتيلة) نائب فاعلٍ لمجرد أنّ الفعل مبني للمجهول. أي أنّها تنوب عن القاتل الذي طعنها.

تحديد القتل على أنه نائب للقاتل كان يُغضبني وأجد فيه اعتداءً
على العدالة. لكنَّ لومَ الضحية يذهب إلى أبعد من ذلك، ويجعل
الضحية سواء كانت بنتاً ترتدي بنطلوناً ضيقاً أو رجلاً يحمل هاتفاً في
جيبه مسؤولاً مسؤولية كاملة عن الجريمة.

في وداع النظارات

لا أدري إن كنتم لاحظتم تراجع أعداد النظارات الطبية على وجوه الناس. في زمنٍ مضى ما كان المرء يصعد حافلة نقلٍ عامٍّ أو يدخل مقهى دون أن تطالعه العشرات من النظارات مستطلعة فضولية. قبل عقدٍ واحدٍ فقط كنتَ ترى النظارات على وجوه مقدّمي نشرات الأخبار في الفضائيات، وكانت هناك مدارس ومذاهب في شكل النظارات.

النظارات في طريقها إلى الاندثار ليس لأنَّ البشرية قد صَحَّتْ أبصارُها ولا لأنَّ العدسات اللاصقة زاد انتشارُها، ولكن لأنَّ الناس ما عادتُ تأبه كثيراً لدقة نظرها وحدّته، أو لم تعد تدقّق في ما تراه. ومن لا يستطيع تخيّل البشر دون عوينات عليه أن يتذكّر أنّ الرجال في عصورٍ خلت ما كانوا يصدّقون أنّ زمناً سيأتي لن يكون فيه مونوكل. والمونوكل هذا كان للرجال فقط ويتكوّن من عدسة واحدة ذات إطارٍ رفيعٍ وفيها سلسلة، وحين تدقيق النظر يضعها الرجل على إحدى عينيه ويضغط عليها بعضلات وجهه المحيطة بالعين ليثبتها في مكانها. من كان يصدّق في مطلع القرن العشرين أنّ المونوكل وساعة الجيب ذات السلسلة سيختفيان.

النظارة يتطلّب وضعها على العين توفر أجزاء أخرى من الوجه. أجزاء يُفترض أنّها غير ذات علاقة. هي تتطلّب وجود أذنين أولاً وأنفٍ ثانياً. الذي ما عنده أذنان لا يستطيع أن يلبس نظارة، هكذا ببساطة. هذه حقيقة اكتشفتها أمس فقط.

أكتب عن معرفة لأنني من الذين تخلّوا عن النظارة. حينما ارتديتها قبل عقدين كنت مبهوراً بدقة الأشياء ووضوحها. ثم بدأ حماسي يخبو بعد أن اكتشفت أنّ كلّ ما حققته من حملها هو أنني صرتُ أرى صابون المواعين في المطبخ بشكلٍ فائق الدقة. ولكن من يأبه لصابون المواعين؟ يعني أن تضع جهازاً على وجهك فتتوقع أنّك ستري مشهداً رائعاً يكافئ عناء وضع نظارة غالية: أشجاراً وودياناً وبرج إيفل والأهرام على الأقل. لكن شيئاً من هذا لم يقع، وظلّ صابون المواعين أو كوب الشاي هو غاية ما تراه.

أذكر أنني أول يوم لبستُ فيه النظارة قابلتُ أصدقاءً أشادوا بها وقالوا: الآن صرنا نرى عينيك واضحتين. كلامٌ خبيثٌ ومضحكٌ طبعاً. والنظارات تغيّر ملامح الوجه وتساعد على التخفي، ومن لا يصدّق فعلية أن يسأل سوبرمان أو نبيل فوزي. سوبرمان تراه الملايين طائرًا محاربًا الجريمة، لكنّه ما إن يضع نظارته حتى يصير نبيل فوزي الصحفي في جريدة «الكوكب اليومي».

هذا ما كان من أمر النظارات الطبيّة، أما الشمسيّة الداكنة فسوقها متعشّ وأعداد من يضعونها في ازديادٍ، وخصوصاً النساء. وصار ارتداؤها غير مرتبطٍ بظراوة وهج الشمس. يرتديها صباحاً ومساءً صيفاً

وشتاءً وتخفي وجوههن. البناتُ صرن مثل الجواسيس والمخبرين
السريين، شكلهنَّ شريراً لأنَّه يخفي العينين: منافذ النظر إلى الروح
والوجدان. الإنسان الذي لا ترى عينيه مخيفٌ وخصوصاً ذلك الذي
يغطي عينيه بعدساتٍ عاكسة مثل المرايا. شيوع النظَّارات الشمسية
يعني أنَّ صناع الإطارات سيظلُّون عندهم زبائن وإن تراجعت مبيعات
العويئات الطيِّبة.

عصر الإبداع

لم يُعدّ عندنا شاعرٌ بارزٌ. ليس هناك شاعرٌ نداول اسمَه وننظر إليه بشغفٍ ونتلقّف ديوانَه وننتظره. ليس لأننا محرمون من ظهور شاعرٍ مبدعٍ ولكن لأننا كلُّنا مبدعون، أو هكذا نظنُّ. المواهب الخلّاقة موجودة في كلّ العصور لكنّها تتطلّب جمهورًا محايدًا يسعد بأن يتلقّى. تتطلّب جمهورًا يسعد بأن يصمت ويكتفي بأن يستمع ويطرب.

الذين يحبُّون الشّعْر ويتذوقونه صاروا كلهم يكتبون الشعر. الكل يرى أنّه موهبةٌ مطمورة. المشكلة هي أنّه لم يُعدّ ينتظر مَنْ يكتشفه. يأخذ بزمام المبادرة وينشئ صفحة لإبداعاته على الإنترنت عبر مدونة أو صفحة فيسبوك ويصير شأنه شأن بدر شاكر السياب.

حين تكون في الشارع أو في ميدانٍ عامٍّ والناس تموج وتروح وتجيء، تأكد أنّك لو رميت بحجرٍ فلا بُدَّ أنّك ستجرح شاعرًا أو رسّامًا أو مغنيًا. الكلُّ مبدعٌ وخلّاقٌ.

هناك اليوم ملايين من المغنين يذيعون أغانيهم على اليوتيوب. كلّ من حصل أو استولى على عودٍ أو أوردٍ يسجّل لنفسه مقطوعة من

المواء ويضعها على يوتيوب ويدخل في روعه أنّه عبد الوهاب، وبهذا يصير ندًا للمطربين لا مستمعًا معجبًا.

يحمل يوتيوب الآلاف إلى الاستماع لشدو مغنية صغيرة يصيب المستمع بالكآبة. تصير الفتاة مطربة، ينبغي أن يكون المستمع إليها أمها أو خالتها لكي تتحمّلها. تنظر إلى الإحصاء المدوّن إلى جانب أغنياتها فتجد أنّ هناك ألف إنسانٍ وأكثر قد استمعوا إليها. وليس معقولاً أن تكون لها ألف خالة.

الإبداع والقدرة على التأليف ملازمان للإنسان. في كلّ أسرة هناك جدّة أو أمٌّ تجيد سرد القصص. معظم القصص من تأليفها أو فيها استطرادات من عندها تُضاف إلى هيكل موروث. ويبقى إبداعها مختصًا بإسعاد أحفادها وإرسالهم إلى مملكة النوم. وطبعًا هذه القاصّة الجميلة لا تكفي بحُسن الأداء السردي بل ترفقه بترانيم بسيطةٍ وعبثٍ هادئٍ بشعرِ الطفل المستلقي في حضنها، إلى هذا تجدها لا تقارن نفسها بيوسف إدريس ولا تزعم أنّها أقدر من نجيب محفوظ. هذا إبداعٌ لا يغادر حُجر النوم وليس مشاعًا ولا ينبغي له أن يكون كذلك.

في القاهرة، دعاني صديقٌ مصريٌّ إلى مقاسمته ساندويتشات غدائه. منه عرفتُ أنّ صانعة الكفتة التي أكلناها هي عمته الحاجة زينب. الحاجة زينب صانعة كفتة ممتازة، وستظل كذلك. هي نفسها لا تريد أن تكون نجمة تلفزيونية في برنامج طبخ، ولا تصوّر نفسها في فيديو ليُذاع على موجات اليوتيوب.

الحاجة زينب مبدعةً لمن حولها من المعارف والأصدقاء، وقد يصادف أنّ غريباً من بلدٍ بعيدٍ، مثلي، سيدوق كفتتها ويحمل لها التقدير والعرفان ويحدث الناس بإبداع صنعيتها، كما أنا أفعل الآن. لها صيتٌ لكنه ليس في المجال العام. يحب كفتتها، وربما باميتها أيضاً، ناسٌ مهمُّون، هم الأهل والأصدقاء، وهي سعيدة بذلك.

الجدّة الراوية لا ينبغي أن تكون لها مدوّنّة. والشاعر يضع شعراً عذباً يكتبه في ورقة يدسّها في يد حبيبته. وبهذا نتكتم على الإبداع ونحفظ له خصوصيته.

انس الإرهاب وركّز على الأهم

أذكر مرّة أنّ مراسلاً لقناة إخبارية إنجليزية قال شيئاً ذكياً. كانت المناسبة حادثاً إرهابياً مروّعاً في مصر التسعينيات. وبسبب الاعتداء أحجم الكثيرون عن السياحة في مصر، كما هو حاصل اليوم. المراسل الذكي خفّف من هول الإرهاب مخاطباً البريطانيين قائلاً في ختام تقريره: انسوا الإرهاب، فالخطر الدائم في مصر يكمن في عبور الشارع. وهذا كلامٌ لا يصدّق على مصر وحدها بل على كلّ الدول العربية.

كلامٌ ذكيٌّ تدعمه الإحصائيات. عبور الشارع في بلادنا مخيفٌ حقاً ومغامرة كبرى. في القاهرة يبلغ بي الذعر من العبور حدّ أنني أستأجر التاكسي من الجهة اليمنى للشارع، مثلاً، ليأخذني ويستدير بي في أقرب دوارٍ ويضعني في الجهة اليسرى. أشتري حياتي بخمسة جنيهات أو أقل.

قيد الدرس لديّ الآن مشروعٌ يقضي بزيارة الجانب الأيمن من شوارع القاهرة. وبعد ذاك أقوم بزيارة خاصّة لأرى الجانب الأيسر. وعبور الشوارع ليس بالضرورة يفضي إلى الدهس. الخوفُ والرعبُ والتربُّص والضغط النفسي عوامل تؤدي إلى ارتفاع الضغط وأمراض القلب وقرحة المعدة وحتى تليّف الكبد.

في دول الخليج التي تنفق الملايين على الطرق والمولات التجارية وضروب الكوستا والستار باك وإشارات المرور وتخطيط الطرق يظل عبور الشارع مخاطرة مخيفة. حاول أن تعبر شارعاً في دبي أو الدوحة خارج الاختناق المروري. والناس هناك داخل سياراتهم ولا يعبر الشارع سوى العامل البلوشي أو الهندي، وهؤلاء طوّروا مهارات مقتبسة من الققط. يجب أن يراهم المرء كي يصدّق ما بلغوه من رشاقة وحرفيّة عالية أثناء العبور.

المسألة هي ليست أنّ الناس في بلادنا متوحشون وقليلو الذوق والإحساس، بالعكس نحن أكثر شعوب الأرض أريحية ولكن خارج السيارة. السائق الذي معك والمستعد لدهس طفل في الخامسة لكي يمرّ هو أولاً، نفسه السائق حين يترجّل لا يمكن أن يمرّ من باب قبلك. يُقسّم بالطلاق أنّك لا بدّ أن تعبر قبله. وفي العادة تحصل مشادة يُقسّم فيها كلّ طرف أنّ الآخر يجب أن يمرّ أولاً. وقد استنبطت شعوبنا قانوناً عشوائياً لبيتّ في الأمر ويحسم النزاعات يقول «على اليمين»، أي أنّ الذي يقع على يمين المتكلّم يمرّ أولاً. ورغم هذا لا تنتهي النزاعات، وترتفع معها معدلات الطلاق وخراب البيوت ودعاوى النفقة وحضانة الأطفال.

يمين الطلاق نفسه يستحق وقفة، يعني تكون المرأة في بيتها منشغلة بتدبير شؤون البيت، ويمكن أن يأتيها الطلاق في أي لحظة؛ لأنّ أحدهم أصرّ على ألا يمرّ أولاً رغم يمين الطلاق الصادرة عن زوجها.

كنتُ في تاكسي في القاهرة والسائق لا يتوقَّف عن الكلام وعن
شتيمة السائقين الآخرين ورميهم بالتخلُّف وعدم احترام النظام. وسط
هذا الحديث اعترضتنا إشارة مرورٍ حمراء فلم يلقِ لها بالاً واستمرَّ في
السير. قلتُ له مقرِّعاً «صدعتني بكلام القوانين والالتزام وأنت تخالف
الإشارة الحمراء». فردَّ دون تردُّدٍ: «وهل أنا من الدنمارك مثلاً. أنا
متخلِّف شأني شأن الذين كنتُ أشتهمهم».

الفصول

نجيب محفوظ عنده جملة طيبة تأتي في رواية الحرافيش. الجملة تقول: «لو أن شيئاً يدوم فلماذا تتغير الفصول». العبارة لم تستوقف أحداً لكنّها جميلة ولصقت في ذهني منذ قرأتها وأذكرها في الشتاء، موسم التبرّم بالفصل الكريه.

أتذكرها لأواسي نفسي في شتاء أوروبا الكريه القاسي، بالذات شهر يناير الذي تخلصنا منه لأنّ الفصول تتغير كما ينبئنا نجيب محفوظ. يناير هذا شيءٌ مزعجٌ؛ فيه ليس لديك ما تتطلّع إليه سوى فبراير، وهذا بحد ذاته ترقّب مؤلمٌ. في فبراير تهون الأمور لأنّ القادم هو شهر مارس مفتاح الربيع والدفء والبراعم.

في يناير تنشط الإعلانات التي تغري الجمهور بحجز إجازة الصيف. وتروح الإعلانات تصوّر البلاج وصيبة يتضحكون ويلعبون بكراتٍ كبيرة وملوّنة ألواناً فاقعة ومبهجة عند البحر والشاطئ الرملي. هذا استدراجٌ ذكيٌّ. في الشتاء والمشاهد مقررور والدنيا رمادية سيسيل لعابُه متذكراً البلاج والأناس وحليب جوز الهند فيهرع إلى التلفون ويحجز إجازة. التذكير بالدفء في فصل البرد يثير فينا حبّ الدفء والشغف به.

كُلُّ هذا مفهومٌ. الذي لا أفهمه هو أَنَّ دعاة حماية البيئة لا يجدون غير شهر يناير ليطلقوا حملاتهم لتذكيرنا بمخاطر الاحتباس الحراري وينذروننا من مغبة غاز ثاني أكسيد الكربون وأثره على الجو. يعني أَنَّهُم يذكروننا بكابوس ارتفاع درجات الحرارة وقت نكون تَوَاقين إلى ارتفاع درجات الحرارة ولا نطلب سواها. اختيار موسم البرد لتخويفنا من الدفء توقيتٌ سيئٌ وفي منتهى الغباء.

الحماقة لا تتوقَّف هنا. يختارون أمثلة لا تثير فينا جزءًا حقيقيًا من الاحتباس الحراري. موسم البرد هو موسم طلب النار وإشعال المواقد والمدافئ. لكنَّهُم يقولون لنا لا توقدوا المدافئ فهذا خطرٌ على الكوكب ويستشهدون بأمثلة على الخطر الداهم الذي سيتحقَّق بإشعال الموقد بأن يقولوا إِنَّ كميات الأسماك في خليج هدسون في كندا ستراجع. ويكون السمك المتوفَّر للدب القطبي قليلًا جدًا.

تصوِّروا، يريدون أن ترفض بردًا مرتجعًا لأنَّ في دفئك إضرارًا بالدب القطبي الذي سيظل جوعان بسببك. يتصوِّرون أَنَّك ستضحى بدفئك حتى يجد الدب القطبي ما يشبعه.

أرجو ألاَّ يُفهم الكلام أعلاه على أَنَّهُ ينطوي على حقٍّ على الدب القطبي. أنا شخصيًا أحبه وأتمنى له كل التوفيق والنجاح وأرجو له التقدُّم والازدهار. يعيش ويقضي طافيًا على ألواحٍ جليدية ويأكل سمكًا. الدب القطبي لا ينتج شيئًا في الفن ولا يثري حياتنا بقصيدة أو أغنية أو لوحة أو حتى مناظرة بسيطة. لا ينتج سوى المزيد من الدبة. يعرف فقط كيف يأكل ويتكاثر. ثم إِنَّ الدب، مثل الفقمة، لا يجد كفايته من

السمك أبدًا. لم أرَ دُبًّا قطبيًّا في حياتي بالعين المجردة، لكنني رأيتُ أكثر من فقمّة ولم أشهد فقمّة تتعفّف وتقول شكرًا أنا شبعانة حين يقدمون لها سمكًا في حديقة الحيوان. يعني أنّها حيواناتٌ لا تكتفي مهما كان. ولا أريد أن أبرد لكي تجد «كفايتها» المزعومة في خليج هدسن. معذرة، سأقوم لأشعل المدفأة.

عروش وتيجان

في فتراتٍ متباعدة لا تتجاوز المرتين في العام تخرج ملكة بريطانيا من قصر باكنجهام في موكبٍ رسميٍّ. وتعالوا تفرجوا على الجمهور الكريم من العامة والسياح يتجمعون قرب القصر. منظر العربات والجياد المطهمة والحرس الملكي بملابس مذهبة يختلط بأصوات الأبواق والطبول ليصنع مهرجاناً مصنوعاً من مادة الأحلام.

الجمهور المبهور بالملكية وشعائرها أغلبه من العوام الذين لا يكتفون بالفرجة بل ويرفعون أطفالهم لينبهروا ويتشربوا بالاحترام والحب لزعامات الارستقراطية الأوروبية التي تمثلها العائلة المالكة البريطانية.

السياح المزدحمون على أمل اقتناص نظرة سريعة على صاحبة الجلالة قادمون من بلدانٍ ثارت على التاج لتكون جمهورياتٍ تنعم بقيم العدل والمساواة مثل الولايات المتحدة وفرنسا، لكنهم يأتون إلى لندن بالآلاف لينظروا إلى الملوك.

سفير بريطانيا في الولايات المتحدة يروي أنَّ سيناتورا أمريكياً كان واقفاً إلى جانبه في استقبال الملكة قال له مستفسراً عن الأصول والواجب إزاء الملكة: «هل ننحني للملكة عندما تظهر؟»، فقال له

السفير اللئيم: «يا عزيزي لقد خضتُ حرباً دامية راح ضحيتها الآلاف لكي لا تنحنوا للتاج البريطاني». السياسي الأمريكي يحتاج إلى من يذكره بثورته للاستقلال عن بريطانيا، هوام الحقيقى والفطرى هو الانحناء للتاج.

فى برىطانيا نفسها تجد الفقراء والكادحين الذين يشكّلون مادة متوقّعة للانقضاء على الأرستقراطية، تجدهم ينفقون المال على شراء مجلات لتقصّي أخبار الأمير ويليام وكيث ميدلتون والصغيرين جورج وشارلوت، هذا فضلاً عن شراء أكواب خزف، مثلاً، تحمل صورهم.

الفقراء يعرفون أخبار كلّ دوق ولورد ويزهون بمعرفتها ويتباهون. أعرف ناساً فى الوطن العربى يتابعون أخبار ملوك برىطانيا وأمرائها بشغفٍ عجيبٍ ويتمنّون أن عندهم أرستقراطية وعربات ملكية وجياداً مطهّمة ومزوقة وأصوات أبواق ورفرفة أعلامٍ زاهية ترافق ظهورهم.

حب الأرستقراطية يدفع الشعوب إلى اختراعها. هل تذكرون قصيدة نزار قباني التى غنّتها نجاة: (الحب فى الأرض بعض من تخيّلنا)؟ لو لم نجده عليها لاخترعناه. فى الولايات المتحدة هناك أرستقراطية مشتقة من أسرٍ سياسية مثل عائلة كنيدي وأخرى مستلة من هوليوود مثل عائلة هيوستن. يعنى يشيرون إلى أنجليكا هيوستن على أنّها حفيدة والتر هيوستن وابنة جون هيوستن.

هناك حاجة إلى الأرستقراطية أعرف سببها. نحن مبرمجون منذ الطفولة لنكون مسحورين بالملوك والأميرات، هذا الحشد من الطبقة

العليا لا يشكّل مادة الأحلام وحسب بل يشكّل مادة ما هو أحلى من الأحلام، إنّه مادة النُّعاس.

النُّعاس خيرٌ من النوم. الأم أو الجدة ينساب صوتُها مصحوبًا بتربيت على الرأس، وتبدأ حكاياتٌ سمعناها مرّات ومرّات ولا نرتوي، كلها تقول: «يُحكى أنّ ملكًا» أو «يُحكى أنّ أميرة». لم أسمع في حياتي بداية تقول «يُحكى أنّ رئيسًا للوزراء» أو «كان يا ما كان رئيس جمهورية». هذا سرٌّ تعلّقنا بالأرستقراط.

القراءة للجميع هههههههههههه

الإشاعة المُغرِضة المنتشرة هذه الأيام تقول إِنَّ الجيلَ الجديد لا يقرأ ولا يفتح كتابًا. هذا خلطٌ مُغرِضٌ. القراءة شيءٌ وفتح الكتاب شيءٌ آخر. الناس تقرأ كثيرًا هذه الأيام دون أن تفتح كتابًا. تقرأ على شاشة الكمبيوتر والهواتف الذكية.

بلغ الأمرُ أنَّ ضيفًا يُجالِسُك على مائدة الطعام يضع هاتفه الذكي على الطاولة أوَّل ما يجلس، دون خجلٍ. يتشاغل عن المحادثة بالتطعُّع إلى شاشة الهاتف، ولن يعدم شيئًا يقرأه بين حسوات الشوربة وملعق الأرز. بل قد تصل إليه صورٌ وفيديوهات وهو يلوك اللحم. عنده بريءٌ كاملٌ يقرأه وهو في حضرة مضيفه على نفس الطاولة والطعام مفروشٌ عليها.

التنازل الوحيد الذي يقدّمه صاحب الهاتف الذكي وهو في مجلس الضيف، هو أن يطفئ الرنين ويحوّله إلى أزيزٍ مكتوم، ضربٌ من الذبذبات الكريهة يرقص لها هاتفه على الطاولة، لكنّ المطالعة لا تتوقّف. هكذا هو الحال في المقهى وفي المواصلات العامة ولدى لقاء العشّاق.

يعني يقرؤون عبارة مهمة ومطلوبة مثل «أنا في التواليت ههههههههههههه»، أو خبرًا لا بُدَّ أن تسمعه أولًا بأوّل يقول «أنا في الدكان وما فيه كرتونة عصير برتقال ههههههههههههه». وأحيانًا تصل الهاءات المتصلة ثلاثة أسطر. ومن لا تعجبه الهاءات هناك دائمًا هذه الكلمة المُستحدثة خصيصًا لمرافقة هذا النوع من الهراء وهي (لول).

لا يعينني طبعاً أن يقرأ الناس رسالة ليث أو روان بعُجالة أم بتأملٍ
فهي لا تستحق القراءة أصلاً. الذي يعينني أنَّ اللهوجة التي تُملئها المادة

نموت ليحيا الوطن

العنوان أعلاه كاذبٌ. لا يوجد شيءٌ اسمه الوطن إذا متنا. الوطن ليس موجودًا بذاته بل هو موجودٌ طالما هناك من يعتبره وطنًا. مثل المرأة الجميلة، جمالها مرتبطٌ بوجود من ينظر إليها. وبهذا يفقد جمالها استقلاله، فمن دون مشاهدين هي ليست جميلة.

كذلك هو الوطن، من دون مواطنين لا يعود وطنًا. ومن هنا سُخف الشعار القائل «نموت ليحيا الوطن»؛ فعندما نموت يموت الوطن معنا، وهذا يعني أنَّ علينا أن نعيش ليحيا الوطن.

الكذب لا ينتهي عند موت المواطن ليحيا الوطن. في مصر، مثلاً، يكثر المواطنون من ترديد عبارة تقول «أنا عاشق ترابك يا مصر» ويكتبونها في الفيسبوك ووسائل النشر الأخرى. أنا أزور مصر كثيرًا وأعرفها جيّدًا. ولم أرَ في حياتي من يعشق ترابها. بل على العكس كلُّ من أعرفه هناك يكره تراب الوطن كره العمى ويستحم بضرَاوة للتخلُّص من كل ذرة من تراب الوطن.

الاستحمام بضرَاوة بمعنى الإسراف في الفك واليدعك بمختلف أنواع الصابون. حين تهبُّ عاصفةٌ ترابيةٌ وطنية ستسمع ما لذَّ وطاب

من ضروب الشتائم الموجهة بغلٍّ وحقْدٍ إلى تراب الوطن. والأمر لا يختلف في بلداننا الجافة التي يهيج فيها ترابُ الوطن، من المغرب حتى الخليج.

الوطن بقعة أرضٍ اختارها الجدود حين كانوا يجوسون في بقاع الأرض بحثاً عن مكانٍ هادئٍ يعلنونه وطناً بعيداً عن المتطفلين من أقوامٍ أخرى. الوطن يأخذ تعريفه الجغرافي بعد بحثٍ وارتحالٍ، لا يفرق كثيراً عن البحث عن بقعة غير مشغولة على البلاج في الإجازة. ولمن لا يروح للبلاج هي تشبه البحث عن مكانٍ قصيٍّ هادئٍ في البارك عندما تكون في فسحة ويكون معك شيءٌ تفرشه على العشب وبضع شطائر ومشروبات.

تنتهي رحلة البحث عن البقعة الهادئة على البلاج فتفرش منشفة عليها لتعلن أنها محجوزة. لكنَّ في حالة الوطن سيكون مطلوباً منك أن تموت من أجل البقعة التي وضعتَ فيها منشفتك. ترويه بدمك ودم أولادك وذوي القربى. حين يصير المكان وطناً يصير له حياضٌ.

لا أعرف معنى الحياض تحديداً، فهي كلمة أعرفها بصيغة جمع التكسير وما أدري مفردها. لكنني أعرف أنَّ الحياض هي شيءٌ تموت دونه وتدافع عنه. الحياض لا تُزار ولا تُؤكل ولا شيء سوى أن يدافع عنها ويموت الناس دونها. زرتُ بلداناً عدة ولم أر الحياض هذه.

في ذات سفرة من عاصمة خليجية إلى أوروبا كانت جليستي في صالة الانتظار سيدة سويدية ودودة وسعيدة. كانت مبتهجة لأنَّها جاءت إلى الخليج لتزور ابنها وتشبع شمساً، وقد فعلت. وحكت لي أنَّها في

مدينتها الصغيرة شمال السويد لا يرون الشمس ويعيشون على صيد السمك ويسعدون بالرضا لأنّ الثلوج تهطل كلّ يوم تقريباً. المهم أنّهم يعيشون في ظلامٍ مستمرّ دون شمسٍ. سألتها سؤالاً ساذجاً ومطلوباً وهو «لماذا تعيشون هناك؟ أعني ما الذي يحملكم على العيش دون شمسٍ؟» فقالت ببساطة «لأنّه وطننا».

عودة الحذاء إلى الواجهة

الواجهة في العنوان أعلاه هي ليست واجهة محل أحذية أو «الفترينة» التي يمكن أن يُؤخذ منها حذاءً لقياسه ثم إعادته إلى الواجهة إذا لم يعجب الزبون. المقصود بالواجهة هنا واجهة الأحداث التي تُسمَّى دائرة الضوء أيضًا. ولكن قبل أن نلج في الموضوع لا بُدَّ أن أتحدّث عن ظاهرة مريبة ذات علاقة بالحدث.

دائمًا تقع أمورٌ تجعلني أتعاطف مع الذين أكرههم. وهذه ظاهرة لا أعرف سببها ويبدو أنّها من الظواهر التي ليس مقصودًا أن نفهمها. وصدقوني هناك ظواهر كهذه، أعني أمورًا ليس مقسومًا لنا أن نعرف سببها. وأتحدّى أن يستطيع أحدٌ تقديم إجابة شافية تفسر هذه الظواهر. مثلاً، حين يحقنون المحكوم بالإعدام في أمريكا بالحقنة القاتلة، لماذا يستخدمون إبرة معقمة؟ أنت تحقن الإنسان بكوكيتيلٍ من ثلاثة سمومٍ رهيبة أقلها السيانيد ليموت فوراً، لماذا تخشى عليه من احتمال الالتهاب بإبرة ملوثة؟ مثلاً آخر للظواهر المبهمة: لماذا لا يخبرونك بوجهة القطار إلا بعد إغلاق الأبواب وبدء الحركة؟ تجلس في القطار ربع ساعة وهو صامتٌ وبعد إغلاق الأبواب والانطلاق حيث لا مفرّ ولا خيار يأتي صوت المذياع الداخلي ليقول هذا القطار متجه إلى حلب أو البصرة أو سوسة.

قبل أيامٍ عادت ظاهرة التعاطف مع مَنْ لا أطيق لتشمل شخصيتين، الأولى دونالد ترامب في حكاية لستُ بصددها هنا. الثانية في البرلمان المصري إذ ضرب نائبُ اسمه كمال أحمد بحذائه نائباً آخر هو توفيق عكاشة. الرجل الذي تعرّض لضرب الحذاء والطرْد من البرلمان إنساناً لا أحبه ولا أطيقه. لكنني وفق الظاهرة الغريبة التي شرحتها صرْتُ أتعاطف معه.

وبهذا عاد الحذاء سلاحاً ماضياً يحتل الصدارة ويشير الشجون والذكريات. كلما يُذكر الحذاء أتذكر ثلاث شخصياتٍ ارتبطت بالأحذية: أميلدا ماركوس ومنتظر الزيدي وسندريلا.

أميلدا ماركوس ترتبط وجدانياً وروحياً بالأحذية وتعشقها وعندها منها الكثير. لا أنسى غضبها حين أُشيع أنَّ لديها ثلاثة آلاف زوج أحذية فغضبت من هذه المبالغة ومن هذا الافتراء المؤذي وقالت على رؤوس الإشهاد «يقولون عندي ثلاثة آلاف زوج أحذية، اسمعوا الكذب والافتراء، ليس عندي سوى ألف وثلاثمائة».

منتظر الزيدي أحدث الحدث ورشق بحذائه كلا من الرئيس الأميركي جورج بوش ورئيس الوزراء العراقي السابق نوري المالكي. طارت الحكاية وشاعت وتعرّف الغربيون للمرة الأولى في حياتهم مرتبة الحذاء كسلاحٍ يهين من يتلقّى ضربته. أذكر أنَّهم في البداية كانوا يعاملونه ككذيفة موجهة وكانوا لا يعرفون الفرق بين الرمي بالحذاء والرشق بساعة الرسغ. لا يعرفون أنَّ ضربة الحذاء تنطوي على أبلغ إهانة ممكنة وأنها من الجرائم بحق الشرف والسمعة التي لها دية.

حذاء سندريلا هو الدليل الذي اهتدى به الأمير المُحِبُّ إلى حبيبته.
بسبب الحذاء، أو فردة منه وهو الأصح، جمع قلبين عاشقين فرّق بينهما
الزمان الغادر بدقات ساعة منتصف الليل. هنا الحذاء يضطلع بدورٍ
جميلٍ وكلُّه خيرٌ. حذاءٌ لا يرتبط بشرٍّ أو إهانة.

إشهار بعد إشهار

(يجب التنويه بأنَّ العنوان أعلاه هو ليس ما ينطق به الذين فقدوا أسنانهم الأمامية حين يغنون أغنية فيروز الشهيرة التي تقول سهار بعد سهار).

ما أجمل أن يكتُم الإنسان معرفته. ليس كتمانًا تحرزياً أو لغاية بل مجرد الكتمان المتواضع. قضيتُ سنواتٍ أسافر بالقطار إلى لندن من مدينتي في الصباح وأعود إليها في المساء بالقطار أيضاً. وصار لي رفيقُ رحلة، نزجي الوقت في الحديث عن هذا وذاك. تحدَّثنا في كلِّ شيء حتى الدودة التي تضرُّ بشجرة التفاح في حديقتنا.

بعد ثلاث سنواتٍ من الأحاديث عرفتُ بالصدفة من كلامه أنَّه أستاذٌ في جامعة لندن مختصُّ بعصر النهضة وآدابه وفنونه. لم يحاول يوماً، وعلى مدار سنين، أن يدير دفة الحديث إلى عصر النهضة. ما لنا وعصر النهضة وهناك دودة تصيب شجرة التفاح؟ ما لنا ويبيرو ديلا فرانثيسكا وقد انخفض سعر لتر الحليب وزاد ثمن الخبز في السوبر ماركت؟

لكن هناك دائماً من يوجِّه الحديث لإظهار معارفه حتى لو لم تكن هناك مناسبة. من هؤلاء سبَّكُ جاء إلى بيتنا ليعطينا تخميناً دقيقاً عن كلفة وضع سخانٍ جديدٍ في المطبخ. سألني قبل أن يبدأ حساباته إن كنتُ أعرف المسافة بين موقع السخان الذي أريده وحوض غسيل

الأطباق فقلتُ لا أدري. قال يجب أن نعرف وبدقة. ثم راح وأحضر شريطَ قياسٍ وقاس المسافة، وأعلن بظفرٍ أنها مترٌ وستون سنتيمترًا. ثم عاد إلى السؤال قائلاً: «أتعرف ماذا سيحصل لو أن المسافة كانت أقلَّ من مترٍ؟» قلتُ لا أدري، والمسافة أكثر من مترٍ على كلِّ حالٍ. فعاد إلى القول «إنَّ المسافة لو كانت أقلَّ من مترٍ لِمَا أمكنك أن تختار هذا الموضوع، وعليك اختيار موضع آخر للسخان». فعدتُ إلى التأكيد على أنَّ المسافة تزيد على المتر ولا حاجة بنا إلى معرفة ماذا سيحصل.

لم يَأبه لذلك وأصرَّ على أن يخبرني ماذا سيقع لو أنَّ المسافة نقصت عن المتر، وكيف أنَّ إجراءات السلامة تمنع منعًا باتًّا وضع السخان في المكان المُقترح، وذكر رقم الإجراء وتسلسله، وفي أي سنة صدر ومن أي جهة. كلُّ هذا من أجل أن يشهر تلك المعلومة التي لا نحتاجها.

تصوّر لو أنَّك صادفتَ رجلًا قرأ دراسة عن ديموجرافيا الدببة السمراء في جبال الألب. وتصوّر أيضًا أنَّ الحديث كان يدور عن موتسارت. صاحب الإشهار سيسألك أليس موتسارت نمساويًا؟ أليست في بلاده غاباتٌ تنتمي إلى مناطق الألب؟ هل تعرف أنَّ غابات الألب كادت أن تفرغ من الدببة السمراء مع نهاية القرن العشرين. يروح يحدثك عن الجهود الرامية إلى إعادة توطين ذلك الحيوان وعن تعداد ما بقي منه في سلوفينيا مثلاً.

الراحل جبرا إبراهيم جبرا كان من أعظم المثقفين وأوسعهم معرفة واطلاعاً. لكنّه كان خصمًا شديدًا لإشهار المعارف، وإذا قلت له إنَّ نيوتن هو أعظم رسامٍ من القرون الوسطى لقال: «حقًا؟ لم أكن أعرف ذلك».

بلاش عتاب

الإنسان لا ينهض في الصباح وقد أَلَفَ كلمة ويمضي بقية يومه بحثاً عن شيءٍ يناسب الكلمة. يعني لا يقول قطار، وهي كلمة أَلَفَها بنفسه، ثم يمضي ليتفرج على الأشياء ويجد شيئاً فيقول: «هذا قطارٌ». الأشياء موجودة والكلمات تُطْلَق عليها وليس العكس.

هذا الكلام قد يبدو مسلّمة أو بدهية، لكنّه ليس كذلك. هناك من يعتقد أنّ الناس عندها كلماتٌ أولاً ثم تجد شيئاً لتُطْلَق عليه الكلمة. يعنون أنّ الإنسان كان يقول «خبز» قبل أن يصنع الخبز، وأنّ هناك اليوم كلماتٍ تنتظر أن تكون لها دلالة. الفكرة مُضحكة ولا تصدق لكنّها موجودة.

قبل سنواتٍ شاهدتُ مقابلة تلفزيونية في إحدى القنوات الفضائية أدارتها مذيعة عربية مع رجلٍ من بلدها مختصّ في المسرح الإنجليزي، درسه وعمل فيه. دار الحديث عن نوعٍ من المسرحيات الهزلية يسمونها في ذاك البلد العربي فارس (بتسكين الراء). والفارس هزلٌ مضحكٌ جداً يقوم على افتعال مواقف غير ممكنة وجامحة جداً بهدف الإضحاك والتهريج.

قالت له: «هل عند الإنجليز فارس كما عندنا؟»، فأجاب الرجل «الفارس وتهجيتها بالإنجليزية Farce هي كلمة إنجليزية أخذناها عنهم». فقالت المذيعة بكبرياء: «أنا أعرف أنها كلمة إنجليزية، ولكن هل يوجد عندهم فارس؟».

المذيعة الذكية تصوّر أنّ الإنجليز وضعوا الكلمة منذ قرون وظلّوا يبحثون لها عن معنى إلى أن جاء العرب في تلك العاصمة ليضعوا شيئاً يليق بالكلمة.

جرّب الإنجليز أن يقولوها بمعنى السبق وعصير البرتقال والشهامة ولم تنفع، حاولوا إطلاقها على المتحف أو الكاميرا أو يوم الأربعاء دون نجاح يُذكر. ثم جاء العرب وقد تسامعوا بالكلمة، فهبّوا لنجدتهم وأوجدوا مسرحية هزلية وأطلقوا عليها الكلمة التي حار أصحابها فيها. هذا بالضبط ما تصوّرت مديعتنا، والرجاء عدم الضحك.

القصد من كلّ ما سبق هو أنّ الشيء موجود قبل اسمه. يُقام الشيء ثم يوضع له اسم. ولهذا تعترضنا كلمات في لغات أخرى لا نستطيع ترجمتها إلى لغتنا لأنّها تدلّ على شيء لا نعرفه في ثقافتنا وليس عندنا كلمة له. من هذا أذكر كلمة «Privacy» التي ترجمناها إلى «خصوصية». وهي ترجمة قاصرة تماماً. لا نجد كلمة عربية مقابلة لأنّنا ما عندنا المفهوم. ليس لدينا بريفاسي. نشأنا في بيئة فيها الكلّ يعرف ماذا سيتغدّى الآخرون. بيت أم نغم يأكلون فاصوليا يابسة وبيت أم خليل سيأكلون بامية وهكذا. نعرف دقائق حياة الجيران والأصدقاء ورواتبهم وكم يدفعون شهرياً للمسكن والتدفئة وكل شيء.

ومن هذا أيضًا ما لمستَه عند محاولة ترجمة كلمة «عتاب» إلى الإنجليزية. نحن نعاتب وعبد الحليم حافظ تقوم أغنياته على العتاب. ونحن نعاتب بالتليفون وبالإيميل والرسائل النصيّة والتويتر. صديقي صلاح نيازي يقول إنّ في مدينتهم في جنوب العراق من يخرج لابسًا أحلى ملابسه ويتعطرّ ويقول لزوجته مغادرًا البيت: «رايح أعاتب».

نصيحة لمن تستعصي عليه ترجمة كلمة معيّنة: فكّر في احتمال أن يكون المفهوم نفسه غير موجودٍ في اللغة الأخرى.

عدو عدوي صديقي

الصداقات تجمع الناس المتفقيين على حبِّ شيءٍ والإعجاب به. النوادي والتجمُّعات البشرية الأخرى تقوم على أساس الاتفاق على مطلبٍ واحدٍ وذائقةٍ واحدةٍ، ولا تقوم على أساس كراهية أشياءٍ معيَّنة. مقولة «عدو عدوي صديقي» بائسة ولا تصمد لحظة واحدة في مناظرة عادية ليست بالضرورة في منتهى الذكاء والفطنة.

الكراهية ليست أساساً لصداقة. أنا وفرانسوا هولاند نكره داعش لكنَّك لن تراني أبداً أجالسه في مقهى أو في مطعم. ولن أدخن أمامه لأنني لا أريده حتى أن يستنشِق الدخانَ المنبعث مني. أنا أختار بدقة من يستنشِق دخاني. وكنتُ أعمل في صحيفة وأنزل إلى غرفة التدخين مصطحباً زميلاً صديقاً لا يدخن لأنني لا أريد أن يكون المدخن السلبي كلٌّ من هبٍّ ودبٍّ من الرعاع. هذا الصديق الذي لا يدخن ويستنشِق دخان سيجارتي يتلقَّى الدخانَ على أنَّه عربون صداقتي وحيي. وليهنأ الأصدقاء بهذا التكريم. المهم هولاند هذا لا أطيعه رغم توافقنا على كراهية الإرهاب، التوافق في الكراهية لا يعني شيئاً ولا يؤسِّس لصداقة.

قبل أسبوعين اكتشفتُ أنَّ هناك شخصًا آخر يكره ما أكره ومع ذلك أكرهه بضرارة. الشخص اسمه أندريس بريكنفيك وهو قاتلٌ حقيرٌ قتل وحده سبعة وسبعين إنسانًا في بحر ساعة أو ساعتين في النرويج. ومظهره كريهٌ أيضًا ونازيته تفوق الخيال. هذا الإنسان الشرير قال مشتكياً من ظروف سجنه إنَّه لا يحب الأطباق البلاستيكية للطعام ولا يطيق الأكواب البلاستيكية للقهوة.

وجدتُ نفسي أوافقَه تمامًا وأضيفُ أنني لا أتحمَّلُ الأكواب الورقية أيضًا من النوع الذي تقدَّمه كوستا وستاربكس. هكذا وفي ظرف مائتي كلمة أحدثت ثغرات واسعة جدًا في منطق عدو عدوي صديقي. بإمكانني أن أحدثَ ثقبًا آخرى مثل أن بريكنفيك، لا شكَّ أنَّه مثلي، يكره مَنْ يضغط زرَّ الصعود والنزول عند باب المصعد وهو يريد أن يصعد فقط.

هذه الحالة تتطلب إجراءً استثنائيًا. لكي لا أقع في صداقة أشخاص مثل بريكنفيك أو هولاند أو حتى دونالد ترامب، أمامي حلان؛ الأول هو أن لا أكره شيئًا من الآن فصاعدًا. مَنْ يدري؟ قد تكون ماضيًا في طريقك تكره هذا أم ذاك ثم فجأة تجد أنَّ هناك أشرارًا يكرهون نفس الشيء ويعادونه: من عداوة سائقي التاكسي الذين لا يشغلون العداد إلى الذين يضعون العلكة الممضوغة على مقاعد الحداث العامة، ويتضح أن عيدي أمين يعادي نفس الأشياء.

بهذا يصير الحل أن لا تكره شيئًا وأن تردَّد الآية الكريمة ﴿عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم﴾. لكن هذا حلٌ صعبٌ للإنسان الطبيعي

الذي يمشي في الشوارع مشمئزًا ساخطًا. الحياة دون كراهية صعبة
بأكثر ممّا تتصورون.

الحل الثاني، وهو الأنجع، يقوم على أساس هدم مقولة «عدو
عدوي صديقي» ونفي كل ربطٍ بين العداوة والصداقة. وهذا ما قد
وُفِّقَ إليه. وينبغي وضع الصداقات في دُرج والعداوات في دُرجٍ آخر،
ويُفضَّل أن يكون الدُرج الآخر في غرفة أخرى.

منتهى السخف منتهى الجمال

الطفولة هي التاريخ نفسه. وعندما كنّا صغارًا كان عندنا وعيان أو طبقتان من الوعي. الأول يقول إنّنا نعرف كلّ شيء بثقة ووضوح، والثاني يجعلنا نتعلّم كثيرًا ونصغي وننصاع. تناقض غريب ومعرفتان متجاورتان في دماغ واحد. ربّما مثل الـ «رام» والـ «هارد درايف» في الكمبيوتر الواحد، معرفتان مختلفتان ومتجاورتان.

في تلك الأيام قال مدرس اللغة العربية إنّ أسخف بيت عرفه الشعر العربي هو الذي يقول:

كأنّنا والماء من حولنا قومٌ جلوسٌ حولهم ماء

لكني لم أر في البيت مجرد سخف. معناه جميل وفيه شيءٌ مناكفٌ ومتحرّرٌ ومبتسمٌ. وبهذا تحقّق لي شيءٌ رائعٌ بالاستمتاع بهذا البيت. انفتحت أمام مداركي لذاذات السخف الجميل.

عرفتُ معنى الدادائية دون أن أعرف اسمها ودون أن يعرف الشاعر نفسه لها اسمًا، كحركة فنية شكّلت افتتاحية الفن الحديث في القرن العشرين. في بيت ابن سودون (وهو شاعرٌ من العصر المملوكي) هذا

احتفال بالسفه وتحطيم أيقونات وبهجة بإنتاج شيءٍ مضاد للشعر. يشبه تمامًا ما قام به دوشامب من جعل المبولة لوحة ورسم شوارب على وجه مونا ليزا عملاً فنياً.

إنَّه الهَزء بالفن الذي حرَّر أوروبا من قرونٍ مضت. هذه هي الدادائية. هذا هو السخط العارم من الحرب العظمى وتفاهتها الذي شكل بداية القرن العشرين الحقيقية. بيت ابن سودون خالدٌ لأنَّه ثورة حقيقية على الشَّعر واستهزاءً بمفهوم المعاني.

فتح هذا البيتُ الطريقَ أمامي لأستمتع في ما بعد بأشعار حسين شفيق المصري وأغاني أحمد عدوية وحتى بدايات شعبان عبد الرحيم الواعدة. عجائب السُّخف والسَّفه لا تنتهي. شعبان عبد الرحيم غنَّى في بداياته معائباً صديقاً كذاباً اسمه خيشة:

كَدَّاب يا خيشة خليك حنين زَعَلت منك حتى المزيّن

وهذا معنى جميلٌ جدًّا وسخيفٌ جدًّا. ومن ينسى «سلامتها أم حسن» و«السح الدح امبو» لأحمد عدوية. ويظلُّ شعر حسين شفيق المصري به حلاوة ومشاكسة. هو شاعرٌ كبيرٌ يكفيه فخراً أنَّه كتب ما أسماه «المشعلقات السبعة». لا أنسى كيف مرَّغ مُعلِّقة ليبد في التراب ظافراً مبتسماً دون لؤم، إذ قال: لزيب دكانٌ بحارة منجد. وحارة منجد هذه في باب الشعرية بالقاهرة.

وهناك أمثالٌ مُصاغة كالحكمة لكَنَّاها لا تقول شيئاً. تسمع الكثير منها في المواصلات العامة لسببٍ لا أعرفه. في إنجلترا قد يجلس رجلٌ إلى جانبك في الحافلة ويفتتح حديثه بحكمة خالدة، إذ يقول بصوتٍ من

اتَّخَذَ قَرَارًا لَا رَجْعَةَ فِيهِ، «الكلاب ليست قطعاً» فتوَمَّن على قوله بهزَّة
رَأْسِكَ هَزَّةَ الْعَارِفِ الْفَاهِمِ الْعَمِيقِ. أليس هذا ترجمة لـ «كأننا والماء من
حولنا/ قومٌ جلوسٌ حولهم ماء»؟

على أيِّ حَالٍ تَذَكَّرْتُ وَأَنَا أَكْتُبُ بَيْتَ شَعْرِ جَمِيلًا وَسَخِيفًا قَالَهُ
صَدِيقٌ أَيَّامَ الْجَامِعَةِ كَانَ يُحِبُّ فَتَاةً وَيُسَبِّبُ بِهَا الْبَيْتَ، يَقُولُ:

مَا بِالْه لَا يَبْتَسِمُ كَأَنَّهُ سُورِيَالِزْمُ

يَا لِلْجَمَالِ وَيَا لِلسُّخْفِ!

سعيًا إلى النكد

نشأتُ في بلدٍ الجو فيه معتدلٌ ولا يحمل مفاجآت. يعني نشأتُ في بلدٍ لا يكثرُ بالنشرة الجوية، مثل بقية العرب. أوطأننا طقسُها مكرَّرٌ ومملٌّ لحدِّ التثاؤب والإهمال. لا أذكر أنَّ أحدًا قال: «اصمتوا لسمع النشرة الجوية». كنتُ صغيرًا وأكاد أحفظ النشرة. وأستطيع أن أرددها الآن. كلُّ يومٍ يقولون: «يستمُرُّ الطقسُ صحوًا والرياح شمالية غربية معتدلة السرعة».

في بريطانيا يصغون إلى النشرة الجوية بشغفٍ، ويرفعون صوتَ التلفزيون عند إذاعتها. الطقسُ عندنا لا يصنع خبرًا، والنشرة تبدأ بكلمتي «يستمُرُّ الطقسُ»: العبارة القاتلة للنبا، فعل «يستمُرُّ» قامعٌ للخبر. نشرة أحوال الطقس في بريطانيا تتجدد خلال اليوم والناس تتابع وتتربَّص لأنَّ هناك أشياء تقع. الإنجليز يقولون إنَّ عندنا ثلاثة أشهرٍ شتاء وتسعة أشهرٍ من الطقس السيئ. سوء الطقس يصنع الأخبار وكذلك سوء أي شيء.

مذيعو النشرات الجوية في بريطانيا مشاهير معروفون بسبب سوء الطقس. ولا شك أنَّ المذيعين العرب يحسدونهم على طقسهم المتقلب المدمر الذي يمنحهم نجومية واهتمامًا. مقدّمو نشرات الطقس عندنا ينظرون إلى نظرائهم من الأمريكيين والإنجليز بغيرة وبحسدٍ ويحلمون كلَّ ليلة بأعاصير لها أسماءٌ وأمطارٌ تسبب الفيضانات ورياحٍ تنزع سقوف المنازل.

صار للعرب الآن قنواتٌ فضائية فتعلَّلوا بعالميتها لينقَّبوا عن سوء الطقس في العالم كلّهُ. صارت عندنا نشراتٌ جويّةٌ يخبروننا فيها بالعواصف والزوابع في تايلاند وماليزيا والبحر الكاريبي وأي بقعة في العالم فيها طقسٌ مؤذٍ وصرنا نستورد النكد. وما ذكرناه عن حالة الطقس هو نفسه في كلّ أوجه الحياة. مثلاً، كلنا نعرف أنّ الاقتصاد يمرُّ بفترات ازدهارٍ وركودٍ بشكلٍ دوريٍّ. عندما يكون الاقتصاد مزدهراً يتكتم صانعو الأخبار على الأمر. لم أعرف خبراً يقول «الاقتصاد مزدهرٌ فاخرجوا وازهووا وبعثروا فلوسكم وامنحوا النادل بقشيشاً طيباً». ولكن ما إن ندخل فترة ركودٍ وتقشُّفٍ، حتى تتسابق نشرات الأخبار منذرةً محدّرةً داعية الناس إلى القلق والتحفُّظ وتوقُّع إجراءات تقشُّفٍ وكافة ضروب النكد.

لماذا يخبروننا بالأزمات ولا يخبروننا بالأوقات الطيبة؟ فترات الازدهار لا نعرفها إلّا بصيغة الماضي، وقد مرّت وتجاوزتنا ونحن لا ندري. وأوّل ما ندخل مرحلة الضيق تتسابق النشرات والصحف على إطلاعنا على الوضع السيئ بنبرة متشفية. يقولون: تريد أن تستمتع؟ كان يجب أن تفعل ذلك قبل شهرٍ. طيب، لماذا لم تخبروني قبل شهرٍ؟ وكذلك لو أنّ هناك مصنعَ سياراتٍ، هايونداي مثلاً، يعمل بشكلٍ طيبٍ ويتّج سيارات (تجميع طبعاً وليس تصنيعاً) لن تسمع عنه ولا حتى همسة. لكن انظر إلى المصنع نفسه لو حصل فيه إضرابٌ أو شبٌّ فيه حريقٌ. في المصائب سيحتل المصنع نفسه صدارة نشرات الأخبار والصفحات الأولى في الصحف.

لكننا نحن من يطلب النكد ولا نريد سماع نشرة أو نقرأ صحافة
تقول «السير منتظمٌ ويمضي بسيولة، والطرق مفتوحة ولا يوجد تأخيرٌ
في حركة القطارات، والطائرات تقلع وتهبط في مواعيدها، ومصنع
السيارات يعمل بانتظامٍ وليست هناك أزمة اقتصادية، وبالمناسبة يستمر
الجو صحواً والرياح شمالية غربية معتدلة السرعة.

حماس مسلّ

اكتشفتُ الأسبوع الماضي أنّ الأحداث السياسية جزءٌ من الحياة بدليل أنّها مضحكة. حدثتُ أمورٌ سياسية مسلية وتثير الابتسام؛ وهذا يثبت أنّ السياسة مثل الحياة فيها دائماً ما هو مسلّ ومضحكٌ.

الحدث الذي شغل الجماهير كان توقيع اتفاقية بين بلدين تؤول بمقتضاها السيادة على جزيرتين لإحدى الدولتين الموقعتين على الاتفاقية. وهذا كما ترون أمرٌ معقدٌ، وفيه عملٌ لجانٍ ومفاوضاتٌ وترسيم حدودٍ وأمورٌ أخرى مضجرة. لكنّ المملّ المضجر صار حماساً متفجراً وملاسنات، بل وموضوع مظاهرات وقنابل مسيلة للدموع وعصياً وهرافات. سبب كل هذا موضوع السيادة وترسيم الحدود.

المُضحك أنّ الطرفين المتهاثرين في الشوارع والمقاهي والتغريدات وعلى صفحات الإنترنت ينظران إلى الموضوع على أنّه رأيٌ ووجهاتُ نظرٍ وليس على أنّه وقائع ومعاهداتٌ قديمة وحديثة. هذه كلّها تجليات لمشكلة أصيلة عندنا وهي مشكلة الخلط بين الوقائع والرأي.

معركة واترلو وقعت في يونيو ١٨١٥ وهذا ليس رأياً، ومضحكٌ أن يظهر من يقول إنّ «المعركة لم تقع في رأيي المتواضع».

تصوّروا لو أنّ محافظ البنك المركزي يقول إنّ أسعار الفائدة لم ترتفع، ويقول له المذيع إنّ استطلاعاً للرأي يكشف أنّها ارتفعت. أي رأي؟ أسعار الفائدة شيءٌ واقعٌ يحدّده محافظ البنك المركزي وليس موضوع آراءٍ. ويعود المذيع ملاسناً محافظ البنك قائلاً: «ثمانون في المئة ممن شملهم الاستطلاع يعتقدون أنّ سعرَ الفائدة ارتفع، فهل تعتقد أنّهم كذّابون؟» فيرد المحافظ المذهول: «المسألة ليست صدقاً وكذباً، وسعر الفائدة أمرٌ واقعٌ ومحدّدٌ».

الذين يرون أنّ الجزيرتين ملكٌ بلادهم غاضبون لأنّ السيادة انتقلت إلى دولة أخرى. وهذا غضبٌ يمكن فهمه أو حتى تفهمه. المضحك هو الفريق الآخر الذي يبدي حماساً لفكرة أنّ الأراضي ليست لهم. هذا موقف سوريالي حقاً. يعني أنّ هناك من يغضب ويصرخ قائلاً هذه ليست أرضي أنا وأبي لم يضح هنا. هذه السورالية بعينها. فالذي يعتقد أنّ أرضاً ليست أرضه، وقد انتقلت ملكيتها لا يكثرث ولا يأبه لانتقالها.

لا بدّ وأنّ هناك ملايين العقارات تنتقل ملكيتها كلّ يومٍ وهي ليست ملكي لكنك لا تجدني زاعقاً مستثّاراً أمام مكتب العقارات أصرخ «هذا الذي تباعونه ليس بيتي». سأكون حينها مثل إسماعيل ياسين في فيلم قديمٍ يصرخ بصوتٍ زاعقٍ طالباً الشرطة، ويقول: «يا بوليس يا شاويش» وعندما يأتي الشاويش يقول له: «الصندوق ده فيهش قتيل».

المُضحك في هذا ليس القناعة بأنّ الأرض ليست ملكك، ولكن فكرة أن يتحمّس المرء لعدم الملكية هي المُضحكة. أن يتحمّس

المستعبد للحرية والانعقاد أمرٌ مفهومٌ ولكن أن يتحمّس أحدٌ للعبودية أمرٌ سوريالي.

الفكرة الأخيرة لم تغب عن مخرج سوريالي عابثٍ اسمه لويس بونيويل (ويقرب الاسم عادةً إلى بونيويل بإسقاط الياء الأولى) ففي أحد أفلامه يصوّر مشهداً لمظاهراتٍ صاخبة ومواجهات مع الشرطة. المتظاهرون الشباب يفتحون صدورهم للرصاص هاتفين «تسقط الحرية» والشرطة ترشقهم بالرصاص. الغاضبون المتحمسون لفكرة أن الأرض ليست ملكهم يذكّرون بمظاهرة بونيويل.

نفي الصفات

أودُّ ألا يكون العنوان مضللاً. هذا ليس كلاماً في فكر المعتزلة ولا حتى فقه الجهمية والأشاعرة وأصحاب الكلام. النفي الذي أعنيه هو الطرد والإرسال إلى منفي بعيدٍ يعني نفيًا مثل حالة سعد زغلول أو أحمد عرابي.

بسبب التعلُّق بالكليشيه إلى حدٍّ مرضيٍّ، صارت هناك صفةٌ لكلِّ كلمة. كلُّ شيءٍ موصوفٌ. في كتاباتنا وتقاريرنا الصحافية لم يُعدَّ هناك حديثٌ عن شيءٍ بسيطٍ مثل «دليل». لا تقرأ اليوم عن وجود دليلٍ. هناك فقط «خير دليلٍ». لا تقرأ تقريراً صحافياً أو مقالة أو تسمع برنامجاً تليفزيونياً يقول «وهذا يُعدُّ دليلاً على...» تقرأ وتسمع فقط «يُعدُّ خير دليلٍ». ولكن لا بُدَّ أن تكون هناك أدلةٌ ليكون الذي نتحدَّث عنه خيراً. يبدو أنَّه لا يوجد، هناك دليلٌ وحيدٌ وهو أيضاً خيرٌ دليلٍ. ولكن لكي يكون أفضل دليلٍ ينبغي أن تكون هناك أدلةٌ ليكون الذي عندنا هو الأفضل. لكن تقسيم الأشياء صار دون نسبة، مثل أحجام كوب القهوة لدى ستاربكس: هناك الكبير وهناك الوسط دون أن يكون هناك صغير. كيف يوجد الوسط دون كبيرٍ وصغيرٍ؟ لا أعرف.

أصحاب «خير دليل» يدون متهاونين إزاء المجموعة الأخرى التي ليس عندها دليل سوى الـ«دامغ». صرنا لا نسمع إلّا عن الدليل الدامغ والجملة دائماً تأتي على شكل «وهذا يُعدّ دليلاً دامغاً». ولم تُعدّ هناك حقيقة سوى الحقيقة الناصعة، ولا أحد يمتلك موهبةً بل الكلّ عندهم موهبة خارقة.

كلّ هذا بسيطٌ مقارنة بما يقع أثناء الحروب، الأهلية منها والعادية. أنا زرتُ سوريا وتجوّلْتُ فيها ومررتُ ببعض قرأها وبلداتها، وهي مثل كل قرانا هادئة ونعسّانة. كلّ قرانا يميّزها الدجاج الذي يطفر في الشارع ويركض بشكلٍ عشوائيٍّ في كلّ الاتجاهات. الدجاجة لا تركض في خطٍّ مستقيمٍ وهذا ما يغري الصبية بالركض وراءها فتزداد تخبطاً وعشوائيةً والمطاردون من الصبية يزدادون عزماً على الإمساك بها.

وما يميّز قرانا علاوة على الدجاج الأحمق هو الملل الذي يدفع الكلاب إلى النباح ومطاردة السيارة التي تصل إلى القرية.

الكلاب تجلس خاملة في أي ظلٍّ مع ارتفاع الشمس ولا تصنع شيئاً، ولا تطرد حتى الذباب الكسلان -هو أيضاً- الذي يجلس على وجهها. الكلاب تشيّع الزائر إلى أطراف القرية ليس من باب الحرص والحراسة ولا بدواعي المهنية، ولكنّه الملل والضجر من الرتابة.

المهم أي قرية من هذه تصبح استراتيجية حين تُنشَب حربٌ. لم أقرأ تقريراً واحداً يقول بشكلٍ مجردٍ اسم قرية في سوريا سيطر عليها الجيش النظامي أو الجماعات المسلحة. كلّما يسيطر أحدٌ على قرية

يقولون إنها استراتيجية، وهي قرية مملّة ورتيبة، فيها دجاجٌ نافرٌ وكلابٌ
ليست أليفة.

هذا إلى أنّ المعارك كلها طاحنة مهما كانت ركيكة. وكلُّ دفاعٍ
مستमितٌ وكلُّ هجومٍ ضارٌّ أو شرّسٌ. ألم تعدّ هناك معارك غير طاحنة
ودفاعٌ ليس مستميتاً وقرى ليست استراتيجية؟ يبدو لا.

كيف تصبح مليونيراً في بضعة عقود

لو كان عنوان العمود هذا عنواناً لكتابٍ لِمَا اشتراه أحدٌ. ظهرت كتبٌ كثيرة تعلّم القارئ كيف يصبح مليونيراً، ما كانت مبيعاتها كثيرة؛ فالقراء كانوا يسألون: لو كان الكاتب يعرف كيف يصبح ثرياً لِمَا كتب كُتُباً ولأصبح مليونيراً مستغنياً عن نشر الكتب. هذا صحيح. لكن الملاحظ أيضاً أنّ الكتب هذه تعدّ بـشراءٍ سريع. السرعة أهم من المبلغ. لو نشرت كتاباً يعدّ بألف دولار في أسبوعٍ لكان الإقبال عليه أكثر من الإقبال على طريقة تعدّ بمليون دولارٍ في عقودٍ.

وكذلك الحال بالنسبة إلى كلّ شيءٍ. الناس مستعجلة تريد أن تنحف في غضون أيام. كلّ دعايات طرق التنحيف تركز على الزمن القصير أكثر من التركيز على الوزن. وأذكر أنّ كُتُباً راجت ولعلها لا تزال رائجة تعلّم لغات أجنبية في أيامٍ. وكم راودتني فكرة نشر كتاب يعدّ بتعليم «السلام عليكم» و«مع السلامة» بالفارسية في عشر ثوانٍ و«شكراً» بالتركية في خمس ثوانٍ. ستلقى رواجاً لأنّ المهم قصر الوقت وليس ما ستتعلمه.

هذا الاستعجال الشديد هو الملمح الثابت في سلوكنا. سافرتُ بالقطار بين مدنٍ عربية كثيرة، فأنا أحب المدن العربية وأحب القطار أيضاً. المُلفت للنظر هو تدافع المسافرين لمغادرة القطار في نوبة عجلة تكاد تفتك بالمسافرين. الكلُّ يحتشد ويتدافع بعزمٍ وتصميمٍ ليكسب خمس ثوانٍ في عملية النزول، رغم أنَّ حياته كلها تمضي برتابة، واليوم الكامل من حياته وبكلِّ ساعاته لا يعني شيئاً كثيراً.

لكن هناك من يسعى إلى الملايين بصبرٍ ويمضي إليها بالسعي الوئيد. أعرف من هؤلاء صديقاً، رحل الآن، ولم يبلغ مقصده، وضع خطة طويلة الأمد للحصول على بضعة ملايين. كان هذا الصديق لا يطيق مشاهدة لعبة السنوكر: اللعبة التي هي ضربٌ من البلياردو. وكان يقول في كلِّ المحافل وعلى رؤوس الأشهاد: «لو أعطوني عشرة ملايين دولار على أن أتفرج على السنوكر ساعة واحدةٍ لِمَا فعلت». لكنه أَسْرَ لي أنَّه كاذبٌ، وأنَّه رغم كرهه للعبة يستطيع حقاً أن يتفرج عليها، وأنَّ إشاعة هذا الكلام سيغنيه يوماً.

الخِطة تعتمد أولاً على إشاعة رفض العشرة ملايين لقاء ساعة من التفرُّج على السنوكر. الهدف، حسب الخِطة، أنَّ هناك في مكانٍ ما وفي وقتٍ ما شخصاً غنياً سيصدقه وسيمتحنه. وسيعرض هذا الغني عشرة ملايين وعند ذاك سيكشف صديقي عن وجهه ويخلع القناع وسيجلس متفرجاً على اللعبة ويقبض العشرة ملايين. شرح الصديق خطته مبتسماً بمكرٍ قائلاً: «وهكذا ترى أنني مشروع مليونير ولكن لا تُخبر أحداً فالخِطة تعتمد تماماً على الكتمان».

كتمتُ الأمر، وأنا أبوح بالسرِّ لأوَّل مرَّة لأنَّ صديقي العزيز ذاك
تُوفي منذ أعوام. وقد صبر وأنفق عقدين في تنفيذ خطته لكن الجزء
الأهم من المؤامرة لم يتحقَّق: لم يظهر الشخص الغني الذي سيتمحن
كراهيته للسُّنوكِر. مات صديقي شبه مُعدم لكنَّه عاش مشروع مليونير.

الأستاذ الصهيوني

كان العراق بلدَ البعثات العلمية حتى التسعينيات، لا يخلو شارعٌ سكنيٌّ من مبعوثٍ. يعني كل مواطن يعرف مبعوثاً إلى إنجلترا والولايات المتحدة تليهما فرنسا. أخبار المبعوثين ونجاحاتهم وإخفاقاتهم حديث الأمهات والعَمَّات والخالات والجارات في حلقة شاي العصر وساندويتشات الجبن والنعناع.

وحكى زميلٌ لي في جامعة ساوثهامبتون أنَّ أمّه تقول للجيران بفخرٍ إنَّ ابنها يدرس في جامعة ويستنجهاوز. يعاتبها ويقول ويستنجهاوز هذه ماركة الثلاجة التي عندنا في بغداد والجامعة اسمها ساوثهامبتون. فترد بغضبٍ «أنا بشقِّ النفس تعلَّمتُ أن أنطق اسم الثلاجة وتريد أن تلعثمني في كلمة جديدة»، وعندها حق. من أين للجارات أن يعرفن الفرق أصلاً؟ ويستنجهاوز كافية جميلة والثلاجة حسنة الصيت.

لم يكن النجاح يكلِّل جهود كل المبعوثين طبعاً، فهناك من عاد خائباً واجماً. من الوجوم ظهرت معرفة جديدة لاكتها الألسن وصار لها صيتٌ. ظهرت شخصية الأستاذ الصهيوني المتسلِّل إلى أروقة الجامعات الغربية الذي لا شغلَّ له سوى الكيد للعرب بإفشال أبنائهم

المبعوثين. كلٌّ من فشل في الدراسة كان وراء فشله أستاذٌ صهيونيٌّ شريرٌ. يعود الابن خائبًا في مسعاه وبفضل «الأستاذ الصهيوني» يصير بطلاً قومياً ونموذجاً لضياح الحق العربي، والمجتمع يريد تصديق ذلك فانتشرت الفكرة.

تذكرت هذا كله بعد رحيل المهندسة المعمارية العربية زها حديد ورواج فكرة أنّها لم تأخذ نصيحتها العادل من التبجيل لأنّها عربية ومسلمة وامرأة. ولا نعرف أيّ تبجيل كانوا يريدونه لها. زها حديد حاصلة على أعلى مرتبة شرف من التاج البريطاني يمكن ترجمتها إلى «السيدة الآمرة في الإمبراطورية البريطانية». وهذا يعني أن يخاطبها الناس بـ«ديم» المقابل الأنثوي للقب «سير». ربما كانوا يريدون لها أن تتنحّى الملكة من أجلها.

لم يكن نصيبُ زها من المشاريع المعمارية ينقص عن نظرائها الإنجليز المبدعين والكبار أيضًا ومن بينهم فوستر. العلة في هذا أنّ الإنجليز محافظون وينظرون برية إلى الإسراف في الحداثة والجرأة. والمعمار بطبعه يتطلّب موافقة الجمهور الكريم. الإنشاء المعماري في أي مدينة يراه الناس كلّ يوم وليس مثل اللوحة أو القصيدة. ثم إنّ العمارة تتطلّب مبالغ طائلة ليتحقّق حلم المعمار، ويجب أن يكون الناس مرتاحين لذلك الإنفاق. أكبر معماريهم واسمه فوستر صمّم مبنى البرلمان الألماني وليس الإنجليزي. وكذلك روجرز الذي صمّم مركز جورج بومبيدو في باريس.

تقدّمت زها بتصميمٍ حديثٍ وطريفٍ كعادتها لدار أوبرا في مدينة كارديف. حضر رئيس الوزراء السابق اللورد كالاهاان معرضاً للتصاميم. توقّف عند التصميم الغريب لزها. سألها قائلاً: «أنا أعرف أنّك من العراق، وأنا لا أفهم في المعمار بل في السياسة. قل لي هل صدام حسين مؤذٍ كما نسمع؟» فقالت: «نعم، ولي زملاء معماريون سُجِنُوا وعُذِّبُوا»، فقال كالاهاان بخبثٍ: «يا إلهي! لماذا؟ ماذا صمّموا؟» مضمرًا أنّ هذا تصميمٌ يستدعي السجن والتعذيب لصاحبه. عقدة «الأستاذ الصهيوني» حاضرة عندنا حتى دون أن يخفّق أبناؤنا. نحن لا نستغني عن المظلوميّة.

الأعمار بيد الله

شيءٌ عجيبُ الإنسان. طموحاته وأحلامه وآماله غريبة. لم أصادف أحداً لا يريد لنفسه طولَ العمر، الكلُّ يريد أن يعيش ويعيش. وبنفس المقدار لم أرَ أحداً يريد الشيخوخة. الإنسان يطلب أن يمتدَّ به العمر لكنَّه لا يريد أن يشيخ، هذا بارادوكس أو كما يترجم خطأ «مفارقة»، والأصح تناقض.

يمرُّ الإنسان بالأعمار مثل الفصول. الطفولة أجملُّها، العمر الوحيد الذي يتفق على حبه الجميع. ومن حُسن الحظِّ أنَّ الإنسان يُولَد طفلاً وأعتقد أنَّ وراء ذلك مخططاً. يُولَد الإنسان محبوباً وملاكاً لكي يتعلَّق به أبواه ويربَّيانه ويصبران عليه لأعوام. كلُّ هذا استعداداً لبلوغ الطفل مرحلة المراهقة الكريهة. يعني هناك خدعة أو لعلَّها نعمة تستدرجنا إلى قبول المراهق بأن يُولَد المولود طفلاً ولا يكشف عن مراهقته إلا بعد سنين. ولو أنَّ الأطفال يُولَدون مراهقين لعاد المجتمع إلى وأد البنات والأولاد أيضاً.

المراهقون مخلوقاتٌ مزعجةٌ أولاً وأخيراً. يغادرون بيوتهم كلَّ صباحٍ وكلُّهم عزمٌ وتصميمٌ على أن يكونوا مصدرَ إزعاجٍ للإنسانية جمعاء. يعينهم على بلوغِ الهدفِ صفائحُ من الخشب فيها عجالاتٌ صغيرة يقفون فوقها وينطلقون بسرعة في كلِّ الاتجاهات والناس تفرُّ من بين أيديهم. هم مقتنعون أنَّ العالمَ لا يفهمهم ويمضون في الحياة ينشرون كآبة معدية.

لا أذكر الآن كاتباً إنجليزياً قرأتُ له مقولة حكيمة تقول إنَّ الإنسان لا يكون ملاكاً حقيقياً ومخلوقاً لا يؤذي أحداً ولا يخرب البيئة ولا يوقع الشرَّ بالحيوان والنبات إلَّا في الأشهر التسعة الأولى من حياته، داخل الرحم. يقصد أنَّ مسيرة الشرِّ، والعياذ بالله، تبتدئ منذ لحظة الولادة.

وهناك مثلٌ إنجليزي يقول بعد سنِّ الأربعين يصير لكلِّ منَّا الوجه الذي يستحقه. لذلك ينبغي ألاَّ نسبر أغوار النوايا ونحكم على وجدان الشباب. الوجه في العشرينيات والثلاثينيات يكون مطواعاً ويمكنه اتخاذ أشكالٍ لم يجبل عليها لذلك يكون معظم المحتالين من هذا السنِّ. الوجه مرنٌ ويستطيع ادعاء البراءة، وصعبٌ على من هم فوق الأربعين ادعاؤها. بعد ذلك نصل إلى الشيخوخة. وهو الموسم المنبؤ الذي لا يريده أحدٌ. وأذكر أنني قرأتُ عند وودهاوس وصفاً لرجلٍ رثَّ فعلاً، عجوز متهالك يقول عنه الكاتب: «شكله شكل رجلٍ عمره الحقيقي مائة عامٍ لكنَّه يبدو أكبر من عمره بسبب الهموم». والإنسان لا يرى شيخوخته بل يراها الآخرون.

عندما تبلغ الستين في معظم دول أوروبا يمنحونك بطاقة تتيح استخدام المواصلات العامة مجاناً. وهي بطاقة تُسهرها وتعرضها على الماسح الضوئي بحيث يراك الجميع تكشف عمرك. لا ضير من هذا لكنه مؤذٍ للسيدات. الواحدة منهن لا تنتمي إلى موسمها مثل بامية في الشتاء أو برتقال في الصيف.

تنفق المرأة المئات من الجنيهات شهرياً لتبدو في الأربعين وهي قد تجاوزت الستين. لكنها لكي توفرّ جنيهاً واحداً، وهو أجرة ركوب الحافلة، تستخدم بطاقة العمر ليعرف كل راکب أنّها تجاوزت الستين. يعني على رؤوس أربعين شاهداً تعلن أنّها فوق الستين. ربما توفرّ الجنيه لشراء مساحيق تُخفي بها عمرها.

منطق الطير

الناس تحب أن تفهم ما يُقال على مسمعٍ منها. لا أحد يريد أن يكون «مثل الأترش بالزفة» كما نقول في العراق لمن لا يعي ما يدور حوله. ويبلغ الشغف في فهم ما نسمع حدًّا أننا نريد أن نفهم الحيوان ونفهم زئير الأسد ونهيق الحمار ولغو الطفل الرضيع وصراخه ومواء القطط. ولهذا اشتهرت القصيدة المطوّلة (نحو ٤٥٠٠ بيت) التي وضعها فريد الدين العطار لأنَّ اسمها «منطق الطير»، رغم أنَّها لا تنقل إلينا معنى الزقزقة والوصوصة، بل هي قصيدة صوفية فيها طيورٌ تعبّر عن السالكين في الصوفية. لكنَّ العطار اختار لقصيدته/ الكتاب عنوانًا جذابًا يعد بترجمة كلام الطير.

محاولة فهم الحيوان عبثٌ لأنَّ «الأسد حتى لو تحدّث بلغتنا لن نفهمه» كما يقول فيتجنشتين، همومه مختلفة واهتماماته غير معروفة. سيقول بلغتنا شيئًا من قبيل «تراب، ضرس، حكمة». المهم أن نتعلّم لغات الإنسان ونبذل جهدًا لمعرفة ما يقوله الفرنسيون أو الأتراك.

المشكلة في اللغات الإنسانية هي أنَّ متعلميها لا يدركون كم أنَّ اللغة واسعة ودقيقة والإحاطة بها شبه مستحيلة. المفردات لها حكايات

وتواريخُ، والمعاني لها ظلالٌ ودرجاتٌ وجمالياتٌ طبعًا. والقواعد تعبرُ
عن فكرٍ وعن وجدانٍ يختلف بين شعبٍ وآخر.

الجاهل يعتقد أنَّه أحاط باللغة وملك أسرارها. هناك كثيرون
يجب، من باب الحق والصواب، أن يعرفوا أنفسهم بأنَّهم جاهلون بكلِّ
لغة يدَّعون معرفتها ويزعمون القدرة على الحديث بها بشطارة.

هؤلاء معرفتهم بالتركية مثلاً لا تتيح لهم سوى الاستعلام عن
موقف الحافلة، ولا تصل بهم إلى أكثر من طلب همبرجر دون كاتشاب.
فائدتهم لا تتجاوز إعانتك على طلب ساندويتش شاورمة بلا مايونيز.
وإذا كنت لا تمنع المايونيز ولا حتى الكاتشاب فليس لهم داعٍ ولا
ضرورة.

حديثنا عن هؤلاء الذين يعلنون في تعريف أنفسهم أنَّهم بلابل
بالفرنسية لا تزيد مهمَّتهم اللغوية بتلك اللغة عن إخبارك بأنَّ الطريق
من كارفور حتى الدوّار الذي يليه مقطوعة بسبب حادث مرورٍ. وتبلغ
الوقاحة ببعضهم أنَّهم يحدثون أبناء جلدتهم بتلك اللغة. نفهم من
كلامهم أنَّ اللغة العربية ليست كافية ولا تتسع لقول خبزٍ أو حليبٍ أو
فلفلٍ أسود. يعتذر المضيف عن أنَّ ما عنده حليبٌ مع القهوة فيقول:
«للأسف ما عندنا مِلْك». يا سلام. لا تسعفه العربية فالمعنى ثَقِيلٌ
وعَمِيقٌ، ويجب أن يقترض من الإنجليزية كلمة «milk» ليتضح المعنى.
والشنيع حقًّا هو لغة الحبِّ لدى هؤلاء البلابل. تجدهم في إنجلترا
يصاحبون فتاة ويدعونها إلى العشاء، وبيلاغاتهم التي لا تُقاوم يقولون
«أنا، أنتِ، يروحون، يَم يَم يَم».

ورأيتُ اسكتشًا كوميديًا ألمانيًا فيه شابٌّ عربيٌّ ما زال يتعلَّم اللغة،
دعا فتاة ألمانية إلى العشاء، وقد خلق جَوًّا رومانسيًّا مظلمًا مثل أفلام
الرعب وهو يقبِّلها ويهمس في أذنها ما تعلَّمه في مدرسة اللغات مغمضًا
عينيه قائلاً: «أخي الصغير يذهب إلى المدرسة في الصباح». ستذوب
الفتاة حتمًا.

لغات

«٤٦٧ ٥٨٧١ ١٦ ٣٧٦، ٩٣٢٤١ ٢٣ ٧٢٥ ٦٣١٩ ٣٣٢١

٦٧٨٩٠ ٥٧٩٠ ٤١٢ ٢٣١٨؟ ٦٠٢ ٦٠٢»!

الفقرة أعلاه مكتوبة بلغة الأرقام التي يدعوننا إلى اعتمادها لغة أولى لكي نكون عقلاء. رأيتُ مذيعةً في قناة فضائية عربية يزعمُ قائلاً: «لا تقل لي عندما ولكن وكيف. حدثني بلغة الأرقام» ففكرتُ في الاتصال بالبرنامج على الهواء، والحديث مع المذيع المنفعل بجملتها كلها أرقاماً لأرى هل سيعتبرني عاقلاً حصيماً، وهل سيتمكّن من الردّ أصلاً؟ وهناك مذيعٌ آخر يتحدّث بلغة الأسئلة. تتفرّج على برنامجهِ فيصدمك بسلسلة أسئلة دون أن يترك لك فسحة لتلتقط أنفاسك. برنامج يفترض أن يخبرك لكنّه يسألك: «لماذا قررت السعودية ألاّ تخفض إنتاج النفط؟ ولماذا لا يتفق الفرقاء في سوريا؟ وأين ذهبت أموال المعونات الأوروبية؟ هل دخلت الجيوب أم أنفقت في ما لا جدوى منه؟»، كلُّ هذا وأنت جالسٌ في بيتك ترعى شأنك ولم تتحرّش بأحدٍ. أنا دائماً أجيب المذيع قائلاً: «أقسم أنني لا أعرف. أنت الإعلامي، وأنا مسكينٌ جالسٌ في البيت، منك المعرفة وعلينا الإصغاء».

حتى الألم والعذاب لهما لغة. يصفها يوسف إدريس، وهو كما تعرفون طبيبٌ، ونقل منها شيئاً في حكاية جميلة اسمها «لغة الآي آي». في ردهات المستشفيات يتحدثون تلك اللغة بطلاقةٍ ويفهمها الأطباء وطاقم التمريض. وهي لغة لم يُنتج عنها أثرٌ أدبيٌّ حتى الآن، ولا توجد فيها مفرداتٌ لوصف الطبيعة أو الغزل أو النقد البناء. لغة قائمة على الشكوى والألم فقط. للتوجّع لغة مفرداتها محدودة تتراوح بين آخ وآي وآه.

اللغة الأوسع انتشاراً هي لغة الكليشيات. والكليشية كما تعرفون هو قولٌ كان جميلاً ومؤثراً لكنّ الألسن لا كته حتى صار مبتذلاً. الابتذال يميّز الكليشية. وما أتذكر من قال: «أول من شبّه خدّ الحبيبة بالتفاحة كان ملهمًا وثاني من قالها كان مضجراً وسخيفًا».

الكليشية تأتي عبارة كاملة المعنى ولا يصلح للحديث. من يستخدمه يَكُن كَمَن يستخدم أحجارَ بناءٍ كبيرةً جدًّا ولا تفي بالمقاس بدقة فينحرف المعنى لیسع الكليشية.

هناك حكايةٌ عن أنّ رئيسَ أوّل وفدٍ عراقي إلى الأولمبياد في الأربعينيات وقف خطيباً أمام الوفود المشاركة، وأراد أن يقول شيئاً بليغاً يليق بالحدث. حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما طار طيرٌ وارتفع إلّا كما طار وقع» ولا نعرف من يعني ومن مآله السقوط بعد ارتفاع، ربّما بريطانيا أو الولايات المتحدة. بعد هذه العبارة توقّف صاحبنا قليلاً ليبحث عن عبارة أبْلغ ينهي بها كلمته الوجيزة.

وجد بغيته في عبارة رائعة. أشار إلى الوفود المتسابقة بحركة واسعة من يديه وقال «اللهم اجعل بأسهم بينهم شديداً، وأهلك الظالمين بالظالمين». وهو طبعاً لا دور له ولا لوفده في هذا، سيكتفي بالتفرج بينما يقع البأس الشديد بين الآخرين.

استفتوا قلوبكم

قرار مغادرة الاتحاد الأوروبي قرارٌ خطيرٌ ومُعقَّدٌ. الحسابات فيه صعبة جدًا، والمواضيع التي يشملها متفرعة وحيوية. لكنَّ خبراء السياسة العارفين (أعني البرلمانيين) قرَّروا فجأةً أنَّ هذا القرار سيكون بيد الشعب مباشرة.

لا يمكن للمرء أن يقيم في بريطانيا ويتفادى التفكير في الاستفتاء على المكوث في الاتحاد الأوروبي أو الرحيل. شخصيًا لا أستطيع التفكير في أي شيءٍ عدا الاستفتاء. الحديثُ عنه في كلِّ مكانٍ مثل الهواءِ أو مثل طنين ذبابة قرَّرت أن تقاسمك الغرفة. الإعلام والمعلِّقون عندهم طريقة يحملونك بها على الترقُّب والانشغال بأي موضوعٍ يختارونه. يستطيعون أن يجعلوك متحمَّسًا مترقِّبًا نتيجة أي شيء. حتى لو لعبت ألمانيا مع إريتريا مباراة كرة قدمٍ سيحملونك على ترقُّب اللعبة وعلى أن تجلس قارضًا أظافرك بأسنانك منشغلًا بالنتيجة وبمَن سيفوز. المسألة هي أنني ناقمٌ على الاستفتاء، وكلَّ صباح ومع أوَّل رشفة قهوة، أرسل الاستفتاء وأرسل من دعا إليه إلى الجحيم. لكني لا أستطيع أن أوصد عليه بابًا. الدماغ يشرع أبوابه للنكد والغيط بعد الاستيقاظ

بـخمس دقائق. لا أستطيع أن أفكر في سواه، حاولتُ وحاولتُ، فقررتُ أن أنكّد على القراء. النكد ينشطر إذا تقاسمته.

نتيجة الاستفتاء محسومة وستكون لصالح البقاء في الاتحاد الأوروبي، لكنّ هذا لا يمنع المعلقين من إلهاب ظهورنا بسياطِ الحثّ والتحفيز لكي نقلق ونشغل، مثل مباراة ألمانيا وإريتريا. الذي يشغلني ليس النتيجة بل فكرة الاستفتاء نفسها؛ أعني لماذا الاستفتاء أصلاً؟

بريطانيا نظامها ديمقراطي برلماني وليس نظاماً ديمقراطياً استفتاءياً. يعني أنّ الناس انتخبوا عبر اقتراعٍ نزيهٍ تماماً مجموعة نواب يمثلون الشعبَ وللشعبِ أن يخلعهم إذا لم يؤدّوا المطلوب منهم. وهكذا تتخذ القرارات في مواضيع خطيرة مثل إعلان الحروب. البرلمان سيّد مُطاعٌ وصوته صوت الشعب وله أن يقرّر. انتخبنا أعضاءه ليقروا ويفكروا ويحسموا. لماذا الاستفتاء؟

قرار مغادرة الاتحاد الأوروبي قرارٌ خطيرٌ ومعقّد. الحسابات فيه صعبة جداً والمواضيع التي يشملها متفرعة وحيوية. لكن خبراء السياسة العارفين (أعني البرلمانين) قرّروا فجأة أنّ هذا القرار سيكون بيد الشعب مباشرة. الشعب كلّهُ من سائقي تاكسي إلى مصلحي أحذية ونادلي المقاهي إلى باعة ألعاب كومبيوتر.

ليس هذا ازدراءً للجمهور الكريم. معظم أصدقائي من الجمهور، بل أنا من الجمهور. لكنني أعرف أنّهم مزاجيون. الشعب البريطاني بكلّ ما أوتي من حكمة عصف به إعصارٌ تافهُ مثل رقصة الماكارينا قبل أعوام. شعوبنا الأبيّة ترفع شعبان عبد الرحيم إلى مصاف العظام

المؤثرين بحكمته السياسية الدقيقة حين يعلن «أحب عمرو موسى وأكره إسرائيل، هيهيهيهيهيه»، ويعيدها مراتٍ لمن لم يفهم العبارة الدقيقة، فهي تحتاج إلى إعادة حسب تخمينه هو.

الإنسان يحتاج إلى من يعينه على اتخاذ قرارٍ معقدٍ، يطلب من يأخذ بيده من خبيرٍ أو حكيمٍ، وإذا لم يتوفّر هناك دائماً الاستشارة وأساليب أخرى لتلمّس الطريق الصحيح. تصوّروا أنّ قبطان الطائرة يواجه اضطرابات جوية (تلك التي يسمّونها مطبّاتٍ هوائية) ستطيح بطائرته فيلتفت إلى الركاب ويقول لهم هل ننخفض أم نرتفع لتفادي الاضطرابات؟ وينتظر أن يدلّو كلُّ بدلوه.

استفتوا الناس إذا اضطرتهم، ولكن في أمرٍ يفهمونه ليكون لهم رأيٌ يستحقُّ الإصغاء إليه.

تعلم جملة أخرى

لسبب لا يعرفه حتى الجنُّ الأزرق، كما يقولون، يتعلَّم العرب الذين لا يعرفون الإنجليزية جملة أولى في تلك اللغة هي الأخطر. جملة تفتح عليك أبواب الجحيم وتضعك في مأزق حقيقيٍّ ومن صُنع يديك. بل هناك مَنْ لا يعرف غير تلك الجملة وهي سؤال «دو يو سبيك إنجلش؟». يعني أنَّ رجلاً لا يتكلَّم اللغة، وليس له أدنى معرفة لكنَّه يغري الآخرين بالتدقُّق في الحديث معه باللغة التي لا يعرفها. لماذا؟ هذا لغزٌ لا أزعم القدرة على تفسيره.

ولا يكتفون بتعلُّم هذه الجملة القاتلة باللغة الإنجليزية، بل يجوبون القارة بحثاً عن جملة مكافئة في لغاتٍ أخرى لا يعرفونها. تراهم نفس الأشخاص يجتهدون في تعلُّم جملة «شبراخن سي دويتش» لدى الذهاب إلى ألمانيا. ولا يعرفون جملة مفيدة واحدة بالفرنسية سوى «بارليه فو فرانسيه؟».

هذه العبارات تعلِّمها يشبه تعلُّم أن أفضل طريقة للتصرف إزاء أسدٍ نائم أو تمساحٍ خاملٍ أو غوريلاً مستكنة في غابات إفريقيا هي أن تحزَّ كلاً منها في صدرها بقوة وبعضاً مدببة. والغريب أنَّهم يسألون الشخص الإنجليزي في بلده «دو يو سبيك إنجلش؟».

هذا السؤال صار مثل «السلام عليكم» يسألونه من باب التحية والتملُّق أحياناً. في حافلات لندن رأيتُ وسمعتُ من يسأل محصِّل التذاكر، «دويو سبيك إنجلش؟» فيقول الرجل «يس» فيصمت السائل ويقول بالعربي «ما أعرف إنجليزي»، فينقطع حوار الحضارات عند هذه النقطة الحرجة.

المسألة فيها شيءٌ غريبٌ وهي ضربٌ من سلوكٍ. هناك كلماتٌ بالعربية صارت تُستخدَم بمعنى آخر. مثلاً، بالعربية صار الفعل «يُناهِز» يعني «يرحمه الله» وتُلحَق بأعمار الموتى فقط. لا تسمع أحداً يقول شابٌ عمره يناهز العشرين ما لم يكن الشاب قد تُوفي. ربما يظنُّون الكلمة دعاءً بالرحمة. تقول لأحدٍ فلان عنده ولدٌ يناهز العشرين فيقول «لا حول ولا قوة إلا بالله. متى توفي؟».

في كلِّ الصحف ووسائل الإعلام يقولون تُوفي شخصٌ ما عن عمرٍ يناهز الكذا سنة. لا يعرفون أنَّ يناهز تعني يقارب أو يداني ذلك العمر ولم يبلغه. وهم يقولون عن الحي عمره سبعون عاماً لكن ما إن ينتقل إلى جوار ربه، حتى يصير يناهز السبعين رغم أنَّه بلغ السبعين.

يأتي الصياد المصري بسلة فيها جبنٌ وخبزٌ وزبدة وأشياءٌ طازجة في مركبه الصغير و ينتظر من البحَّار الإنجليزي أن يُدلي بحبلٍ. يدلي الإنجليزي بالحبل من مركبه الكبير فيربط المتلقي السلة بالحبل مليئة بالمواد الطازجة، فيسحبها الإنجليزي ويأخذ ما فيها ويضع فيها سجائر يعيدها إلى المصري. ويبدأ التبادل التجاري هذا بالمصري صائحاً: «دويو سبيك إنجلش؟» فيرد الإنجليزي صارخاً: «يس» فيقول المصري: «طب ارمي الحبل».

أطفال في قعر الحديقة

قبل نحو عشرين صيفاً كان عندنا ضيوفٌ عربٌ وأبناؤهم وسيدة إنجليزية واحدة. الأطفال تصرّفوا بشكلٍ عاديٍّ ومألوفٍ من تخريبٍ وتهريجٍ وحركة لا تنقطع. ومنهم طبعاً من قام بواجب الطيارة وكدر السّلم العام.

واجب الطيارة هذا يستحق الشرح. هي قاعدة غير منصوصٍ عليها لكنّها قاعدة على كلّ حالٍ. تقول القاعدة التي وضعتها من ملاحظاتي إنّهُ ما إن يجتمع عددٌ من الأطفال في مناسبة ما حتى يتكفّل واحدٌ منهم بأن يتخيّل نفسه طيارة. واحدٌ على الأقل سيفرد ذراعيه إلى الأقصى ويروح يركض ويدور حول نفسه وذراعا مفرودتان على أنّهما جناحان وهو يُطلق طيناً متصلاً على أنّه صوت المحرك.

كلُّ طفلٍ يزعم أنّهُ طيارة بجناحين يعتقد أنّه أوّل من اكتشف هذه اللعبة. ترونها فاردّاً ذراعيه بزهو المخترع ومباهاة المكتشف وهو لا يدري أنّ اللعبة عمرها مائة عامٍ وجربها وأزعج الناس بها ملايين الأطفال، وأنّ أولاداً قبله جربوا زعم كونهم عربية تجرّها خيولٌ في العصر السومري والبابلي.

الطيارة هو ليس الوحيد الذي يصدر عنه طنينٌ. محصلة صخب الآخرين طنينٌ أيضًا. طنينٌ مزعجٌ ومستمرٌ مثل وجع الضرس. كنّا في الحديقة نحاول أن نشرب الشاي ونأكل الكعك بهدوءٍ ولا يقف حائلًا بيننا وبين السعادة سوى ذلك الطنين والصخب العاث. وصارت مهمتنا تلخص في التخلص من أكبادنا التي تمشي على الأرض.

السيدة الإنجليزية وجدت الحل دون تعبٍ. الإنجليز ماكرون وذوو دهاءٍ. الإنجليزية طلبت من الأطفال الطنّانين أن يصغوا إليها جيدًا فعندها مشروعٌ مسابقة ذات جائزة فخمة. قالت لهم اذهبوا كلكم إلى أبعد نقطة عنّا في الحديقة فانطلاق السباق سيكون من هناك. فراحوا واصطفوا في قعر الحديقة.

هناك قالت لهم أن يعُوا جيدًا هذا السباق الفريد، فهو جديدٌ وغير تقليدي. أثارت حماسهم فعبّروا عن استعدادهم لخوضه مهما كان. هنا كشفت لهم قواعد السباق العجيب، وهي أنّ عليهم قطع المسافة بينهم وبيننا ولكن الجائزة والفوز سيكونان من نصيب آخر من يصل والنصر من نصيب الأبطأ. عادت صاحبتنا إلى مقعدها وهي تبتسم بمكرٍ. أعطتهم إشارة الانطلاق فتحرّك الأطفال خطوة صغيرة ببطءٍ شديدٍ وتوقّفوا.

سرعان ما اكتشف كلٌّ منهم أنّ الاستراتيجية المثلى هي الوقوف دون حراكٍ. الوقوف جامدين سيأتي بالفوز مهما كان. وهكذا صار عندنا فلذات أكبادٍ بعيدين وصامتين ودون حركة، كلٌّ ينتظر الآخر أن يتحرّك قبله.

أراحونا من صخبهم وحركتهم برضاهم واختيارهم. جلسنا وشربنا
الشاي بسلام وأنا أتأمل في الدهاء الطبيعي عند الإنجليز.
تذكرت ذلك اليوم الصيفي والأطفال الجامدين في قعر الحديقة
عندما أعلنت حكومة صاحبة الجلالة على لسان رئيس الوزراء وفي
وسط أزمة تدفق اللاجئين على أوروبا، أن بريطانيا ستقبل عشرين
ألف لاجئ وتمنحهم الإقامة ومساعدات المعيشة وما لذ وطاب لكنها
ستختارهم ممن يبقون في مخيماتهم في الأردن وسوريا ولبنان. عندهم
أشياء طيبة تنتظر من يبقى بعيداً دون حراك.

فاز السبّاكون

سأُحدّث عن السبّاكين لأنفس عن أحقادي بمناسبة فوزهم المدوي يوم ٢٣ يونيو. لا أقصد السبّاكين في بلادنا فهم أناس كادحون ويتقاضون أجورًا معقولة ولا يبتزون. السبّاكون في إنجلترا أغنياء وأسعارهم ابتزازٌ في ابتزازٍ. وصل بهم الفجور إلى حدّ أنني استقدمتُ سبّاكًا قبل عشر سنوات لم يجد الوقت ليعود إليّ لاستكمال قبض أجرته.

ما عنده وقتٌ ليأتي لاستلام ٢٥٠ دولارًا وبיתי يبعد عن مقرّه خمس كيلومترات. طاردته بالمكالمات الهاتفية وكان يتملّص ويسوّف. ثم صارحني بموقفه قائلاً: «وقتي لا يسمح، ولك أن تحتفظ بالمبلغ لنفسك».

لا أدري شيئًا عن الأوضاع المالية للقراء، لكنني مستعدٌّ لأن أسافر مائة كيلومتر لأقبض ٢٥٠ دولارًا. هذا كلامٌ حصل قبل عشر سنواتٍ في ذروة فجور السبّاكين الذي استعر ولم تخمد ناره حتى بدء وفود البولنديين إلى بريطانيا ومنافسة سبّاكيها وبنائيهام ومصليحي التبليط وغير ذلك.

السَّباكة في بريطانيا ليست مهنةً بقدرِ ما هي طريقة تفكيرٍ وضربٌ من السلوك. هي مدرسة أخلاقية منفصلة. كيف يقرّر الإنسان أن يكون سبّاكًا. هذا سؤالٌ وجوديٌّ لا يقلُّ إلغارًا عن رغبة الإنسان في أن يصبح طبيبَ أسنانٍ ليعبث في أفواه البشر الذين لم يؤذوه يومًا.

شخصيًا أنسب إلى السبّاكين المصائب الكبرى. لا أملك توثيقًا علميًا ولكن باستخدام الحدس والغريزة أظنُّ أنَّهم وراء اندلاع الحرب العالمية الثانية واغتيال ولي عهد النمسا والتسونامي وضياح فلسطين.

في أطراف مدينتنا يقع دكانٌ يجتمع فيه السبّاكون. الدكان يبيع مواسيرَ وأنابيبَ وأشياءَ أخرى ما أنزل بها من سلطانٍ. أدخله أحيانًا فيسكتون مثل المتأمرين. أسمع لغطًا من الخارج ولكن ما إن أدخل حتى يسكنوا ويتخاطبوا بالأعين. أظنُّ الدكان محفلهم مثل الماسونيين وفرسان الهيكل. كلُّهم تشي وجوهُهم بالثراء والفجاجة.

هم بشرٌ يؤمنون بأنَّ الذهاب إلى البحر الكاريبي في إجازة هو أمرٌ يُعدُّ من أبسط حقوق الإنسان. لا يشبهون السبّاكين في بلادنا الذين لا يريدون سوى سقفٍ فوق رؤوسهم وثلاث وجباتٍ يوميًا لهم ولأطفالهم.

سبّاكو بريطانيا وجدوا أنفسهم فجأة في مواجهة منافسين بمناسبة الاتحاد الأوروبي فتحركت فيهم روحٌ وطنيةٌ ملكت عليهم أنفسهم -مثل أي نذلٍ- ترجموا الخوف من المنافسة النزيفة إلى مشاعر وطنية. انتبه لهذا شخصٌ رائعٌ منذ قرون، اسمه صاموئيل جونسون. قال جونسون في أواخر القرن الثامن عشر، أو بدايات التاسع عشر: «الوطنية آخر ملاذ للنذل».

وهكذا فُسِّرت المشاعر الخسيسة على أنَّها مشاعر رائعة تذوب في حبِّ الوطن وتدافع عن حياضه، بينما هي نذالة وخوفٌ من المنافسة. وهكذا خرجتْ المملكة المتحدة من الاتحاد الأوروبي وسيُطرَد السِّبَّاكون وبنَّاؤو السقوف الوافدون الطيبون وستعود شرور الأوغاد لا يتحدَّها بولنديٌّ ولا تشيكي.

قد تقولون: «ولكن ليس من الممكن أن يكون نصفُ سكان بريطانيا سبَّاكين». طبعًا لا، لكنَّ السِّبَّاكة كما قلتُ ليست مهنة. هي أسلوبٌ وسلوكٌ وذهنيَّةٌ وخصال. السِّبَّاكُ كامنٌ في الداخل ولو كان اسمه من الخارج نايجل فاراج.

طوط

يقولون: «بين البائع وبين الشاري: يفتح الله»، وهم يعنون أنَّ لا شيء يُلْزِم الإنسان بالشراء. ويستخدم المثل استعارة عن علاقات إنسانية أوسع. يفترق المُحَبَّان فيقول أحدهما للآخر: «بين البائع وبين الشاري يفتح الله»، وهكذا.

ورغم أنَّها عبارة تُوقِف الكلام والجدل لكنَّها خاتمة وليست بداية. هي خاتمة حديثٍ طويلٍ ومباراة ذهنية ونفسية بين الزبون والبائع. اختتام فاصل المساومة الشيق. في العراق نُسَمِّي العملية «المعاملة»، وفي مصر اسمها «المفاصلة». المساومة فعلٌ إنسانيٌّ ومبارزة بين اثنين من البشر. كلُّ يُوظَّف ذهنه ومهارته وفيها فائزٌ أو رضا الاثنين بحلِّ توافقي أي «تعاذل».

الرأسمالية لا تحب هذا، وتفضِّل أن تتمَّ المعاملات التجارية بأسرع وقتٍ. لذا يرتفع حجمُ التبادل على مدار اليوم دون هوادة ولا انقطاع. في الغرب الرأسمالي انقرضت المساومة. والآن صرَّت تشتري كلُّ ما تريد ولا يصدر عن البائع كلمة. كلُّ شيءٍ يمضي بسرعة ولا يصدر عن البائع سوى صوتٍ صغيرٍ يقول «طوط» تتبعه طوط أخرى وأخرى لكلِّ مادة اشتريتها. والصوت يصدر من جهة البائع لا من البائع نفسه: صوتٌ أوتوماتيكي يصدر عن شيء اسمه الماسح الضوئي.

هذه الـ«طوط» مُحمَّلة بالمعاني، فهي تشخّص المادة المشتراة، قد تعني علبة معجون طماطم، وقد تعني زجاجة حليب قليل الدسم. إضافة إلى كلّ هذا، فإنّها تعني أيضًا سعر البضاعة بلا مساومة أو جدال. لا أحد يعارض الـ«طوط». ينصاع الإنسان ويدفع دون نقاش، وفي ظرف دقيقة تنتهي المعاملة التجارية دون مقاومة، والشاري يدفع ويخرج كمن تلقى أوامر من دكتاتور مؤذٍ.

عشتُ في الغرب طويلاً، وانصعتُ كثيرًا لصوت الـ«طوط» الأمر، وعندى حينئذٍ للاحتكاك الإنساني لدى المساومة. عملية الشراء والدفع في ثقافتنا محمَّلة بالحكايات والنوادر والشطارة. فقدتُ جزءًا كبيرًا من مهاراتي في المساومة بسبب البُعد عنها لعقود. وفي زيارتي لبلدان عربية تنكشف قلّة حيلتي أمام أوّل بائع خضارٍ على الرصيف.

كنتُ في القاهرة وكان هناك رجلٌ يبيع المانجة على الرصيف وعنده صندوق مانجة وصندوق فارغٌ قلبه وجعل منه منصّة عليها الميزان. كانت المانجة خارج الموسم قليلًا.

اقتربتُ منه وسألته بكم الكيلو، فردّ بتناقلٍ من يستعد للنزال، وقال بـ١٦ جنيهًا. فقلتُ له: «حسنًا، السعر لا يناسبني» وودّعته، وأردتُ المضي في طريقي. فصرخ البائع إذ استفزّه هذا الخرق للبروتوكول وهذه الاستهانة بالأعراف.

صرخ: «إلى أين أنت رائح؟ أنا قلتُ لك السعر الذي يناسبني، وعليك أن تقول ما يناسبك». حاولتُ التملّص لكنّه أصرّ على أن أقول

ما يناسبني. فقلتُ مضطراً «عشرة جنيهاً». زاد غضبه اشتعالاً وزعق قائلاً: «عشرة جنيهاً يا ظالم، عشرة جنيهاً. هل تريد أن تخرب بيتي ويتسول أطفال في الشوارع؟ هل يرضيك هذا؟».

أكدتُ له أنني لا أريد أن أخرب بيته، ولا أتمنى لأطفاله سوى التوفيق والنجاح ودوام الصحة. وتحركت وهو يصرخ خلفي: «تعال نكمل». المهم، لم أشتري مانجة لكنني فزتُ بحكاية. أحسن من الـ«طوط، طوط طوط».

عالم النساء

عالم النساء هذا عالمنا. تسَيِّدت المرأة وصار تسَلِّمها أعلى المناصب لا يلفت النظر. استوقفني أَنَّ هيلاري كلينتون اضطرَّت إلى أن تُعلن هي لا غيرها أَنَّها أوَّل امرأة في تاريخ الولايات المتحدة تكون مرشحة الحزب الديمقراطي في انتخابات الرئاسة.

اضطرَّت إلى أن تسجِّل الملاحظة بنفسها لأنَّ أحدًا لم يلقِ بالآ إلى هذا التميُّز الفريد الذي لو وقع قبل عشر سنوات فقط لأقام الدنيا. الكلُّ هزَّ كتفه بلا مبالاة، وهذا دليلٌ على أَنَّ رئاسة امرأة لأكبر قوة في العالم حدثٌ اعتياديٌّ لا يستحق التوقُّف عنده، ويعني بالتالي أَنَّ المرأة وصلت إلى نقطة المساواة فعلاً، والعالم لم يُعد ينظر إلى رئاسة امرأة للولايات المتحدة باستهجانٍ أو حتى باستغرابٍ.

وسترأس وزراء بريطانيا امرأة من حزب المحافظين لقيادة بلادها خارج الاتحاد الأوروبي. هذا إضافة إلى أَنَّ ألمانيا، بل والقارة الأوروبية كلها، تقودها امرأة. ولا ننسى اسكتلندا التي باتت مستعدة للاستقلال بقيادة رئيسة الوزراء هناك نيكولا ستيرجن.

وأنا أسجل سعادتي بكلِّ هذا وبوجود كريستين لاجارد على رأس صندوق النقد الدولي. فرحي يعود إلى أنني أتوقَّع انخفاض مستوى الضوضاء الصادرة عن النساء حول العالم عن المساواة. وهي ضوضاءٌ

مستمرة منذ أن ولدت؛ شيءٌ لا ينتهي وفي خلفية كلِّ أيامي مثل وجع
الضرس.

في التسعينيات برز كاتبٌ عمودٍ إنجليزي اسمه فيكتور لويس-
سميث وكان يُحسِّن استفزاز المرأة ويستمتع بأن يكون عدوًّا للنساء
وهدفًا لشتائمهن. أذكر أنَّه كتب يدعو علماء الوراثة وهندسة الجينات
إلى ترك ما في أيديهم والتفرُّغ لإعادة هندسة المرأة جينيًّا، يريد أن
يجعلوا النساء لا يتجاوز طولهن المتر الواحد وجعل رؤوسهن مسطَّحة
من أعلى. كان يرى أنَّ المرأة تستطيع القيام بكلِّ وظائفها وارتفاعها
مترًا: الحمل والولادة والإرضاع ممكنة بسهولة من ذلك الارتفاع. أمَّا
الرؤوس المسطَّحة ففائدتها أنَّها تمنح الرجل مكانًا يضع عليه قَدَحَ
الجمعة أثناء الحديث. في ذروة المطالبة بالمساواة كان حديثُ كهذا
يستفزُّ ويشير عواصف في الرأي العام. اليوم صارت المرأة تضحك من
هذا، هدأت واستعادت حَسَّ النكتة.

ما كان يستفزني في ذاك النقيض المستمر عن المساواة أنَّ المطالبة
كانت لثيمة ومنحازة. كلُّ النساء يطالبن بالمساواة في الوظائف ذات
المردود المالي العالي من إدارة البنوك إلى الوزارات ورئاسة الدول.
كلُّها وظائف تتضمن قصورًا وسياراتٍ فارهة ورواتبَ باذخة.

هناك مهنةٌ يحتكرها الرجال ولم أسمع امرأة تطالب بحظٍّ فيها.
خذوا مهنة جامع القمامة أو الزبال، وهي مهنة يحتكرها الذكور. لم
أسمع امرأة ولو مرة واحدة تطالب بكسر ذلك الاحتكار الذكوري

لهذه المهنة. لم تخرج مظاهرةً نسائيةً واحدة تقول: نريد أن نكون
زبالات نجتهد في جمع القمامة من الفجر. المساواة في رئاسة مجالس
الإدارات ظلّت مطلباً جماهيرياً وكذلك عضوية البرلمانات. دعونا
نستمع بالهدوء لبعض الوقت إلى أن يتذكروا أنّ الباباوات والشيوخ
الكبار رجالٌ وعندها ستبدأ المناحات من جديد.

بالتوفيق

عش حياتك بالتوفيق. لا أعني بالنجاح الفأل الطيب. التوفيق هنا بمعنى الحل الوسط والمواءمة بين خيارين متناقضين دون التعصّب لواحدٍ منهما. قد تبلغ الاختيارات المائة وليس بالضرورة اثنين، ومع ذلك يمكن إيجاد وسط توفيقى.

دون أن نعي، نساوم ونوفّق، حتى في تناول الطعام واختيار قطعة البطاطس التالية لنغرس فيها شوكتنا، فكلُّ ذلك توفيقٌ في توفيقٍ. تكون مسترخياً مستريحاً فتسمع طرْقاً على الباب؛ الاختيار الأوّل أن تستمرّ في جلستك المسترخية، والثاني أن تنهض وتفتح للطارق دون ترددٍ. هنا تجدُ نفسك تقرر أن تستمر في جلستك قليلاً لاختبار حماس الطارق، هل يستمر أم ينصرف. لو استمر ستنهض وتجيبه: هذا حلُّ توفيقىّ ممارسه مع رنين التليفون أيضاً.

في ثلاثية «البحث عن كارلا» لجون لا كاريه، يتوقّع البطل جورج سمايلي أن ينتهي خصمُه كارلا ويقول: «كارلا متعصّبٌ سيدمر نفسه؛ فالحياة لا مكان فيها للتعصّب، نعيش الحياة بالمواءمة».

ولمَن يريد العيش في دعة عليه ألا يصدّق رأياً واحداً إذا كان الرأيان متناقضين، ولكنهما مُقنِعان رغم التنافر الشديد. أنا شخصياً عندما

أشاهد فيلمًا أو دراما تلفزيونية فيها محاكمة، أجد نفسي متفقًا مع الدفاع في أثناء مرافعته إلى أن ينهض الادّعاء العام. أصدّق أنّ المتهم بريء أثناء كلام الدفاع. أسمع الادّعاء العام فاتفق معه وأؤمن بأنّ المتهم هو القاتل لا أحد غيره. يعني حين ينهض المدعي العام ويسوق أدلته أجدني متفقًا معه.

المشكلة هي أنّك إذا قلت لي لا يمكن أن تكون متفقًا مع المدعي العام ومحامي الدفاع معًا سأقول: «أنا أتفق معك»، وهكذا.

وهذه ليست حالة خاصة بالمحاكم. الرجل منّا يجد نفسه متفقًا مع الطرفين المتناقضين إذا نشب نزاعٌ بين امرأتين. في أي نقارٍ بين زوجة الرجل وأُمّه، مثلاً، سيجد نفسه متفقًا مع كلّ منهما. النساء عندهنّ قدرة خارقة على الإقناع حسب وجهة نظرهنّ تفوق ما لدى أكبر المحامين. السرُّ يكمن في أنّهنّ يستطعن بسهولة ليّ أعناق الحقيقة ودون أن يشعرن أنّهنّ يلوين عنق الحقيقة. يعني كل واحدة ستسرد الوقائع وهي واثقة تمامًا من أنّها مظلومة، وأنّها لا تمثّل دور الضحية بل هي ضحية حقيقية.

القدرة على التوفيق وإيجاد مخرجٍ بالملاءمة أعفيا البشرية من حروبٍ كثيرة ونزاعاتٍ شريرة. التوفيق أساسُ المفاوضات. بين حكومة بريطانيا والجيش الجمهوري الإيرلندي دمٌ. لكن الاقتتال توقّف بالقدرة على التوفيق لا بشيءٍ آخر.

وجودُ طرفٍ متعصّب لا يلين يسبّب مجازرَ كبرى. طرفٌ واحدٌ أشعل الحرب العالمية الثانية وقتل فيها ٨٠ مليون إنسانٍ. وليس القرن

الثامن عشر في أوروبا ببعيدٍ، ما كانت تمرُّ سنة دون حربٍ. والواقع العربي الحالي أيضًا ما فيه قدرة على التوفيق، الدبلوماسية كلها قوائمها المواءمة والتوفيق.

مَن يقول إنَّه إمَّا يأكل الرغيف كاملاً وإمَّا يجوع، سيَجوع. نصف الرغيف ليس أمراً سيئاً ويستحقُّ التنازل عن النصف الآخر. تقاسموا وتصالحوا وبالتوفيق إن شاء الله.

أطفال الشوارع وعدّاد التاكسي

في بلادنا تعطي سائق التاكسي خمسة جنيهات أو دنانير، حسب البلد، فيقول لك: «خمسة جنيهات؟ هل تريد أن يبيت أطفال في الشوارع؟» حوارٌ دار في أكثر من مدينة عربية وجعلني أتساءل إلى اليوم «لماذا المبيت في الشارع؟». هل تدفع الجنيهات الخمسة الأطفال إلى المبيت في الشارع؟ وعلى أي أساس وبأي حساب؟

في بريطانيا لا يبيت أطفال سائقي التاكسي في الشوارع مهما كان المبلغ الذي يتلقاه والدهم، وكذلك الحال في دول الاتحاد الأوروبي. لم أزر الولايات المتحدة لكنني واثقٌ أنّ أولاد سائقي التاكسي يبيتون في فراشهم كلّ ليلة بغض النظر عن الأجرة التي يدفعها الراكب.

على أي حالٍ، ظلّت المسألة تؤرقني ثم أعتقد أنني وصلتُ إلى حلٍّ. اليوم يسعدني أن أقاسمكم ما توصّلتُ إليه. أعتقد أنّ أطفال سائقي التاكسي بالذات يُولدون بشيءٍ من التشوّه الجيني الذي يجعلهم لا يحتملون أن يكون فوق رأسهم سقفٌ ويجعلهم شغوفين جدًّا بالنوم في الهواء الطلق.

ولأجل الوصول إلى ذلك اتخذوا من أجرة التاكسي التي يتلقاها والدهم حُجة وذريعة ليخرجوا إلى الشارع ويبيتوا فيه. ذلك التوق إلى الهواء الطلق يجعلهم يسألون والدهم لدى عودته إلى البيت مساءً

عن الأجرة التي دفعها الركاب له، وما إن يقول إنَّ أحدَهم دفع خمسة جنيهاً، حتى يبدؤا استعداداتهم للخروج من البيت واصطحاب بضع مخدات ليناموا في الشارع.

هكذا تتضح العلاقة بين الجنيهاً الخمسة ومبيت الملائكة الصغار في الشوارع. طبعاً التفسير كُلُّه قائمٌ على تصديق سائق التاكسي، وأنا أصدقه. لكنني أودُّ فقط أن أوضح له أنَّ بياتهم في الشارع لا علاقة له بالأجرة وأن أولاده سيقومون بنزعتهم الليلية مهما كان.

لكنني اكتشفتُ مؤخراً أنَّ تشردُّ الأطفال في الشوارع ليس حكرًا على أطفال أصحاب سيارات الأجرة.

في القاهرة يمتدُّ التشوُّه الجيني هذا ليشمل أولاد بائعي الخضراوات والفاكهة وكل شيء. كلُّ من تعطيه فلوساً لشراء شيء ينظر إلى ما قدمته ويقول نائحاً: «هل تريد أن ينام أولادي في الشارع؟».

والغريب أنَّ الآباء هؤلاء لم يألّفوا الوضع ويردّدون قلقهم على الأولاد ومحل مبيتهم بشكلٍ مفجوعٍ ومصدومٍ رغم أنَّ أولادهم يفعلون هذا كلَّ يومٍ.

في مصر هناك ظاهرة محزنة كبيرة تُسمّى «مشكلة أطفال الشوارع». أنا أعتقد أنَّها ليست مشكلةً، وأنَّ هؤلاء الأطفال النائمين في الشارع هم أطفال سائقي سيارات الأجرة الذي تلقى آباؤهم خمسة جنيهاً فقط من الراكب، أو أولاد بائعي الطماطم الذين لم يتلقَ والدهم سوى عرضٍ لشراء كيلو الطماطم بثلاثة جنيهاً.

وممّا يثبت صحة ما ذهبْتُ إليه في هذا التشخيص العلمي هو أنّ
الدولَ والثقافات التي لا يبلغُ فيها أصحابُ سيارات الأجرة ولا بائعو
الخضراوات أنّ أولادهم سيبيتون في الشارع من جرّاء الأجرة المنخفضة
والثمن المتدني، هذه الدول لا توجد فيها مشكلة أطفال شوارع.
ركّبوا عدّادات لتحلُّوا مشكلة أطفال الشوارع.

معارف دافئة ومريحة

سمعتُ رأيًا يقول: «مرَّ على تركي للدراسة خمسة عشر عامًا ولم يصادفني شيءٌ في الحياة يستوجب معرفتي نظرية فيثاغورس. لماذا علّمونا تلك النظرية؟ ولماذا لم يعلمونا ملء استمارات الضرائب مثلاً؟».

نظرية فيثاغورس تقول لنا إنَّ المربع المُنشأ على الوتر يساوي مجموع المربعين المُنشأين على الضلعين الآخرين في المثلث قائم الزاوية، وهي نظريةٌ تتطلّب وضعًا خاصًّا جدًّا لتكون مفيدة، لكنني أرى أنَّها مفيدة دائمًا.

المعارف الأولية لها فوائد عميقة لا تتضح بسهولة لكنّها فوائد موجودة وأساسية. إنّها معارف تتيح لنا أن نكون موجودين في العالم وفي البيئة الإنسانية وفي عصرنا. أنا لم أجد فائدة ملموسة من معرفتي أنّ الشنفري قال: «أقيموا بني أُمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل»، لكنّ هذا البيت العظيم تريحني معرفته، وأذكره وأمتنُّ لمعرفته التي تجعلني أذوّق قيمة الكلمات وكيف تُوظف بشكلٍ مبهجٍ وجميلٍ. كان لي صديقٌ سمينٌ اسمه ضياء. كان يجاهد من أجل أن يفقد شيئًا من وزنه دون عناءٍ. كان كسلانًا لا يطيق الحركة، وفقدان الوزن

يَتَطَلَّبُ الحركة والجهد. قُلْتُ لَهُ يَوْمًا «هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى طَرِيقَةٍ تَفْقَدُ بِهَا
الوزْنَ دُونَ عَنَاءٍ؟» فَرَحَّبَ بِهَذَا وَأَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ. قُلْتُ لَهُ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْلَأَ
الْبَانِيُو (المَغْطَس) بِمَاءٍ دَافِئٍ وَتَسْتَلْقِي فِيهِ وَتَسْتَفْقِدَ وَزْنَ. قَالَ كَيْفَ؟
قُلْتُ سَتَفْقَدُ مِنْ وَزْنِكَ بِقَدَرِ وَزْنِ السَّائِلِ الْمَزَاحِ.

إِذْنٍ مِنْ يَقُولُ إِنَّنَا لَا نَحْتَاجُ قَاعِدَةَ أَرَشْمِيدَسٍ بَعْدَ تَرْكِ الدِّرَاسَةِ؟
القَاعِدَةُ وَاضِحَةٌ وَتَنْصُرُ عَلَى أَنَّ كُلَّ جِسْمٍ، وَمِنْ بَيْنِهَا جِسْمٌ ضِيَاءٍ، إِذَا
غُمِرَ بِسَائِلٍ مَا، يَفْقَدُ مِنْ وَزْنِهِ بِقَدَرِ وَزْنِ السَّائِلِ الْمَزَاحِ. ذَكَرْتُ الْقَاعِدَةَ
وَاسْتَعْدَمْتُهَا لِإِنْعَاشِ آمَالِ ضِيَاءِ الْبَدِينِ بَعْدَ تَرْكِ الدِّرَاسَةِ بِنَحْوِ ثَلَاثِينَ
عَامًا.

تَسْتَوْقِفُنِي بِلَاغَةُ تِلْكَ الْمَعَارِفِ. هُنَاكَ بِلَاغَةٌ حَتَّى فِي جَدُولِ
الضَرْبِ. جُمْلَةٌ سِتَّةٌ فِي سَبْعَةٍ تَسَاوِي اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ بَلِغَةً وَمَوْجِزَةً.
جُمْلَةٌ فِيثَاغُورَسٍ عَنِ الْمَرْبَعِ الْمُنْشَأِ عَلَى الْوَتَرِ بَلِغَةً، وَتَعَلَّمُ بَرَهَانَهَا
يَعَلِّمُنَا الْمَنْهَجَ وَآلِيَةَ التَّفْكِيرِ. كُلُّ دُرُوسِ الرِّيَاضِيَّاتِ وَالْهَنْدَسَةِ الْإِقْلِيدِيَّةِ
تَصِيرُ جُزْءًا مِنْ طَرِيقَتِنَا فِي التَّفْكِيرِ، وَلَنْ نَجِدَ فِي الْحَيَاةِ حَاجَةً إِلَى
النَّظَرِيَّاتِ وَلَكِنْ إِلَى طَرِيقَةِ التَّفْكِيرِ.

دُونَ أَنْ نَدْرِي نَتَأَثَّرُ بِآلِيَّاتِ التَّفْكِيرِ. لَنْ نَجِدَ مَسْطَحَاتٍ أَصْلًا، كُلُّ
مَا نَرَاهُ مَجَسَّمًا. فِي الْغَالِبِ الْحَيَاةُ مَجَسَّمَةٌ وَالْهَنْدَسَةُ الْإِقْلِيدِيَّةُ مَسْطَحَةٌ
ذَاتُ بُعْدَيْنِ. لَكِنَّ الْمَرْأَةَ مِثْلًا تَعْرِفُ الْوَتَرَ وَتَدْرِكُ أَنَّهُ الْأَطْوَلُ فِي مِثْلِ
قَائِمِ الزَاوِيَةِ حِينَ تَطْوِي غِطَاءَ الرَّأْسِ وَتَخْصِصُ الْوَتَرَ لِلْإِحَاطَةِ بِالْوَجْهِ.
كُلُّ «إِشَارِبٍ» مَرَبَّعٍ وَيُطَوَّى إِلَى مِثْلِ قَائِمِ الزَاوِيَةِ فِيهِ وَتَرٌّ يَطُوقُ الْوَجْهَ
لَدَى ارْتِدَائِهِ.

هذه معارفُ تبعثُ إحساسًا بالراحة تضعك في مدارج الصغر
وتلقّي العلم. السهر لاستذكار قصيدة الشنفرى ليس جهدًا ضائعًا بل
تدريبٌ على الذوق. أعرف مؤرخًا عنده ملصقٌ كبيرٌ في غرفته للجدول
الدوري. ينظر إليه كلَّ يومٍ ويرتاح لأنَّ الفلزات والغازات الخاملة في
مواضعها وترتيبها الآخذ في الاعتبار خصائصها ووزنها الذري. وليس
في دراسة التاريخ ما يتطلّب معرفة موقع القصدير من الصوديوم.

فاصل إعلاني

في رمضان الفائت قررتُ الاندماجَ مع الأمة العربية والإسلامية من باب تعزيز الانتماء إلى حشد الصائمين في الشهر الفضيل. كان اندماجًا أقرب إلى الانصهار. التماهي مع الأمة يعني الاستغراق في منتجها الثقافي يومَ لا تنفع مقالات جورج أورويل ولا أطروحات ديفيد هيوم. إحدى علامات الانتماء احتساء الشوربة كلَّ يومٍ في رمضان. رغم معيشتي في المهجر قرابة الأربعين عامًا فلا أزال لم أكتسب الطبع الأوروبي في احتساء الشوربة بشكلٍ يومي أو على الأقل بضع مراتٍ في الأسبوع. لا تزال الشوربة بالنسبة إليَّ شيئًا يخصُّ المريضَ أولاً وعادة تخصُّ رمضان ثانياً.

في بلدي الأصلي حين تقول: «صنعنا شوربة أمس» يقول الناس «لا حول ولا قوة إلا بالله. وماذا قال الطبيب؟»، وفي شهر رمضان لا يعلّقون على الخبر لأنَّ طَبْخَ الشوربة في الشهر الكريم يُعدُّ من نافلة القول.

المهم صرْتُ أحتسي شوربة، والأمر الأهم أنني صرْتُ أنفَرَجَ على مسلسلاتٍ عربية من باب الاستغراق في المشهد الثقافي للشهر. لكن الذي تفرّج عليه صدقًا هو فواصل إعلانية تغمر اللاوعي، وينتهي الشهر وأنت عارفٌ بشكلٍ موسوعيٍّ ماركات زيت الشعر وشاي البجعة.

أما مشاهد المسلسل نفسه فأقضيها مطرقاً ناظراً إلى الأرض مستغرقاً في تفاصيل سجادة غرفة الجلوس في انتظار الفاصل الإعلاني التالي، وهو انتظارٌ لا يطول. وهكذا خرجتُ بحصيلة واسعة ومعرفة كاملة بكلِّ ما يُباع في السوق في دبي مثلاً.

أُستمتعُ بالإعلانات العربية لأنها غير مبدعة وتذكّرني بإعلانات زمن الطفولة في العراق. صريحة وفجّة الإعلانات عندنا. إعلانات مسحوق الغسيل تظهر فيها امرأة تتحسّر وتتنهّد من جرّاء وساخة الهدوم ثم تغسلها فتبدو ناصعة وجديدة ثم تنظر المرأة إلى الكاميرا وتغمز بعينها غمزة معابثة وتقول «تايد وبس».

في إعلانات كهذه تعرف أين أنتَ وتعرف المنتج المُعلن عنه. كانت الإعلانات في أوروبا كهذه بسيطة ومباشرة ومسلية، إلى أن جاء الإبداع. الإبداع هذا جعلنا لا نعرف ما هو المنتج الذي يُروّج له. يعني مصمم الإعلان المبدع يريد أن يقول شيئاً عن ماركة أحذية فلا يجد ما يعبر فيه عن جودة الأحذية غير مشهد دُيّن (نعم اثنين من الدببة) يقفان عند شاطئ نهرٍ ويلطم أحدهما الآخر بسمكة. وينتهي المشهد بفوز أحدهما باللظمة القاضية. أما عن علاقة هذا بالأحذية فله تفسيرٌ واحدٌ هو الإبداع والابتعاد عن المألوف في الإعلان.

هناك إعلانٌ رأيته أكثر من مائة مرة فيه رجلان نحيفان سخيّان يركضان ويحملان أشياءً عجيبة ثم يجلسان ولا يقولان شيئاً. رأيته أكثر من مائة مرة كما قلتُ ولا أزال لا أعرف لأي شيءٍ يروّج الإعلان، وما هو المُنتج.

هذا جزءٌ يسيرٌ من ويلات الإبداع والمخيلة الخالقة. المخيلة
الخالقة في كلِّ مكانٍ حتى في تقسيم أسعار التذاكر وطريقة إبلاغنا
بمواعيد قيام القطارات. ولا أملك سوى أن أبتهل إلى الله أن ينجينا من
المبدعين ويبعد عنا ابتكاراتهم. آمين.

صباح العرب

مثل الاسم الثابت لهذه الزاوية، للعربِ فعلاً صباحٌ خاصٌّ بهم دون شعوبِ الأرض. صباح العرب يستحقُّ الوصفَ والتوقُّفَ عنده. الصباح عندنا وقتٌ من اليوم له مزاجٌ متشائمٌ ومتطيرٌ. يجب ألا يقع شيءٌ مزعجٌ ولو من بعيدٍ وقت الصباح. نتحمَّل الأخبارَ المفجعة والفأل السيئ في كلِّ أوقات اليوم إلا في الصباح.

لو رأيت رجلاً بعينٍ واحدة في الظهيرة لا بأس ولا ضررَ فالإنسان يرى بشراً ذوي عينٍ واحدة، وليس هناك ما يمنع وجودهم فمن أبسط حقوق الإنسان أن يكون بعينٍ واحدة، وأن يراه الناس. ولكن لو رأيته في الصباح ستقول: «اليوم صَبَّحْتُ على أعور» وتتشاءم وتتوقع المصائب وسوء المصير.

تقع أشياءٌ غير طيبة فتقول: «يا ترى على ماذا صَبَّحْتُ اليوم؟» وستبحث عن ذكرى في رأسك وستجدها، أي شيء حتى قطة عبرت الشارع أو جار سعل سعلة غير مريحة أو أي شيء آخر.

أَوَّلَ مَجِيئِي إِلَى أوروپا انتبهتُ إِلَى أَنَّهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فِي الراديو وفي السابعة صباحًا عن السرطان ومسيباته وعلاجه. لا يمكن لإذاعة عربية أن تفعل هذا. الصباحُ وقت التشاؤم لذلك لا نذيع سوى أغاني فيروز أو أغاني محليةٍ تمتلئ كلماتها بالعصافير والزهور ولا بأس من إضافة نحلة ترتشف رحيق الأزهار وعندليبٍ يصدق بالغناء.

أغاني فيروز خافتة ووديدة وتبعث على النعاس والنوم في الصباح. المفروض أن تكون آخر ما يودُّ الناس سماعه بعد الاستيقاظ مباشرة، لكنَّها أَوَّلَ ما نسمعه. تغني فيروز بكسلٍ يبعث على التثاؤب «كيف حالك يا جار لو تعرف شو صار». تسمعها فتعود إلى السرير ولو جلوسًا عند حافته وترجى ارتداء القميص.

الراديو محور الاهتمام في الصباح. وعندما صار التلفزيون يقدِّم برامج الصباح أصرَّ الناس على سماع صوته فقط فجعلوه راديو. مشكلة التلفزيون أنَّه يتعارض مبدئيًّا مع الصباح. التلفزيون يتطلَّب من متابعه أن يكون ثابتًا، والصباح حركة دؤوبة بين تغيير الملابس والإفطار وبعض من كوي الملابس، إن لم يكن هناك دوشٌ وصابون وشامبو وأشياء أخرى. المهم أنَّ الإنسان غير مستقرٍّ وليس مسمرًا في مكانه، لذلك يبطل مفعول التلفزيون، أي يصير راديو سيًّا.

بالمناسبة، سُخِف التلفزيون ينكشف حين سماعه من دون صورة. الأخبار صياغتها ركيكة ومعوجة. كل شيء في التلفزيون معتمد على الصورة، يشاغلك بها.

والغريب أنَّ الصَّبَاحَ ما فيه موضوعٌ حديثٌ لائقٌ. كلُّ موضوعٍ يستحقُّ الكلامَ في بقيةِ أوقاتِ اليومِ يصيرُ مزعجاً وغيرَ لائقٍ في الصَّبَاحِ. تقول لا بُدَّ أن نبدأَ البحثَ عن سيارةٍ جديدةٍ فيقولون لك: «هذا وقت سيارة؟ من الصَّبَاحِ». تقول حذائي صار قديماً يقال «أي حذاءٍ من الصَّبَاحِ؟» حتى لو قلت نشتري رماناً سيعترضون ويزجرونك قائلين: «أين نحن وأين الرمان من الصَّبَاحِ».

لهذا يصيرُ صَبَاحُ العربِ صامتاً لا يسمحُ بتداولِ رأيٍ. نسكت ونتناول الإفطار بصمتٍ لأن لا شيءٌ يليقُ بالصَّبَاحِ. وأعينا ذبلانةً من جرّاءِ أغاني فيروز. برغم كل ما تقدّمَ نقول صَبَاحُ الخير.

العرفان للفاشست وشرطة الحدود

العرفان عاطفة نبيلة، وهي من متطلّبات التحضّر. أوّل ما يلفت النظر في المجتمعات المتطورة هو فضيلة الاعتراف بالجميل. في إنجلترا حين يرتدي الطفل بدلةً أنيقةً أو حين يشاهده الناس يتباهى بلعبة جديدة يقولون له قبل أي شيء «يا لك من طفلٍ محظوظٍ إذ اشترى لك أبواك هذه الملابس الحلوة» أو «هنيئًا لك هذه اللعبة البديعة واشكر أبويك لأنّهما أتاحاها لك».

تربية كاملة تقوم على العرفان في مجتمعٍ يشعر بالامتنان لكل شيء. تتأخّر الحافلة عن موعدِها ثم تأتي فيقولون يا لنا من محظوظين لأنّ عندنا حافلاتٍ وينسون أنّها تأخرت. وقد رأيتُ ناسًا لا يزالون شاكرين على وجود ماءٍ في الحنفيات أو ثلاجاتٍ في البيوت.

أنا من الذين يحبّون العرفان كعاطفة أصيلة. لذلك أشعر بالامتنان للفاشست في المجتمعات الغربية وحرس المنافذ الحدودية لأنّهم يسدّون إلينا خدمة لا ينكرها إلا الجاحد. بسبب هؤلاء لا يزال عندنا شبابٌ. طاقاتهم مهدورة؟ نعم لكنّهم موجودون ولو في المقاهي. ولا يفسر وجودهم بيننا سوى أنّهم ممنوعون من دخول الدول الغربية بسبب

شرطة الحدود، إضافة إلى ما يتسامعونه عن صعوبة الحياة هناك بسبب العنصرية والفاشية. ولولا هاتان الظاهرتان لَمَا بقي لدينا شبابٌ.

تصوَّروا لو أنَّ بريطانيا وألمانيا وفرنسا أعلنت أنَّ الشباب العربي، والشباب من كلِّ دول العالم الثالث، مرحبٌ بهم، يحلُّون أهلاً ويطأون سهلاً، وهناك لافتاتٌ تقول مرحباً في وطنكم الثاني بلجيكا، هل سيبقى عندنا شبابٌ؟ أَلن يكون في مجتمعاتنا فجوة وجرحٌ غائرٌ؟ مساحة مجتمعية عمرية كاملة من ١٨ إلى ٣٦ عامًا ستختفي. ستذهب الطاقة والخصوبة ولن يبقى لدينا سوى العجائز.

وهذا وضعٌ لا يمسُّ الدول الفقيرة أو المتعثِّرة اقتصادياً وحسب. فالشباب في بلدان أحسن حالاً مثل تركيا يريدون الذهاب إلى الغرب. الإحصائيات تشير إلى أنَّ أكثر من ستين في المائة من الشباب في تركيا لا يطيقون بلادهم ويريدون أن يهاجروا. هذا في تركيا، فما بالك بالشباب في مصر أو تونس مثلاً.

الآباء ينصحون ويثيرون، والأمهات يبكين ويتضرَّعن، والشبان لا يأبهون. الهجرة الهجرة. لكن لا ينبغي أن نياس فهناك من يُبقي شبابنا بيننا. هناك سلطات الدول التي يريدون الهجرة إليها. سلطاتٌ عاتية عندها عدَّة وأدواتٌ من عصيٍّ وقيودٍ وأسلحة وكلاتٍ وأسلاكٍ شائكة ومكهربة، بل ولديهم قواربٌ وأساطيلٌ كلها تعمل ليل نهار لإبقاء شبابنا في مجتمعاتنا. هؤلاء الساهرون على توازن مجتمعتنا يستحقون الشكر والعرفان.

وفي حالة الامتنان هذه يجب ألا ننسى المحرّك الأساسي لكلّ هذا
الصدّ والبطش بالوافدين. الفاشيون في الغرب هم الأساس في كلّ
هذا. يحملون حكوماتهم على إرجاع الشباب المهاجر إلى مجتمعهم
الأصيل، وينظّمون مسيرات الكراهية والمشاعر. وهم لا يتوقّفون عند
المطالبة المثابرة على ردع المهاجرين واللاجئين بل يذهبون إلى أبعد
من ذلك: يحيلون حياة من أفلت ودخل دولهم جحيماً وتحريقاً. لكلّ
هؤلاء نعبّر عن شكرنا وامتناننا. آمالنا معلّقة بالفاشست.

عن النتائج والبطيخ

ها قد أوشك شهر أغسطس على الانتهاء وهو شهرٌ غريبٌ. فيه وفرة البطيخ وفيه أيضًا نتائج الامتحانات. والدنيا منشغلة بموضوع النتائج أكثر من البطيخ. ربّما لأنّ البطيخ أمرٌ يُعدُّ من نافلة القول وظهوره مؤكّدٌ ليس فيه مفاجآت بخلاف نتائج الامتحانات.

الهوس الذي يعترينا بالنتائج سببه أنّنا أمة تضع كلّ إمكانياتها في خدمة النتائج. حتى التعليم بحدّ ذاته ليس مهمًّا بقدر النتائج. هات نتيجة جيدة ولا يهم إن كنت قد تعلّمت أم لم تتعلّم.

المعرفة ليست مهمّة والنظام التعليمي قائمٌ على تحقيق نتائج طيبة. موقع الإنسان في المجتمع والوظيفة والإبداع كلّها بنت النتائج. ويغيب عن الأذهان أنّ الامتحان المدرسي يقيس ويفاضل معرفة معينة. لا يوجد امتحانٌ يفاضل بين النذل والشهم ولا الجواد واللئيم بل مجرد معارف وبالتالي هو ليس كلّ شيء. والحرص على الإتيان بنتائج طيبة وازدراء التعليم نفسه يفضيان إلى ظاهرة خطيرة: الغش.

الغشُّ ينبع بالضبط من الحرص على النتيجة لا على الحقيقة والمعرفة. والتعلُّق بحُسن النتيجة حالة عامة تصيب ثقافة كاملة. يرسل الطبيب بمرضى السكري إلى المستشفى لإجراء تحليلٍ ويوصيه بأن يأكل كما يأكل كلَّ يوم ويروح للتحليل، ليرى قدرته على تحمُّل الكربوهيدرات. لكنَّ المريض ابنٌ مخلصٌ لثقافة النجاح في النتائج يمتنع عن تناول أي نشويات وسكريات، بل يصوم عن الأكل تمامًا، كي لا تظهر في دمه آثار الكربوهيدرات.

بهذا «ينجح» في الاختبار ولو على حساب صحته بحجب المعرفة عن الطبيب. المهم أنه «ينجح» ولو أنَّ المسألة ليست نجاحًا وفشلًا. وهذا أيضًا غشٌّ ولكنه مهلك.

اليوم تطوّرت أساليبُ الغشِّ في الامتحانات، ودخل عامل الهاتف الذكي على الخط. ثورة الاتصالات أحدثت العجبَ في وسائل الغش. أوراق امتحان تُصوّر وتُبعث ثم يجري استلامُها مصحوبة بالحلول. وهناك حلولٌ تصل إلى الطالب في موقع الامتحان وتكون منبئةً من جهة خارجية، وهناك مصائب أخرى لا أفهمها ولا أستطيع سردها.

بسبب الغش تُقام مناحةٌ كبيرة وتقريعٌ لا ينتهي ومقالاتٌ في الصحف لأنَّ الطلاب الغشّاشين سيئون استخدام ثورة الاتصالات والهواتف الذكية. وهذا احتجاجٌ يُشبه كثيرًا احتجاج قوى الأمن من أنَّ الإرهابيين يستخدمون الإنترنت لأغراضهم الشريرة بحيث تنصبُّ اللعناتُ على التقنيات. نفس الحرقة في المقالات والتحليلات التي تشتكي من مكرِ الإرهابيين وخيبتهم لاستخدامهم التقنيات في الشرِّ.

التقنيات مُتاحة للشرير والخير على حدٍّ سواء. عندما تشتقُّ الدولة طريقًا سريعًا بين البصرة وبغداد، مثلاً، لا يجوز أن تشتكي من أنَّ المهرَّبين صاروا ينتقلون بسرعة أكبر بين المدينتين. لا يمكن أن تفتتح طريقًا يمرُّ به الناس الطيبون فقط. ولا يمكن لسامسونج أن تبيع جالاكسي وغيره من هواتفها الذكية لذوي النوايا الطيبة فقط.

الهاتف الذكي متاح، والإنترنت متاحة والشكوى يجب أن تتوجَّه إلى من يغش ويخرَّب وليس للهاتف والكمبيوتر. استرسلنا في الكلام عن النتائج ونسينا البطيخ، فمعذرة.

من يملك شيئاً رقمياً؟

الأسبوع الفائت قرأتُ خبراً مبهِجاً حقاً. يقول الخبر إنَّ الإحصائيات تُظهر أنَّ هناك تراجعاً في مبيعات الكتب الرقمية وتقدُّماً في مبيعات الكتب المطبوعة ورقياً.

هذا شيءٌ عظيمٌ، وأرجو أن يكون مقدِّمة انهيار الكتب الرقمية وكلِّ الأشياء الرقمية. الناس بدأت تنسى كم هو عظيمُ الكتاب كاختراعِ دفتان وورقٍ بحجمٍ يمكن أن تأخذه معك في الفراش يحمل أفكاراً هائلة وتجارب ومعارف كلها مبذولة أمامك للتناول متى تشاء حتى وأنت مندسٌ تحت الأغطية في السرير.

المهم في الأمر أنَّ العصر الرقمي أنتج كتابةً لا وجود لها في العالم الحقيقي. هناك كُتَّابٌ يكتبون لمواقع «إنترنتية»، يكتبون المقال وينشرونه ويقرأه الناس دون أن يكون له في أيٍّ من هذه الأطوار ملمسٌ ولا له وزنٌ وأبعادٌ. حياة المقال كلها هائمة في فضاءٍ غريبٍ ولا تتجسَّد. الرحلة من عقل الكاتب إلى قراءة القارئ ثم نسيان المقال كلها في فضاءٍ موهومٍ.

أعتقد أن لا أحد يمتلك كتاباً رقمياً أو أسطوانة موسيقى رقمية اشتراها من النت ودفع ثمناً لتحميلها. خطر لي مؤخراً أنك تملك الشيء حين تستطيع أن تتصرّف به كما تشاء، ويمكنك أن تعيره أو تهديه للأصدقاء أو حتى تبيعه. يعني كَوْن الكتاب أو الأغنية عندك لا يعني أنّها ملكك. لأنّك لو أعرت الكتاب لصديق يعني إرساله إلكترونياً، وهذا يجعل منك لصاً حقيراً أو قرصاناً منحطاً، كذلك ستشعر وهكذا ستعاملك الشركة التي باعتك الكتاب على أي حال.

الإعارة والإهداء تقليدان راسخان في ثقافتنا، ولم أجد لهما امتداداً في أوروبا. الناس هنا يشترون كتبهم، يجد أحدهم كتاباً عندك ويعجبه فيروح يشتريه ولا يستعيّره منك. بسبب هذه الثقافة تبدو أرقام التوزيع والبيع عندنا هزيلة حقاً. سمعتُ مرة أنّ نجيب محفوظ نفسه لا يبيع أكثر من خمسة آلاف نسخة من أحدث رواياته في بلده مصر ذات التعداد السكاني الهائل.

كان عندي صديق يزورني وعائلته، وعندما يصلون بيتنا يروحون فوراً إلى غرفة المكتبة يختارون كُتُباً يحملونها ويعيدونها بعد شهرٍ أو شهرين ليأخذوا غيرها. وهكذا عندما يقولون إنّ رواية نجيب محفوظ الجديدة بيع منها خمسة آلاف فاعلم أنّ عددَ مَنْ قرأها يبلغ خمسين ألفاً أو حتى مائة ألفٍ بالإعارة المكثّفة.

ربما لذلك تنتشر القرصنة ويذيع تحميل الكتب والموسيقى بالمجان، أي بالسرقة. لا أظنّ أنّ أحداً يحب أن يدفع ثمنَ شيءٍ ولا يمتلكه. ثم إنّ الكتب جميلة ولها غلافٌ وفيها خطٌّ مذهبٌ أحياناً

وتصاميم. الكتب لها وجهٌ، يُدعى الغلاف، ينبئ عن شخصيتها مثل وجه الإنسان. ولأنّها موجودة حقاً ولها حضورٌ فيزيائيٌّ، يمكن رصفها على رفوفٍ لتشكّل مكتبة.

المكتبة شيءٌ جميلٌ، وتحتلُّ حائطاً كاملاً كقطعة أثاثٍ جميلة فيها خشبٌ وأبوابٌ زجاجية، بينما لكي ترى ألفَ كتابٍ رقمي يجب أن تفتح الكمبيوتر لترى أشياءً بحجم الطابع البريدي شكلها لا يسر.

شقاء الحفلة

الكلُّ يشتكي من البطالة وانعدام الوظائف. والكلُّ يعني بشكواه الوظائف ذات الرواتب الشهرية أو الأسبوعية. لكن الوظائف من حيث كونها وظائف موجودة دائماً في كلِّ مجتمعٍ أو فعالية بشرية. وهناك، مثلاً، وظيفة دائماً تجد من يشغلها وهي شقاء الحفلة، وهناك طبعاً وظيفة أبله القرية وخضراء الدمن وسمراء من قوم عيسى إلى آخره.

ففي كلِّ حفلة هناك شقاء ترتدي فستاناً أحمر أو أسود لبرز شقتها، وغالباً ما يكون ضيقاً وقصيراً ويندرج ضمن مجهود صاحبه في الوصول إلى الهدف الأسمى: الحصول على فستانٍ بشراء مترٍ واحدٍ من القماش. وهذا هدفٌ نبيلٌ ضد الإسراف ومع حماية البيئة ويحمي الاقتصاد الوطني بشكلٍ أو بآخر.

والحق أنَّ السعي نحو التقتير في استخدام القماش للتُّورات والفساتين ليس حكراً على شقراوات الحفلات. أعرفُ الكثيرَ من البنات ممن يؤمنن بالإيجاز في الملابس وكلهن يرفعن شعار «يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق»، وهو مثلٌ عربيٌّ وقورٌ ومحترمٌ. وتقول العرب أيضاً «البلاغة الإيجاز».

وعندما نقول شقراء لا نعني شقراء «شرعية» بالضرورة. والشقراء الشرعية هي تلك التي شعرها أشقر بالولادة ولا تضع ألواناً أو بيبروكسيد، والشقرة غير الشرعية هي السائدة في الوطن العربي لأسبابٍ جينية لا علاقة لها بالمبدأ أو الدين أو المعتقد السياسي. هنا تجب الإشارة إلى أنَّ شقراوات العرب غير الشرعيَّات شقرتهنَّ في لون الشعر وليس في ملمسه ورقته وانسراحه، لذلك تراهنَّ ورؤوسهنَّ مكلَّلة بلبدة مثل الأسد.

الشقراء معروفٌ عنها أنَّها بلهاء، وهناك فصيلةٌ كاملةٌ من النكات تُسمَّى نكات الشقراوات. وبسبب سمعة البلاهة هذه تزداد جاذبيتهن في أعين الرجال. الرجال يحبُّون المرأة البلهاء. ومن المُحزَن حقًّا أن نرى فتياتٍ ينفقن الجهد والوقت في طلب الثقافة والذكاوة. من يأبه للمولعة بفاجنر أو محبة لبرامز في الحفلة؟ المرأة التي تتحدَّث عن تعويم العملة، ما لها وما عليها، ينفر منها الرجال ويتحلَّقون حول الشقراء البلهاء التي تحب الزهور المطرَّزة على الأغذية والوسائد، وتحب أيضًا العصافير المزقزة والأرانب البيضاء والفراشات وهي ترتشف رحيق الزهور.

الذي يحرك رغبات الرجال في البلهاء هو أنَّها ممكن التغيرير بها. دائماً أحسستُ أنَّ هذا سببُ إغراء مارلين مونرو التي طالما بدت سهلة الانقياد وساذجة وتضحك بسهولة وتبكي بسهولة أيضاً.

شقراء الحفلة وظيفةٌ لا يُعلن عنها أحدٌ لكنَّها مشغولة دائماً. هذه وظائف خالدة يتم الاتفاق على شغلها ضمن تفاهات طبيعية. هي من الأمور الجميلة التي تقع بالحظ والإيماء. لم أقرأ يوماً إعلاناً صادراً عن

قرية ما تطلب فيه أن يتقدّم من يريد لمنصب أبله القرية، ومع ذلك تجدُ أبله في كلّ قرية جالسًا على سياج بيتٍ أو مزرعة يلوك عودَ قشٍّ استلّه من حصيرة كما يجدر بأي أبله.

هذا موسم الحفلات في المنازل في أوروبا. لن أقصد أيّ حفلة لكنني واثقٌ أنّ هناك شقراء يتحلّق حولها الرجال المدعوون في كلّ حفلة، ومواصفاتها تظلّ الشقرة والفتان الصغير والضحك المتصل.

سؤال مهم^{٢٦٤}

يقول المصريون باستياءٍ أفهمه وأؤيده «هو السؤال حُرْم؟»، وهذا تمسُّكٌ بحق الإنسان الأبدي في السؤال. وهو حقٌّ لا يكفله الدستور للأسف. والسؤال كما نفهمه هو مجرد عبارة يُقصد بها طلبُ معلوماتٍ لا أكثر. تتلقَّى سؤالاً عن موقع موقف الأوتوبيس أو موعد مغادرة القطار أو كم الساعة الآن، فتجيب وينتهي الموضوع دون «نرفزة» وأعصابٍ. نتلقَّى يومياً العشرات من الأسئلة ونجيب وينتهي الأمر. هذا طبعاً عن الأسئلة العادية وليس الأسئلة الفلسفية الوجودية.

الناس يحبُّون الأسئلة البسيطة والعادية جدًّا، ويكرهون سبر الأغوار والأسئلة المتعلقة بأسرار الوجود. أذكر مرَّة أنَّ سيدة عجوزًا اقتربت مني في موقف الحافلات وقالت: «هل لي بسؤالٍ صغيرٍ؟»، فقلتُ لها بأريحية، وكنتُ في مزاجٍ معابثٍ، «بل أسأليني سؤالاً كبيراً إن شئت». أسأليني من فضلك عن سرِّ الوجود، أسأليني عن المآل والمصير وعن معنى الحياة». فقالت: «لا، شكرًا، أريد أن أسأل فقط عن الحافلة رقم خمسة، وهل تذهب إلى المستشفى العمومي؟» ولا شك أنَّ الأسئلة التي تبرعتُ بالإجابة عنها بدتْ سخيفة. فهي ترى أنَّ وجود الإنسان بدأ بآدم وحواء وينتهي بالجنة أو النار ولا جديد في الحكاية.

إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ أَسْئَلَةً سَخِيفَةً نَتَعَرَّضُ لَهَا كُلُّنَا. فِي الْمَطَارَاتِ يَسْأَلُونَكَ سَوْأَلًا لَا إِبْدَاعَ فِيهِ وَلَا تَجْدِيدَ وَيَتَكَرَّرُ بِشَكْلِ مُقَيَّتٍ، يَسْأَلُكَ مَوْظَفٌ اسْتِلَامَ الْحَقَائِبِ وَتَوَازِيْعَ الْمَقَاعِدِ عَلَى مَتْنِ الطَّائِرَةِ «هَلْ حَزَمْتَ حَقَائِبَكَ بِنَفْسِكَ؟»، فَتَكُونُ الْإِجَابَةُ عَادَةً «نَعَمْ حَزَمْتُهَا بِنَفْسِي مُضْطَرًّا، لِأَنَّ الْخِدْمَ فِي إِجَازَةِ هَذَا الْوَقْتِ مِنَ الْعَامِ». وَيَمْضِي هُوَ فِي عَمَلِهِ يَسْأَلُ هَذَا السَّوْأَلَ الْعَشْرَاتِ مِنَ الْمَرَّاتِ كُلِّ يَوْمٍ، وَالنَّاسُ يَجِيبُونَهُ بِأَنَّهُمْ حَزَمُوا حَقَائِبَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ.

وَعَرَفْتُ أَنَّ هُنَاكَ سَوْأَلًا أَكْثَرَ سَخَفًا عَلَى الرَّاغِبِينَ فِي الدَّخُولِ إِلَى الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْإِجَابَةِ عَنْهُ. السَّوْأَلُ سَخِيفٌ، وَالْمَثَلُ الْإِنْجِلِيزِيُّ يَقُولُ: «أَسْأَلُ سَوْأَلًا سَخِيفًا تَلَقَّ رَدًّا سَخِيفًا». فِي اسْتِمَارَةِ الدَّخُولِ بِالْمَطَارِ هُنَاكَ سَوْأَلٌ يَقُولُ «هَلْ فِي نَيْتِكَ الْمَشَارَكَةَ فِي أَعْمَالِ إِرْهَابِيَّةٍ فِي أَثْنَاءِ الزِّيَارَةِ؟». وَأَذْكَرُ أَنَّ صَحَافِيًّا بَرِيطَانِيًّا كَتَبَ فِي الْاسْتِمَارَةِ مَجِيبًا «الْمَشَارَكَةَ فِي الْإِرْهَابِ هُوَ الْهَدَفُ الْوَحِيدُ مِنَ الزِّيَارَةِ». فَالْقَوَا الْقَبْضُ عَلَيْهِ وَاحْتِجْزَوْهُ سَاعَاتٍ فِي الْمَطَارِ. حَاوَلْ أَنْ يَشْرَحَ لَهُمْ أَنَّ السَّوْأَلَ السَخِيفَ يَسْتَدْعِي جَوَابًا سَخِيفًا، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا وَأَخْضَعُوهُ لَتَحْقِيقِ صَارِمٍ وَطَوِيلٍ. وَأَنَا أَعْتَقِدُ أَنََّّهُمْ لَمْ يَحْمِلُوا جَوَابَهُ مُحْمِلَ الْجَدِّ وَإِنَّمَا أَرَادُوا أَنْ يُوَدَّبُوهُ.

فِي الْعَالَمِ وَظَائِفُ كَثِيرَةٌ لَأَنَاسٍ شَغْلُهُمُ الْإِجَابَةُ فَقَطْ عَنْ أَسْئَلَةٍ، وَهُنَاكَ دَوَائِرُ مَعِينَةٌ اسْمُهَا الْاسْتِعْلَامَاتُ. هَذِهِ الدَّوَائِرُ مُنْبَثَّةٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَوْظَفُوهَا مَدِينُونَ بِمَعِيشَتِهِمْ لِرَغْبَةِ الْإِنْسَانِ فِي الْاسْتِعْلَامِ. وَفِي مِصْرَ

هناك عشرات الآلاف من مجيبي الأسئلة في مدخل كلّ عمارة سكنية واحد يُقال له «البواب».

يجلس البواب عادة في شبه إغفاء، وتقرب منه وتقول: «في أي دور شقة الدكتور رياض عبد القادر؟» مثلاً أو عبد الرحيم عيسى، إن شئت، فيجيبك دون أن يفتح عينيه «الرابع» ثم يردفها بالقول «أي خدمة ثانية؟» على اعتبار أنّ نطق كلمة «الرابع» كانت خدمة أولى.

على قدر المقاس

لستُ الأوَّل ولن أكون الأخيرَ في التنبيه إلى أهمية القياس وأن تكون الأشياء والمنطوقات على قدر قياسها أو مقاسها. هناك شيءٌ مضحكٌ في الأشياء التي تخرج عن قياسها. لذلك تقول الحكمة «لكلِّ مقامٍ مقالٌ». الأشياء تكون مضحكة عندما تكون أكبرَ من المقاس وليس أصغر. البنت الصغيرة تبدو مضحكة حين ترتدي حذاءً أمها ذا الكعب العالي وتحاول أن تخطو به، وكذلك الولد في جاكته أبيه وهو يريد أن يبدو صارماً وقوراً (ومقولة لن أعيش في جلباب أبي مسألة أخرى تماماً، لذلك اقتضى التنبيه).

ونعرف أنَّ الإمام أبا حنيفة كان يضحك من جارٍ له يعمل كَنَّاسًا لا قيمة اجتماعية له يتغنَّى في الليل بأبياتٍ للعرجي ويترنم متوقفاً خاصة عند البيت الذي يقول «أضاعوني وأي فتى أضاعوا / ليوم كريمة وسداد ثغر» وهو لا يعدو كونه كَنَّاسًا وهذا ما أضحك أبا حنيفة.

ومن الزعم الكبير الذي يتجاوز المقاس بدرجاتٍ ما أحبه ويضحكني في طفلة صغيرة اسمها ليلي وهي حفيدة صديقٍ عزيزٍ جداً تُوفي الآن. أحبُّ حفيدته لأنَّها حفيدته ولأنَّها ذكيَّةٌ وجميلة ومضحكة

بزعمِها الكبير الذي هو أكبر من مقاسِها بكثيرٍ حتمًا. كانت في الرابعة من عمرِها وتقول «زمااااااااااا وأنا صغيرة...» هكذا، وتمط الألف في كلمة «زمان» تعبيرًا عن الزمن السحيق الذي انقضى منذ كانت صغيرة. ولا تنسوا أنَّها في الرابعة.

وفي القاهرة رأيتُ محلَّ فول وطعمية بائسًا كان قد أغلق أبوابه أمام الجمهور الكريم لإعادة الطلاء والترميم وتغيير قدور طبخ الفول و«طاسة» قلي الطعمية. رأيتُه وقد افتتح المحلَّ ثانية، وأعلن عن الحدث السعيد بلافتة كبيرة تقول «إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا»، وتحت الآية الكريمة مكتوبٌ بخطِ النسخ «في عهد الرئيس حسني مبارك تمَّ بعونِ الله...» كأنَّه يُعلن افتتاح دار أوبرا لا أقل أو جسرٍ جديدٍ أو أي مشروع عمراني جبارٍ.

وحين أكون في القاهرة أحرص أيضًا على زيارة محلَّ طرشي ومخللات في منطقة شبرا بسبب ادعائه الذي يزيد على مقاسِه بمراحل. هنا تجدر الإشارة إلى أنَّ القاهرة موطنُ الفخامة في الادعاء، ففي منطقة العتبة الشعبية المزدحمة هناك محلُّ اسمه هارودز. وهو محلُّ يبلغ من السوء وقلة القيمة أنَّ المحلات اللندنية ذات السمعة لن تفكرَّ أبدًا في مقاضاة أصحاب هارودز العتبة.

محل الطرشي والمخللات الذي أقصده اسمه «طرشي العلمين» وعنده لافتةٌ تقول: «نقدّم أفخر أنواع الطرشي لزبائننا الكرام بغض النظر عن انتمائهم العرقي أو الطائفي أو توجهاتهم السياسية». هكذا تكون الإنسانية وهكذا هو التسامح. معك فلوس وتريد طرشي، بسيطة،

اطمئن إلى أنَّ هناك في القاهرة من سيبيعك خيارًا مخللاً بغض النظر عن
توجهاتك السياسية أو دينك.

ولم ينس أصحابُ المحل أن يضعوا لافتةً أخرى أبرز تقول «الدين
لله والوطن للجميع» وهذه قِمة التسامح. إذا كنتَ مسيحيًا أو مسلمًا أو
إيزيديًا وتريد خيارًا مخللاً فقد أخبرتك أين تذهب.

حق المعرفة

يختلف تقييمنا للمعرفة لكنه رغم الاختلاف تقييمٌ بدرجة جيّد جدًا أو امتيازٍ. ونحن بالذات شعوبٌ تحترم المعرفة ونطلبها، بل ونسمي أولادنا «عارف» متمنين أن ينشأوا كذلك. وكلّما ازداد تقديرُ المعرفة ازدادت محاولات تصنُّع العلم وتزييف المعرفة.

المعرفة الجميلة والجيدة يضيع طعمُها وتصبح مدعاة خجلٍ متى ما استعرضها الإنسان. من يعرف أشياءً وأشياءً عليه بالكتمان وعدم الاستعراض. كلُّنا نمتلك معرفة لكننا لا نظهرها خجلًا. وبهذا تكون المعارف، إلى حدٍّ ما، مثل الملابس الداخلية: كلُّنا نرتديها ولا نظهرها لأحدٍ.

لا يوجد أسخف من استعراض المعرفة من غير داعٍ حقيقي. أذكر مرّةً أنّ سبّاكًا جاء عندنا لتتدارس إمكانيّة وضع سخان ماءٍ جديدٍ في المطبخ. راح السبّاك يقيس المسافة بين حوض الغسيل والموقع المُقترح للسخان. كان يقيس بصمّتٍ ويتعمّد إصدار همهماتٍ تدعو إلى التساؤل. لم ينتظر طويلًا فقال بصوتٍ خفيضٍ منذرٍ ومخيفٍ: المسافة أكثر من مترٍ ونصف المتر.

ثم أضاف وعلامات التلغيز ما زالت واضحة «هل تعرف ماذا سيجري لو كانت المسافة تقلُّ عن مترٍ ونصف المتر؟». فقلت «لا داعي لأن أدري؛ فالمسافة أكثر من مترٍ ونصف المتر كما تقول». لكن هذا لم يردعه؛ فالرغبة في استعراض المعرفة عارمة وقد ملكت عليه أمره. وراح يشرح المواصفات التي لا تعينني.

شخصيًا أعرفُ أشياء كثيرة لكنَّك لن تجدني يومًا ماشيًا أردد جدول الضرب بشكلٍ مسموعٍ ليعرف القاصي والداني أنني أعرف جدول التسعة. لن أقولَ أبدًا للجالس إلى جنبي في حافلة النقل العام «سعة في تسعة تساوي أربعًا وخمسين» وأضيف قائلًا «في حين أن تسعة في تسعة تساوي واحدًا وثمانين». ولن أقول للمارة أسماء كواكب المجموعة الشمسية بدءًا من الأقرب إلى الشمس إلى الأبعد عنها، ولا أعرض على أحد في السوبر ماركت أن أشرح له أبياتًا من معلّقة طرفة بن العبد.

لكنَّ المُزعج حقًا هو أن تسمع معرفة مغلوطة. تسمع شرحًا كثيرًا يقوله عربٌ في لندن عن الإنجليز وطبايعهم وهم لا يعرفون شيئًا حقًا وحياتهم خلوّ من الإنجليز. أذكر أن مواطنًا عراقيًا «عارفًا» بطباع الإنجليز كان في صالة انتظار القادمين في مطار هيثرو، وكنتُ أزجي الوقت بالاستماع إلى ما يعرضه من معلوماتٍ على عراقيين آخرين يبدو أنَّهم أحدثُ منه عهدًا في إنجلترا.

وظهر رجلٌ واصلَ لتوّه من ألمانيا يحمل حقيبة كتفٍ فقط، واضح أنَّه ممن يذهبون إلى ألمانيا للعمل صباح الإثنين ويعودون عصر الجمعة. كانت بانتظاره امرأة تحمل طفلًا. توجه الرجل إليها وقبلها

بخفةٍ وقَبْلَ الطفلِ وهو يقول «هلو دارلنج». هنا هاج العراقي العارف وراح يشرح «شفتم؟ هؤلاء هم الإنجليز. هذا الرجل لم يرَ زوجته منذ عامٍ ولم يرَ طفله... وحيدَه وكلُّ ما يفعله: هلو دارلنج، لا عاطفة ولا حنان». وهنا بلغ به الانفعال ذروته وهو يصرخ «أين الدموع؟»، والذين حوله يطَيِّبون خاطره وهو لا يهدأ، فتركته لفجيئته وصوته عالقٌ في أذني إلى اليوم: «أين الدموع؟».

صراع الحضارات

أحب أن أحيطكم علماً بأني لم أكل دجاجاً منذ قرابة الأسبوع. والسبب أنني صرْتُ أتهَيَّب من الدجاج وأحترمه ولا أجرؤ حتى على مخاطبته فضلاً عن أكله. ولأفسّر هذا التحوُّل الخطير: على صفحات هذه الصحيفة التي بين أيديكم وقبل خمسة أيام كان هناك خبرٌ في نفس هذه الصفحة، الأخيرة، يقول إنَّ هناك دراسةً حديثةً تؤكدُ أنَّ الدجاجات ذوات عقولٍ، وأنَّهنَّ يفهمن الرياضيات ويسعين لإقامة مجتمعٍ فاضلٍ متحضّرٍ. وأنا لا أتجرأُ على مخاطبة علماء الرياضيات. لا يمكن أن أتخيَّل أنني أكل نيوتن أو أينشتاين أو ستيفن هوكنج. وما يقولونه عن الدجاج في التقرير يجعلني لا أجرؤ على مخاطبة الدجاجة، ناهيك عن أكلها.

لا ننسى أنَّ التقرير يتحدَّث عن الدجاجة دون غيرها. المخلوقة التي تتلفَّت طول عمرِها ولا يركز رأسُها ولو لثوانٍ. نفس المخلوقة التي لا تستطيع أن تركز في خطٍّ مستقيم ولو لخطواتٍ، بل تجري عشوائياً وفي كلِّ الاتجاهات، مما يغري الأطفال بالجري خلفها وهي تركز وتقوق وتحاول أن تطير ولا تقدر. دماغها لا يستوعب فكرة أنَّها

لا تطير. جَرَّبَ الطيران منذ طفولتيها وللمئات من المرات، وما زالت «عبقرية الرياضيات» هذه لم تفهم.

العلم له رهبة، والمعرفة كذلك وأنا أوَّل من تصيبه رهبة من المعرفة وحتى من الحجم والوزن؛ أذكر أنني اشتريت بطيخة كبيرة في القاهرة ذات صيفٍ، كان وزنها نحو عشرة كيلوجرامات، وكانت لها هبة، وسَعَتْ لها مكانًا في الثلاجة ورفعتُ أحد الرفوف من أجل إقامتها. لكنَّ البطيخة ظَلَّت في الثلاجة أيامًا وأنا أهابها ولا أقرُّبها، وأخاف منها ولا أجروُّ على أن أطعنها بسكينٍ وأشَقَّها وأستخرج أحشائها وأكلها.

هكذا، لا يمرُّ عامٌ أو بضعة أشهر دون أن تطالِعنا الصحف ووسائل الإعلام بنبأ عن اكتشاف الذكاوة والرقى والتقدُّم لدى هذه الكائنات أم تلك؛ القنفذ يؤلِّف قطعًا موسيقية، والجرذ موهوبٌ في لعب البوكر، والذباب حاذقٌ في قراءة الطالع.

وبما أنَّ هذه الكائنات متحضِّرة، فإنَّ لها مشكلاتٍ وجودية. وأنا أشغل نفسي وأتفاعل مع مشكلات الآخرين وهمومهم، وبهذا يُضاف إلى مشكلات البشر مشكلات الضفادع والذباب والذبابير وكلُّ أبناء الحضارات الراقية، وما أكثرها.

لكنَّ المشكلة الحقيقيَّة تصيب الموارد الغذائيَّة؛ التقرير عن الدجاج سدَّ شهيتي للدجاج، وقبلها لم تعد الإنسانية تأكل الحوتَ لِمَا يُقال عن ذكائه ورقته. رغم أنني لم أشهد في حياتي حوتًا يقول شعرًا أو يؤلِّف سوناتا أو يجيب عن أبسط سؤالٍ في الحساب. فتأمَّلوا ماذا ستكون

عليه أحوالنا الغذائية إذا ثبت أنَّ الخروف حسَّاسٌ وباني حضارة والبقرة مثقفة، ماذا سنأكل؟

وهناك مزاعمٌ تتردَّد عن أنَّ النمل عنده مجتمعٌ متميِّزٌ ومعقدٌ، وكذلك النحل، ويمكن الذباب أيضًا. فقط أريد أن أسأل من يرى مجتمع النمل متميِّزًا: هل ترى أنَّ المجتمع الفاضل يقوم على أن يحمل أفرادُه قطعًا من الطعام ويصطدم أحدُهم بالآخر كما يفعل النمل. وهل عندما تهاجم الدبابير الذباب فهذا صراعٌ حضاراتٍ؟

رائحة قلبي الوطن

هناك شيء اسمه الحومة. الحومة هي الموطن، بتوصيف الطائر الذي يحوم في دوائر لا تنتهي عند دبرته، وتُسمى أيضًا الدومة. والأشياء لها حوماتٌ ودوماتٌ. لا يهْمُنَّا كُلُّ الأشياء ولكن يهْمُنَّا اليوم شيءٌ واحدٌ: الفلافل التي لا تطير لكن لها حومة. لها نطاقٌ ولها ميدانٌ والوطن العربي يمكن تقسيمه إلى بلدان الفلافل وبلدان اللا-فلافل.

وبهذه المناسبة نذكر أنَّ كُلَّ شيءٍ يمكن تقسيمه وفق أشياءٍ عديدة. كنّا: الراحل نجيب المانع وأنا، نقسّم الإنسانية إلى بشرٍ قرأوا بروست وآخرين لم يقرأوه. وفي يومٍ آخر تجِدنا قسّمنا الإنسانية إلى صنفٍ يَعْلَمُ فواصمَ الكهرباء في لوحِتها وآخر لا يفعل. هناك فعلاً من يكتب جنب الفاصم، صفة الفاصم تعني فاصم إضاءة الدور الأرضي أو فاصم قوابس الدور العلوي. ونقسّم البشرَ يوماً آخر إلى هؤلاء الذين يسلقون البطاطس قبل قليها وأولئك الذين يقلّونها دون سلق، وهكذا.

الوطن العربي يمكن تقسيمه فلافلياً دون اللجوء إلى الجغرافيا وإطلاق اسم «ذات الفلافل» على بلدان المشرق العربي مع مراعاة أنَّ الطعمية ضربٌ من الفلافل. في مجتمعات الفلافل يجري التعامل مع

الأكلة بشكلٍ خاصٍّ دون أن يقصدَ الناسُ ذلك أو يتعمّدوه. هي طعامٌ تُنَسَج حوله الأقاويل والقصص والتباهي بجودة الفلافل في كلِّ منطقة. وهي طعامٌ لا يطبخه أحدٌ في البيت لأنّه يتطلّب زيتاً كثيراً فيؤتى به من خارج البيت أو يؤكل في الخارج.

محلات الفلافل تحمل اسمَ صاحبها ومؤسسها وطابخ الفلافل فيها. الفلافل الجيدة تُنتج من محل «أبو ربيع» أو «أبو وليد» ومن ليس له أطفالٌ عليه أن يخترع اسم ولدٍ أو لا يفتح محلّ فلافل. يجب أن يكون صاحبُ المحل أبا أحدٍ ما. وهي أماكن صاخبة وليست رومانسية، ولا يوجد مطعمٌ فلافل اسمه «الشموع» مثلاً.

وسمعتُ في مدح أحد باعة الفلافل في اللاذقية من زبونٍ متحمّسٍ «أبو ربيع لا يصنع الفلافل ويبيعها من أجل المكاسب المادية الفانية». وهذه المرة الأولى والأخيرة التي أسمع فيها عن محلٍّ تجاريٍّ مفتوح ليس من أجل المنفعة المادية. لكنّها الفلافل.

الطريق بين دمشق وبيروت يقطع الجبل. الطرق الجبلية لا تُشقُّ من لا شيء لكنّها دائماً تطوّرٌ لطريق شقّته حوافر الخيل والحمير منذ عصورٍ سحيقة. في هذا الطريق الوحيد بين حاضرتين مهمتين هناك انعطافة حادة في الطريق تشبه الكوع لحدّتها أسموها «كوع أبو ياسمين».

في هذا الطريق ذي التاريخ الذي مرّ به الفاتحون والخلفاء والملوك والسلاطين منذ الإسكندر المقدوني هناك جزءٌ واحدٌ يحمل اسم إنسان. سألتُ عمّن يكون أبا ياسمين، وماذا يميّزه عن الإسكندر أو عبد الملك

ابن مروان فقيـل لي «أبو ياسمين هذا كان صاحب محلّ فلافل لم يعد موجوداً الآن. امممممم فلافله طيبة».

هذا المحل يُضاف إلى القائمة العجيبة من المحلات الجيدة التي فرضت اسمها وموقعها، فقد كانت في العراق رسائل تُبعث معنونة إلى وزارة الدفاع مقابل «لبن أربيل».

الكذب الصادق

الصدق في الكذب يصعب تعريفه. يكفي أن نقنع أن هناك كذباً فيه مقداراً من النزاهة والإخلاص، وأن هناك صدقاً فيه مقادير من الخبث والاحتياَل والزيف.

مناسبة الحديث هي أن الانتخابات الأمريكية في أوجها كان بها مرشَّحان متنافسان رئيسيان وكاذبان كما هو متوقَّع وعاديٌّ في السياسة. لكنَّ الجمهورَ حكم على أحدهما بالكذب ولم يحكم على الآخر، أو أنَّه أدرك كذبه لكنَّه تقبَّله، فالاثنان كذَّبهما واضحٌ. ولعلَّ الناسَ قبلت كذب أحدهما، وهو الذي فاز واسمه دونالد ترامب كما تعرفون، لأنَّه كذبٌ نزيهٌ.

وهناك فرقٌ حقيقيٌّ بين أن تصدِّق شيئاً وأن تغفر لقائله. يعني الكذب النزيه هو كذبٌ واضحٌ ولا نصدِّقه لكنَّنا لا نبالي ولا نعاقب أو حتى نعاتب قائله. ترامب هذا قال كلاماً كثيراً كله كذبٌ لكن كان فيه شيءٌ من الطفولية والنيَّة الحسنة، في حين كانت غريمته هيلاري كلينتون تكذب كذباً طفيفاً لكنَّه لئيمٌ ويخدمها من طرفٍ خفيٍّ. الجمهور اختار الكذب الفاجر على الكذب الذكي اللئيم. حين يكون الكذب فاجراً يصير غير مؤدٍّ.

الكاتب الأمريكي بل برايسون يذكر صديقاً له في طفولته. هذا الولد كان يزعم ويقسم بصدق أن أخاه الأكبر أكلته حشرات ضارية وأنت على كل جسمه ولم يبق منه سوى الرأس. ويقول إن العائلة لا تزال تحتفظ بالرأس في صندوق القبعات وإنها تخرجه من الصندوق كل ليلة ليتفرج الرأس على التلفزيون. هذه كذبة فاجرة ولذيذة ونقبلها لأننا نتمنى أن تكون حقيقة. ما أجمل أن يكون هناك رأس يتفرج على التلفزيون ويقيم في صندوق القبعات.

كان عندي صديق يكذب بفجورٍ وأحب كذبه. يكذب بصدقٍ وبكل جوارحه ابتغاء وجه الكذب لا غير ودون منفعة. رأسه يوجعه فيقول بطني يوجعني، هكذا دون أدنى فائدة. ومن جرّاء معرفته اكتشفت أن لدينا رد فعل غريزيًا في تلمس الأعداء للآخرين. صديقي هذا يقول، مثلاً: «البارحة زرتُ أصدقاءً وانهارت بي شرفتهم وسقطتُ في الشارع». وهو قد دخل يسعى على قدميه دون أثرٍ للسقطه. فأسارع إلى رمي طوق النجاة قائلاً لعل شقتهم في الطابق الأول، فيرد صاحبي مصرّاً على أن تكون كذبتُه فاجرة تماماً «لا.. هم في الطابق العاشر».

وما دام هناك كذبٌ صادقٌ فهناك صدقٌ كاذبٌ. وكلنا سمع الحكمة التي تُنقل أحياناً على أنها حديثٌ شريفٌ، والتي تقول «كذب المنجمون ولو صدقوا».

يحضرني الآن نموذجٌ صارخٌ على الصدق الكاذب قاله لي مفكرٌ عربيٌّ ومثقفٌ كبيرٌ رحل الآن ولكنه لا يزال مؤثراً وكانت هناك جائزة أدبية تحمل اسمه. قال لي حقيقة لكنها صدرت عنه بأشع من الزيف.

قال المفكرُّ الراحل: «هل تعلم أننا، أنا وبيكاسو، لم نلتقِ أبدًا؟» وكأنَّه يتوقَّع أن يُصدِّم السامع ويقول «يا رجل، قل كلامًا غير هذا. مستحيل، لا أصدق». لكني لم أقل شيئًا؛ فقد كنتُ منشغلًا بتأمل الحقيقة التي هي أكثرُ زيفًا من الكذب.

هل تعرفون اسم شارعكم؟

فجأة ودون سابق إنذارٍ تتغيّر أسماء الأشياء. عاشت البشرية عصورًا زاهية لا ينقصها شيءٌ وهي تقول بومباي، مثلاً. لا أعرف أحدًا تضرّر لأنّ هناك مدينة بهذا الاسم في الهند. وفجأة صار علينا أن نقول مومباي. كان اسم بومباي موفقًا جدًّا، ألّفناه وارتحنّا له وانتهى، لكن عبث فوضوي الأسماء لا يتوقّف.

نشأت في بغداد، في العراق الجمهوري والناس تشير إلى شارع الكفاح على أنّه شارع غازي. واضحٌ أنّ الكفاح هو الاسم الجمهوري لشارع سُمّي باسم الملك غازي في العهد الملكي. الناس لا تفارق المألوف بسهولة، وهذا جيّد ولا اعتراض عليه، فالوفاء جميلٌ.

زرتُ القاهرة في مطلع التسعينيات من القرن الماضي، وفرحتُ بالتمشّي في شارع فؤاد. كلُّ الناس تسميه شارع فؤاد رغم أنّ اسمَه تغيّر منذ العام ١٩٥٢، أي منذ أكثر من أربعين عامًا إلى ٢٦ يوليو، وهو تاريخ تنازل فاروق عن العرش ومغادرة مصر. الشعب لا يحمل وفاءً للملك فؤاد ولا لابنه الملك فاروق لكنّ الإخلاص كلّهُ والوفاء للاسم. فليس سهلٌ التخلّي عن اسم.

لندن هذه فيها عشرات الآلاف من الشوارع. تلاحظ أن ليس عندهم شارع ونستون تشرشل. عشرات الآلاف من الشوارع تحتاج إلى أسماء ولكن ليس هناك شارعٌ معروفٌ باسم رئيس الوزراء المرموق. ربما يكون هناك شارعٌ مغمورٌ باسمه، ولكني لا أعرفه. ونحن نتحدث عن تشرشل، الشخصية المهمة جدًا والملهمة جدًا، على الأقل بالنسبة إلى بريطانيا. والغريب بالنسبة إلينا أن صورته ظهرت على ورقة نقدية للمرة الأولى منذ شهوٍ وأثار ظهورها استهجانًا، واضطرَّ البنك المركزي إلى القول إن تشرشل حائزٌ على جائزة نوبل للآداب أيضًا وليس مجرد زعيمٍ سياسيٍّ.

في بلادنا الدولة توزع أسماء الشوارع مثل النياشين وأنواط الشجاعة. ضابطٌ يستشهد في معركة يصير هناك شارعٌ باسمه. الناس لا تحبُّ هذا العبث. ليس استخفافًا بالشهداء والبارزين بل لأنَّ الاسم لا بُدَّ أن يكون ذا دلالة. في إنجلترا هناك شوارعٌ كثيرة في كلِّ مدينة وقرية اسمها شارع الكنيسة لسببٍ واضحٍ وبسيطٍ هو أن فيه كنيسة أو أنه يؤدي إليها. وهناك شارعٌ اسمه لندن في مدنٍ كثيرة، ويُطلق هذا الاسم على الطرق التي تؤدي إلى لندن، فيصير شارع لندن هو طريق لندن حقًا.

في أكثر من عاصمة عربية هناك شارعٌ اسمه شارع الكهرباء، هذه تسمية يطلقها الناس وليست للسلطات يدٌ فيها. في هذا الشارع تقع مصلحة الكهرباء التي يدفع فيها الناس قائمة أو فاتورة الكهرباء. ومن المؤكَّد أن السلطات تُطلق عليه اسمًا آخرَ لشخصية تاريخية أو قيادية

حالية أو اسم أي علمٍ آخر، لكنَّ الناسَ تدفع فاتورة الكهرباء في هذا الشارع، فيصير اسمه شارعَ الكهرباء، شاءت السلطات أم أبت.

ربَّما لهذا السبب لا يعرف ناسُنَا الأسماء الرسمية للشوارع. إصرار السلطات على الأسماء غير الوظيفية يجعل المجتمع يأخذ مهمَّة تسمية الشوارع على عاتقه، يُطْلَق عليها فيما بعد أسماءٌ ذات معنى ودلالة.

أعطني سوناتا بيانو

عندما كان ولدي صغيراً كنتُ أرسله إلى النوم بحكاية. كنتُ أستمتع بتلك الساعة من اليوم حيث لا رقيب على خيالي سوى طفلٍ في الرابعة. فأروح أؤلّف وأمثّل وأختلق مؤثراتٍ صوتية وبصرية لإثارة الجمهور المؤلّف من متفرجٍ واحدٍ عمره، كما قلت، أربع سنواتٍ وتعوزه المهارات النقدية ويسعد بأي شيء. وأنا أحب هذا النوع من الجمهور وأتمنى أن أقدم ما لديّ دائماً إلى متلقين مُمتنين.

في أثناء إحدى الحكايات قلتُ إنَّهم «هرعوا إلى التلفزيون وطلبوا الطبيب» وبينما كنتُ أقول هذا أدركتُ سبّابتي في الهواء كمن يرسم نصفَ دائرة تعبيراً عن إدارة قرص التلفزيون. لاحظتُ أنّ ولدي راح ينظر بحيرة عمّا أفعل: السّبّابة تلفُ وتدور وترسم أنصافَ دوائر، لماذا؟ انتبهتُ حينها إلى أنّ ابني مولودٌ في التسعينيات؛ ولم يرَ تلفوناً ذا قرصٍ يديره طالبُ الرقم بسبّابته.

التلفون القديم ذو قرصٍ جميلٍ وله حضورٌ. وزنه نحو كيلوجرام ويمكن أن تقتل به أحداً وتكسر رأسه. بل ويمكن أيضاً أن تقتل أحداً خنقاً بالسلك الواصل بين السماعة وجسم التلفزيون. هناك جرائمٌ قتلٍ

كثيرة نفّذها القاتل بالتليفون، في السينما على الأقل. التليفون الآن، وخصوصاً ما يُعرَف بالهاتف الذكي، تافهٌ جدًّا ولا يتجاوز وزنه المائة جرام. جرّب أن تقتلَ أحدًا بالآيفون. لا وزن مؤثّرًا عنده، وما به سلكٌ للخنق ولا حافات حادة ولا شيء.

ثم إنَّ التليفون القديم كان يعطيكَ فرصًا للتعبير عن الذات لم تُعدّ متاحة مع الآيفون والأندرويد. التليفون القديم يتيح لك أن تغلق الخطَّ بغضبٍ وتنفس عن غيظك، كما نبهني صديقٌ أوّل أمس. يعني تستطيع أن تصفق السماعَة كمن يردُّ الباب بوجه رجلٍ يطرده بغضبٍ. التليفون «الذكي» لا يتيح لك سوى لمس الهاتف برقة وعدوبة وحتى حين تكون غاضبًا فائرًا من محدثك يتعيّن عليك أن تمسح بلطفٍ ونعومة على صفحة الهاتف كمن يزيح خصلة شعرٍ نافرة من وجه حبيبته. التليفون القديم كان يمتصُّ شيئًا من غضبك بأن تعيد السماعَة إلى مهدّها بحركة قاسية صاخبة، الهاتف الحديث يزيد من غضبك بإجبارك على الانتهاء من حديثٍ غاضبٍ باللمسة الحنون لإنهاء المكالمَة.

هذا كلّهُ ولم نصل بعد إلى مسألة الرنين. التليفون كان له رنينٌ يصدر عن جرسٍ داخله. وهو رنينٌ رتيبٌ ومعروفٌ ولا يشبه رنينَ الباب أو جرس الإنذار. وهو ملازمٌ للتليفون حتى يومنا هذا، نقول «أعطني رنّة» أو «رن لي» في حين أنّ الهاتف الحاد الذكاء هذا لا يرن وليس به جرسٌ. به مقطوعاتٌ موسيقية لا تُعدُّ ولا تُحصى. هل تقول لصاحبك «أعطني سوناتا البيانو رقم ٢٣ في مقام فا الصغير لبيتوفن غدًا لتذكّرني؟»، بدل «أعطني رنّة ونبهني».

وليت الأمر يقتصر على سوناتات البيانو ليتهوفن أو غيره، فقد
قرأتُ لشخصٍ ما في السعودية أنه كان في مكتبة وسمع فجأة أنشودة
«نحن غرابا عك عك» من فيلم هجرة الرسول، وتبين أن النشيد الجاهلي
رنة هاتفٍ.

هتلر ابن نكتة

هذه أوقاتٌ صعبة. قلقٌ وتربُّصٌ وخوفٌ هنا في بريطانيا وربما في أجزاء العالم الأخرى. لا عجب إذن أن تُظهر الإحصائيات الأخيرة ارتفاعاً واضحاً في مبيعات مجلة السخرية الأولى في بريطانيا واسمها «برايفت آي». الوضع في بريطانيا قلقٌ إلى حدِّ الضحك. باختصارٍ شديدٍ، رئيسة الوزراء تيريزا ماي، التي لم تتحمَّس يوماً لترك الاتحاد الأوروبي بل وكانت تريد البقاء في الاتحاد، تواجه البرلمان داعية بحماسٍ إلى ما لا تريد، أي إلى الخروج من الاتحاد. ومن جهة أخرى توافق المعارضة الحكومة رغم كونها معارضة ورغم كونها تريد الخروج حقاً لكنَّها معارضةٌ محكومة بالاصطفاف مع الحكومة.

الوضع مجنونٌ كما ترون. ولعلَّ هذا يفسِّر صعود مبيعات الصحافة التي تنظر إلى كلِّ هذا وتضحك بدلاً من أن تتأزَّم. هذه آلية يدركها الشعب المصري، أكثر شعوب العرب ضحكاً، دون فلسفة وتحليل. هكذا بالسليقة يضحك المصريون وعندما تسألهم: لماذا تضحكون؟ يجيبون بعمقٍ مذهلٍ وبسيطٍ: من غُلِبنا. وهذا صحيحٌ تماماً.

نظام عبد الناصر كان يمتلك وسائلَ تأديبية قوية جداً، وكان الوضع الاقتصادي جيِّداً لكنَّ الوضع الاستهلاكي سيئٌ للغاية. والأخير هو

الذي يهْمُ الجمهور. ورغم قسوة النظام عرفت مصر عصرَ كوميديا عجيباً لكنّها كوميديا هامسة.

يقال إنّ أزهى عصور النكتة في أوروبا كان في الثلاثينيات من القرن الماضي في برلين. كان الجو مكفهراً مخيفاً منذراً، وكان الضحك صاخباً، وسط كلّ هذا ظهر هتلر وبقيّة الحكاية مألوفة. يمكن أن نقول دون أن نُرمَى بالجنون إنّ هتلر أنجبته الضحكات.

كان الكوميدي الراحل روبن وليامز في عصر جورج بوش الابن وحمقه وكوارثه التي لا تنتهي يقول: «من قال إنّ النكتة ماتت؟! النكتة حيّة تُرزَق وتعيش في البيت الأبيض». ولدى الإعلان عن فوز ترامب لم يجد المثقفُ العاقلُ مخرجاً من الخوف على مستقبل البشرية، وأصبح شخصٌ غير متزنٍ يصل إلى هذا القرب من زر التحكّم في أكبر ترسانة نووية، سوى الضحك. كلّ العقلاء وجدوا أنفسهم يقولون: «سنضحك كثيراً. إنّهُ رئيسٌ مسلٌّ على الأقل».

يقول التاريخ إنّ هنري الثاني الملك الصارم البطاش، الذي شهد عصره ازدهاراً لإنجلترا في القرون الوسطى، كان يتفادى البطش بالضحك.

القرون الوسطى جميلة لأنّ مكونات الطبخة التي هي الدولة موجودة كل على حدة. يعني بدل شوربة العدس ترى البصل وزيت القلي والعدس البرتقالي المنقوع شيئاً من الشعرية أيضاً. في القرون الوسطى هناك العرش والكنيسة والنبلاء والجيش كل على حدة وليس مدمجاً على هيئة دولة.

المهم، كانت المعركة بين البلاط والكنيسة في أوجها إذ دخل
راهبٌ على الملك وهو في مجلسه ووسط نبلائه وقال بصوتٍ عالٍ
وواضحٍ مخاطبًا الملك: «لا سلام ولا تعظيم لواحدٍ مثلك؛ لَصٌّ من
سلالةٍ لصوص ومغتصبٌ للعرش ويستحق الجَلْدَ والتعزير في ساحة
عامة شأنه شأن أي لَصٍّ منحطٌ». بُهت الجميعُ وتعلّقت الأنظار بالملك.
صمت هنري قليلاً متدبراً أمره. وبعد لحظاتٍ أطلق ضحكةً
مجلجلة فضحك الجميع.

لست أدري

نحن الآن في عام ٢٠١٧ وبهذا تكون قد مرّت تسعون عامًا على صدور ديوان الجداول لإيليا أبو ماضي. الديوان صدر عام ١٩٢٧ وفيه قصيدةٌ أسماها الطلاس. وقد بلغ إعجاب العرب بها أن عبد الوهاب لحنها وقدمها في فيلمٍ في الأربعينيات. لكنّ شهية الجمهور لم تشبع فأعادوا تقديمها يغنيها عبد الحليم حافظ هذه المرّة في فيلم الخطايا في الستينيات. ويبدو من سياق الفيلم أنّ القصّة وُضعت خصيصًا ليغني عبد الحليم لحنَ ما اختاره عبد الوهاب من قصيدة الطلاس التي يعرفها الجمهور باسم «لست أدري» أو «جئتُ لا أعلم من أين».

لا تزال القصيدة مثيرة إلى يومنا هذا، وتثير لغطًا بعد مرور قرابة القرن. اكتشفتُ أنّ سرَّ ولع الجمهور المتجدّد بهذه القصيدة هو أنّها مكوّنة من تساؤلاتٍ وألغازٍ لا يعرف الشاعر لها جوابًا. هي منظومة من رباعيات شطرية تقفل كل رباعية شطرية عبارة «لست أدري». كلنا نهوى الأسئلة التي لا إجابة لها، وتظل معلقة على أنّها من طلاس الكون. وأنا عندي ثلاثة طلاس لا ترد في القصيدة لكني أطيل التأمل فيها.

اللغز الأول أفكّر فيه كلّ ليلة قبل أن أذهب إلى الفراش وفي لحظات تنظيف الأسنان بالفرشاة. اللغز هو: هل رأى أحدكم أنبوبة معجون أسنانٍ منتهية وفارغة تمامًا؟ أنا لم أر أنبوبة منتهية. هي شيءٌ غريبٌ كلّما تعصرها يظهر أنّ فيها معجونًا. وقد سألتُ كلّ من أعرفه: هل انتهت أنبوبة معجون الأسنان عندك؟ وأتلّقى الإجابة ذاتها وهي أنّ الأنبوبة يظلّ فيها معجونٌ طالما هناك من يعصرها. الأنبوبة تفرز وتفرز ونحن نعصر ونعصر إلى ما قدّر لنا. قد تقولون إنّ هذا اللغز الكوني تافهٌ وليس بمستوى أسرار المآل والمصير التي يذكرها إيليا أبو ماضي. أتفق معكم لكنّه لغزٌ كونيٌّ على كلّ حالٍ.

اللغز الثاني يأتي كلّما ركبتُ قطارًا. أنا أحبُّ القطار وأعتبره أحسنَ وسيلةٍ للسفر. لا أعرّض على القطار، لكنّ اللغز هو أنّ القائمين على الرحلة يقولون للركّاب وجهة القطار بعد أن يغلقوا الأبواب ويبدأ القطار حركته ولا مخرج هناك. يعني تنغلق الأبواب الهيدروليكية الجبّارة التي تشبه بوابات سفن الفضاء في أفلام الخيال العلمي، ثم يأتي عبر المكبرات صوتٌ يقول: «هذا القطار متجهٌ إلى بورنموث»، مثلاً. وقد يصدف أنّك تريد أن تذهبَ إلى ريدينج وركبت القطارَ الخطأ. هنا تأتي المعلومة لتغيظك وتنكّد حياتك فقط حيث لا تستطيع أن تفعل شيئًا. لماذا يعلنون عن وجهة الرحلة بعد إغلاق الأبواب وتحرك القطار؟ لست أدري، كما يقول إيليا أبو ماضي.

الطلسم الثالث هو أنّ عددًا من الدول، من بينها بعض مناطق الولايات المتحدة، تنفّذ أحكامَ الإعدام بحقنٍ المحكوم بكوكتيل من

السموم على رأسها السيانيد. الحقنة تردي متلقيها ميتاً في غضون ثوانٍ. كل هذا لا اعتراض عليه ولا احتجاج ولا لغز هناك. السؤال هو أنهم حين يحقنون إنساناً ليقتلوه في غضون ثوانٍ، لماذا يستخدمون إبرة معقمة؟ لست أدري.

المبهورون بالقرن الماضي

من الخير للإنسان ألا ينبهر. الانبهار فيه شيءٌ ينقص من قيمة المنبهر. الذكي من يستطيع أن يخفي انبهاره ويبدو متماسكًا باردًا غير متأثر حتى يُقال عنه «شايف وعايِف»، رأى وسمع الكثير ولم يعد يهزُّه مشهدٌ أو يشدُّ انتباهه خبرٌ.

أعرف ناسًا كثيرين يجيدون تصنُّع عدم الانبهار، وهذا جيّدٌ وفي ميزان حسناتهم. وهناك طبعًا قلةٌ من المنبهرين الذين يمضون في الحياة متعجّبين ومندهشين من كلّ الأشياء، ويتصرّفون مثل القطط والأرانب البريّة في الليل. القطط لا ينتهي انبهارها بكلّ شيءٍ. وكلّما كان هناك ناسٌ ينقلون أثاثهم من سكنٍ إلى آخر تجدون قطة تتفرّج مأخوذة بفكرة خروج طاولة الطعام إلى الشارع والفراش على الرصيف بانتظار سيارة النقل.

لم أر في حياتي بشرا ينقلون أثاثهم دون أن أرى قطة تتفرج مشدوّهة تتابع العملية بتركيزٍ كي لا يفوتها مشهد ثلاثة البيت التي طالما رأتها منتصبّة شامخة في المطبخ وهي الآن أفقية ويحملها رجلان في الشارع. شيءٌ عجيبٌ.

أما الأرناب البرية في الليل فهي درسٌ وموعظةٌ وتحذيرٌ من شدة الانبهار لأنَّ الاندهاش يقتلها وفق قاعدة «ومن الاندهاش ما قتل». عندما ترى نورًا قادمًا والمفروض أن يكون مبتدلاً مثل نور سيارة تقف مشدوّهة إلى حدٍّ أنَّها تتسمَّر في مكانها وحينذاك تموت دهساً فهي لا تملك حتى الركض بعيداً عن النور القادم، فالدهشة تملِّكها حتى إنَّها تفقد إحساسَ البقاء والحفاظ على الذات.

لكنَّ الانبهار الكبير الذي أَلَمَّ بالإنسانية جمعاء ولم ينبُج منه سوى قلائل معدودين هو ما حصل عام ٢٠٠١. ذلك العام كان مطلع قرنٍ جديدٍ كما تعلمون. وهو قرنٌ ابتداءً عام بدايته. هذا ليس من نافلة القول فما كل القرون تبتدئ في بدايتها.

القرن العشرون لم يبدأ حتى عام ١٩١٧ سنة الثورة البلشفية التي جاءت بالانقسام الأيديولوجي الذي صار سمة القرن ذاك. قرننا هذا يبدو أنَّه سائرٌ في اتجاه أن يكون قرن الإرهاب ومكافحته وقد تفضَّل بن لادن وصنع لنا بداية للقرن تقع في بدايته، أي عام ٢٠٠١.

على أي حالٍ، وقع ما وقع ووجدنا أنفسنا في قرنٍ جديدٍ. لكنَّ الأغلبية تولَّتْهم حالة اندهاشٍ بالإنجاز بحيث ملك القرن الجديد عليهم أمرهم وصاروا يتصرَّفون وكأنَّهم قد عاشوا قرنين، وصار الجميعُ يشير إلى التسعينيات مثلاً بالقول «التسعينيات من القرن الماضي» وكل عقدٍ من القرن العشرين لم نبلغه صار يُشار إليه على أنَّه من القرن الماضي.

المفروض أن نبلغ ثلاثينيات هذا القرن لكي نشير إلى عشرينيات القرن العشرين على أنَّها عشرينيات القرن الماضي وليس عشرينيات

القرن الحالي التي تجاوزناها أيضًا. لكن الحاصل الآن ونحن في عام ٢٠١٧ أننا نقول في ستينيات القرن الماضي وكأننا تجاوزنا ستينيات القرن الحالي.

في هذا شيء من الانبهار الرخيص. هذا شيء يشبه قول المصريين «في عهد الملك فاروق الأول» ونحن نعرف أن هناك فاروقًا واحدًا خُلِعَ عن العرش في الخمسينيات «من القرن الماضي».

الراديون

التلفزيون يدعو إلى الاستقرار والجلوس الثابت. الراديو لا يتطلَّب أن يتسمَّر الإنسانُ أمامه لیسْمعه لذلك صار أداة الإعلام الأولى في الصباح. محطات التلفزيون كلها تُبثُّ في الصباح لكنَّ الإنسان في الصباح متحرِّك، يغسل ويحلق ويكوي ملابس ويبحث عن جوارب نظيفة، أضف إلى ذلك مطاردة فلذات أكبادنا لإلباسهم لباس المدرسة فضلاً عن الإفطار وتحضيره، وهكذا.

الصورة في الصباح تذكِّر بيت الحارث بن حلزة في معلقته «من منادٍ ومن مجيبٍ ومن تصهال خيلٍ خلال ذاك رغاءٍ». لكنَّ الناس صاروا يستخدمون التلفزيون في الصباح أيضاً دون أن تنظر إليه؛ يعني يجعلونه راديو، وأصحاب القنوات يدركون ذلك فجعلوا برامج الصباح راديوية لا حركة فيها ولا صور بل ناسٌ جالسون يتكلمون.

الغربون أكثر وفاءً للراديو منَّا. هم أكثر وفاءً للمخترعات القديمة منَّا على العموم. ذلك، ربَّما، لأنَّ لهم يداً وعندهم استثمارٌ في المخترعات. استثمروا فيها بمعنى استثمروا جهودهم وعقولهم في إخراجها. الإنجليز ما زالوا إلى اليوم يتفرجون على القطار بإعجابٍ وقد مرَّ على قطار ستيفنسن قرابة الثلاثة قرونٍ.

الراديو أحدث هزة اجتماعية أكبر من تلك التي صنعها التلفزيون أو الكمبيوتر أو الهاتف الذكي. أسلوب السمر في المقاهي مثلاً تغير، ويرصد نجيب محفوظ في «زقاق المدق» كيف أن صاحب المقهى يطرد الشاعر الذي يسهر الناس على حكاياته وربابته بسبب وفود الراديو.

في البيوت صارت العوائل تسمع أصواتاً قادمة من بعيد تحكي وتغني وتقرأ القرآن. والأخطر أن الراديو صار منصة تحريض على الانقلابات ويحمل خطب جمال عبد الناصر النارية. والاختراع الجديد له اسم كأنه مبتور إذ ينتهي بحرف علة، فأضاف الناس من عندهم نوناً ليكتمل الاسم وصار اسمه راديون. ولأن الراديو جديد وملغز فقد حار الناس في التعامل معه. أذكر أن صاحب دكان قريب منّا في بغداد كان يدع الراديو مفتوحاً في المحل طول اليوم، وكلّما قال المذيع «أعزائي المستمعين السلام عليكم ورحمة الله» ردّ الحاج صاحب الدكان «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

عندي صديق قريب جداً وهو مذيع أزلّي. ما زال حين يتحدّث لا يهमे إن كان المستمع يصغي أم لا. يقول إنه في الراديو لا تعرف ولا تريد أن تعرف إن كان هناك من يسمع، بل تتحدّث فقط وأنت وحدك.

صديقي هذا ذكر لي أنه كان في بدايات عمله الإذاعي إذ سافر من العاصمة حيث يعمل في الراديو إلى بلده في جنوب العراق، هناك وجد والدته «زعلانة منه» ولا تريد أن تكلمه. بعد الاستجواب المكثف قالت له إنها زعلانة «لأنّ هناك ناساً سمعوك تذيع في بيت الحاج عبد الستار وأنت تعلم أننا «مقاطعينهم» ولا نكلّمهم».

ابن تيمية في المطار

الإنسان منذ نشأته انتبه إلى بُعْدَيْن أو خطَّين متعامدين: الأفقي والعمودي. الأفقي يطالعه كلّما تأمَّل في الأفق بحرًا أو برًّا. هو خطٌّ واحدٌ لا تتغيَّر زاويته، ساكنٌ وخالدٌ. الخط الأفقي، بهذا، مفهومٌ ومعروفٌ الأصل: هو خطُّ التقاء السماء بالأرض أو بالبحر.

البُعد العمودي هو المحيِّر ولكن لأوَّل وهلة فقط. لا نعرف له أصلًا وليست في الطبيعة أشياء عمودية، ولا حتى النخيل والأشجار. لكن الحيرة تتبدَّد إذا تذكَّرنا أنَّه الخط الذي ترسمه حركة الأشياء حين تقع؛ تسقط الأثمار من الأشجار عمودياً سواء كان نيوتن جالساً تحت الشجرة أم لا، وسواء كانت الثمرة الساقطة تفاحة أم زيتونة.

البُعد العمودي في الطبيعة يرسم حركة الأشياء حين تقع، بمعنى حركتها نحو الأسفل. التوجُّه إلى الأسفل يعتمد على شيءٍ آخر وخاصة أخرى من خصائص الأشياء وهي الوزن. الوزن يجعل الأشياء تسقط، ولذلك يكون الوزن هو الشغل الشاغل في المطارات حيث لا يريد الناس للأشياء أن تسقط وخصوصاً الطائرات.

الصلة بين ما هو عمودي والوزن غريبة وتظهر في تجليات عجيبة،
منها أنَّ الشَّعر العمودي به وزنٌ، والشَّعر الذي ما به وزنٌ. وأوَّل من انتبه
إلى ربط مفهوم الأسفل والأعلى رغم نسبته بشيء ثابت هو الوزن، فقيهٌ
عربيُّ اسمه ابن تيمية. يقول ابن تيمية في تعريف ما هو أسفل: الأسفل
هو ما تنتهي إليه جميع الأثقال.

وبسبب المطارات صرنا ندرك أنَّ أشياءنا ومتعلقاتنا لها وزنٌ. حتى
الجورب له وزنٌ. المسافرون العرب يتحدَّثون عن الوزن أكثر من أي
مسافرين من أجناسٍ أخرى. عندما كان الأهل يزوروني سنويًّا في إنجلترا
كانوا ينفقون ساعاتٍ سمرهم ليلاً في الحديث عن الوزن. ويتصاعد إيقاع
الحديث عن الوزن مع اقتراب موعد العودة. المطار في أعينهم ميزان
حقائب. وفي ليلة السفر يصير الكلام عن الوزن أشبه بالهذيان.

أفهم لماذا تدقُّ شركات الطيران في الوزن لأنها تعرف أنَّ الطائرة
قد يُسقطها الثقل. وهي تعرف أنَّ الطبيعي هو أنَّ الأشياء تريد أن ينتهي
بها الأمر إلى أسفل، حتى دون أن تقرأ الفتاوى الكبرى لابن تيمية. لكنَّ
هناك شيئاً من الغبن في تحديد الوزن في المطارات. المسافر الذي لا
يتجاوز وزنه الخمسين كيلو يُسمَح له بعشرين كيلو في وزن حقائبه،
ويُعاقب إذا زاد وزن حقائبه على العشرين.

المسافر الذي وزنه مائتا كيلو يحصل على سماحٍ مماثلٍ في وزن
الحقائب فيصير وزنه هو وحقائبه مائتين وعشرين، والنحيل يكون
وزنه وحقائبه سبعين كيلو، وإذا زاد الوزن سيُعاقب. أين العدل؟ أين
الإنصاف؟ ينبغي أن تزن المطارات المسافر وحقائبه.

معوذين

الإنسان في كلِّ الثقافات يؤمن بأنَّ هناك تعويضًا. هذا من باب الإيمان بالإنصاف الذي لا بُدَّ أن يتحقَّق في هذا العالم أو الذي يليه. ومثل حالنا في كلِّ الخرافات، لدينا نصيبٌ وافٍ من هذه القناعات. في مصر مثلاً يؤمن الشعبُ أنَّ كلَّ معاقٍ يستطيع الإتيان بما يشبه المعجزات. وهناك شيءٌ يسمُّونه بركة العجز.

السيدة زينب يسمونها «أم العواجز» ويبدو أنَّها من اختارها الشعب بالإجماع مسؤولة عن إدارة ملف ذوي الاحتياجات الخاصة. وهناك جيشٌ من المختلين عقلياً يُقال لهم «مجاذيب الحسين» يطعمهم الفقراء بالاعتطاع من قوتهم توسلاً لشيءٍ من البركة والحظِّ السعيد. وبسبب هذا تجد مجاذيبَ الحسين سماناً لأنَّ الناس لا تكف عن إطعامهم، فالكل يطعم بالبركة، وإطعام مجذوب الحسين استثمارٌ طيبٌ؛ تضع في فمه لقمة فتربح سيارة ذات دفعٍ رباعي أو تتزوجك حسناءً ثرية.

في الفنون هناك إيمانٌ بالتعويض. الممثلة التي ليست جميلة يظنُّ الناس أنَّها ممثلة هائلة دون أن تفعل شيئاً سوى أن تكون قبيحة. هنا أورد قولاً للممثلة الحسنة جداً كاترين دينيف، إذ تقول «أنا امرأة جميلة

لكني ممثلة جيدة». كأنها تنفي مبدأ التعويض، يعني تريد القول «أنا ممثلةٌ جيّدة رغم أنني لستُ قبيحة».

طبعًا هناك معاقون عابرة لكن إعاقتهم ليست سببَ عبقريتهم. لكن الناس يحبون أن يظنّوا أنّ بيتهوفن عظيمٌ لأنّه أصم، وأنّ طه حسين عبقرٍ لأنّه أعمى. لا أحد يتوقّف ليفكّر في مسألة بسيطة وهي أنّ هناك ملايين الطرشان وبيتهوفن واحد، وكذلك ملايين العميان وطه حسين الفريد.

والطب غيرُ مستثنى من ثقافة التعويض. الدواء المرّ يظنّه الناس ناجعًا لأنّه مرّ. الإبرة مجدبة أكثر من قرص الدواء لأنها مؤذية. وهكذا دائميًا النكد مفيدٌ والبهجة مؤذية. وقد مرّ على إنجلترا في العصر الفيكتوري زمنٌ لم يكثرث الناس فيه لموتسارت لأنّ موسيقاه مبهجة وحلوة، وساد الولع بفاجنر القاتم المريع.

وفي سوق الحميدية بدمشق، عندما تشتري شيئاً وتدفع ثمنه يبادرك البائع بدعاءٍ جميلٍ إذ يدعو لك بالتعويض. وأذكر مرة أنني اشتريتُ شيئاً ومضيتُ وعندي إحساسٌ أنّ الشراء كان ينقصه شيءٌ. عدتُ إلى البائع لتدارك النقص، وقلتُ له عندما اشتريتُ منك لم تقل لي «معوضين» فاعتذر اعتذارًا حارًّا ودعا لي بالتعويض فارتحتُ. وأعجبني اعتذاره الشديد إذ يدلُّ على إدراكه قيمة التعويض.

في بريطانيا استثمر المعلق السياسي بيتر أوبورن مبدأ التعويض، الذي يقول إنّ الإنسان المضجر لا بُدَّ أن تكون عنده خاصية جيدة، ليلسع تيريزا ماي مرتين في جملة واحدة إذ قال عن رئيسة الوزراء «مجرد كونها مملة لا يعني أنّها كفوءة».

ساعات ساعات

أَوَّل من أَمَس كان آخر يوم أحدٍ في شهر مارس. وهو يومٌ بغِيضٌ لا يدانيه بُغْضًا سوى يوم الأحد الأخير من شهر أكتوبر.

لسببٍ أو لآخر تلعب أقطارٌ كثيرة في كوكب الأرض في هذين الأحدين بالساعات. في آخر أحد من مارس مطلوبٌ من الإنسانية أن تقدِّم الساعات ساعة واحدة لا لشيء إلا لتعيدها كما كانت وترجعها في الأحد الأخير من أكتوبر.

في الفترة بين الأحدين تكون الساعة زائفة وكذّابة عمدًا، وتشير إلى الثامنة، مثلاً، بينما هي في السابعة. كذّب قارحٌ ودون خجلٍ. والكذبة الأخرى التي تلازمنا في السبعة الأشهر بين الأحدين هي أنّ هذا التدليس كلّهُ يُسمّى التوقيت الصيفي. الصيفي نعم. في حين تكون الرياح عاصفةً والغيوم مطرُها ثقیلاً والإنسان يرتجف بردًا ولا يحضر في ذهنه سوى كلمة «زمهرير» ويسمّونه صيفًا.

لستُ أرمي الإنجليز بالكذب دون دليلٍ لكنني نشأتُ في بيئةٍ فيها الصيف صيفٌ. الصيف ليس موعدًا في الروزنامة بل هو حرٌّ وشمسٌ ساطعة وبطيخٌ وخيارٌ وقمصان قصيرة الأكمام.

في بلادنا لا يَعْرِفُ الصيف بالروزنامة إِلَّا لدى الشرطة والجيش.
يلبسون زي الصيف في موعدٍ محددٍ من العام أَظُنُّه منتصفُ أبريل. بقية
الشعب تتعرَّف على الصيف بالإحساس الذي لا يخيب، ويتنقل بعضهم
للنوم على سطوح البيوت، فالصيف موسمُ النظر إلى نجوم السماء.

على أي حالٍ، تغيير الساعة ليس أمرًا سهلاً في العصر الحديث. في
الزمن الأجل كانت هناك ساعةٌ في غرفة الجلوس بها بندولٌ أحيانًا.
هي التي تضبط وقتَ البيت كله. ساعة واحدة تغيَّرها وتنتهي والبقية
مجرد ساعات رسغ يتكفَّل بتغيير أيٍّ منها حاملها فقط.

اليوم الوضع مختلفٌ وشريرٌ. يوم الأحد عليك أن تغيِّر ساعات
وساعات. البيت مليء بالساعات: ساعة سخان الغاز وأخرى للطباخ وثالثة
لدى المايكروويف ورابعة عند لاقط الساتلايت وخامسة في التلفزيون
وسادسة في الدي في دي... وهكذا. وكلها ساعاتٌ رقمية متعبة.

وتنتبه إلى أنَّ كثرة الساعات لا يضبط الوقت بل يشتت الذهن.
ساعة المايكروويف تؤكِّد أنَّها السابعة والرابع، وساعة الطباخ تزعم أنَّها
السابعة والنصف، وساعة التلفزيون تُقسِّم بأغلظ الإيمان أنَّها في السابعة
وعشر دقائق، وكلُّ هذا يعني أنَّها في الثامنة والثلاث. لكنني كنتُ سعيدًا
ببיתי المتواضع وتخيلتُ ما يكون عليه الأمرُ في قصر الملكة. في قصر
باكنجهام هناك أكثر من سبعمائة وخمسين غرفة، لا شكَّ أنَّ في كلِّ
غرفة موقدًا مؤطرًا فوقه ساعة كما هي عادة بنايات القرن الثامن عشر،
هذا غير المطابخ وخلافها. أسعدتني الفكرة ورحتُ أحسب، بشماتة،
الساعات التي تغيَّرها الملكة في ذاك الأحد الشرير.

صدمة وذهول

الناس يتمنّون لو يصبّحون مسؤولين كبارًا تؤخّذ تصريحاتهم على الهواء في الشوارع والاستوديوهات. وهناك ألفٌ ممن يتمنّون أن يدسّ الصحفيون ميكروفونًا تحت أنفه ويطلبون منه تصريحًا وفي الغالب تعقيبًا على عملٍ إرهابيٍّ.

حصل هنا في لندن منذ أسبوعين اعتداءٌ إرهابيٌّ وتوالّت التصريحات، وتناوب أصحابُ الحلّ والعقد الظهورَ في التلفزيون يشتمون داعش ويرمونه بكلّ شرٍّ، وهذا عاديٌّ ومقبولٌ طبعًا. لكن الذي لا أراه طبيعيًّا هو أنّ المسؤولين يعبرون عن صدمتهم أيضًا بما فعله إرهابيو داعش.

إذا كنتَ تؤمن، وأنتَ محقٌّ، بأنّ داعش إرهابي، ينبغي ألا تكون مصدومًا إذا ارتكب فعلًا شنيعًا وقتل أبرياء. هذه الفظاعات من صلب عمله وهي منصوّصٌ عليها في عقد توظيفه بل وينص عليها إعلان الوظيفة الشاغرة، أتصوّر الإعلان يقول: مطلوبٌ للعمل فورًا وبراتٍ مجزٍ إرهابيٍّ يذبح الناس ويدهسهم ولا يحتاج أن يكون ذا خبرة.

ولأنّ الإرهاب صناعة موتٍ فالإرهابيون يقتلون ويموتون كثيرًا فتنشأ شواغر دائمة. قوى الأمن في العالم كلها تريد قتلهم ودورات

التعيين سريعة، تتعين إرهابيًا وما إن تبدأ مهام عملك الجديد حتى تموت بعدها بأيام والتجنيد مستمر.

أذكر مرة أيام «المتاعب» في إيرلندا الشمالية أنَّ الإرهابيين ضربوا قبلة حطَّت في روضة أطفال تقع قرب مركز شرطة. وجرح من جرح من الأطفال الصغار، وخرج مدير شرطة إيرلندا الشمالية غاضبًا حائقًا وقال «هذا تصرفٌ غير مسؤولٍ من قِبَل الإرهابيين». العبارة قمة في سوء التعبير وخيبة اختيار الكلمات والصفات. كان كمن يقول إنَّ هذا الإرهابي حقيرٌ لا يفرش أسنانه قبل النوم.

الغاية من الكلام أعلاه هو أنَّ الإرهابَ شيءٌ مريعٌ جدًا وليس بعده ذنبٌ. لا يمكن أن تصفَ مرتكب عملية جسر ويستمنستر والبرلمان بالإرهابي ثم تضيف أنَّه دهس الناس دون رخصة قيادة سيارة. لفظ إرهابي بشعٌ ويحمل الكثير من الشرور بذاته ولا يحتاج إلى متعلقات جانبية لتجعله فعلًا شرييرًا حقًا.

تقول عن أحدٍ إنه إرهابيٌّ فما الداعي إلى الصدمات. الإرهابي قادرٌ، بالتعريف، على الإتيان بأي فعلٍ شائنٍ وإجراميٍّ، فما معنى الصدمة هنا؟ المسؤولون يعيشون مصدومين وفي حالة ذهولٍ دائمًا، الإرهابيون يفجِّرون قطارًا فيظهرون معبرين عن صدمة. أنا لو أصبحتُ مسؤولًا كبيرًا ستصيني الصدمة من الإرهابيين، ولكن حين يقومون بشيءٍ صادمٍ حقًا. تصوِّروا لو أنَّ داعش أفلح في استيلاء فصيلة جديدة من الورد. هذه صدمة. ولو أنَّ مجاهدي طالبان توجَّهوا بكلِّ إخلاصٍ إلى إنتاج بودرة لِمَا بعد الاستحمام لكنكُ مصدومًا.

مشكلة لكل حل

أعرف ناسًا، وهم كثيرون ومنبثون في أقطار الأرض، يتعاملون مع عبارات المواساة والتشجيع وبعث الأمل في النفوس كأنها مقولات من إعلام العدو ويجب تكذيبها وفضح زيفها. أي عبارة تشيع الأمل وتحاول اقتناص شيء من البهجة، يعدونها عبارة شريرة يجب دحضها وتكذيبها.

قال لي رجلٌ إنَّ أخته سُخِّصت بالسرطان فقلت له محاولاً بعث الأمل في نفسه ونفس المصابة بالتالي ومخفِّفاً لوطأة المصيبة «ما دام التشخيص مبكرًا فالأمل كبيرٌ حقًا، هكذا هو الحال في حالات هذا المرض، توقيت التشخيص هو الأهم». فانتفض صاحبي غضبًا وكأنني سلبته أعزَّ ما يملك: سلبته المصيبة الكاملة، وصرخ «أي توقيتِ وأي تشخيص، أقول لك سرطانًا تقول تشخيصًا، أي هراء هذا؟».

هكذا انصرفْتُ عنه وأنا أتمنَّى أن أدعو لشقيقته بالموت المحتم لكي أسعده وأحقق له ما يتمنَّى من النكد والأحزان. لا تستطيعون تخيُّل غضبه من بارقة الأمل التي لمَّحتُ إليها. كراهية الأمل وكل ما هو مشرق طبعٌ إنساني منتشرٌ للأسف، لا أريد أن أغامر بالتخمين في أسبابه

وأكره الخوض في السيكولوجيا. فعلم النفس هو واحدٌ من العلوم الذي يمارسه كلُّ إنسان ويدّعي الخبرة فيه و«يمون» عليه.

ولعلَّ السبب هو أنَّ نصَّابًا كبيرًا يُدعى سيجموند فرويد وضع قواعد التحليل النفسي وجعلها في المتناول بحيث صار سائقو سيارات الأجرة علماء نفسٍ، وأصحاب الدكاكين يقولون لك هل كنتَ تخاف من الظلام؟ إذن لذلك لا تحب البسكويت.

ومثلما يكره هؤلاء بريقَ الأمل، هناك من يكره أن تكون هناك حلولٌ للمشاكل، ويحب أن تكون المشاكل مستعصية على الحل. هذه الفئة ترعاها الدولة في العادة وتوظّف كارهي الحلول في المؤسسات والمرافق التي تتعامل مع المواطنين في كلِّ الوزارات، بل وفي القنصليات في الخارج.

أذكر أنني كنتُ بصدد دخول مبنى عليه حراسة في عاصمة عربية فاستوقفتني الشرطي إذ لاحظ أنَّ عندي لابتوب. سألني إن كنتُ أحمل ترخيصًا بإدخال لابتوب إلى المبنى فقلت له إنَّ اللابتوب اليوم مثل ساعة اليد؛ يحمله الجميع دون ترخيصٍ. لم يقتنع، فاقترحتُ أن أدخل بسرعة إلى المبنى لأحضر ترخيصًا، فقال: لا يمكن الدخول باللابتوب، اقترحتُ أن أترك اللابتوب معه وأدخل وأعود محملاً بالترخيص، هذا الاقتراح يشكّل حلًّا، فوجد الشرطي له مشكلة؛ قال: إنَّه غيرُ مسموح له بالاحتفاظ بالجهاز. فوقفنا لا نعرف ماذا نصنع، إلى أن جاء طرفٌ محايدٌ عابر سبيل فاستأمنته على الجهاز لحين الحصول على ترخيص.

تذكرت مقولة لرئيس الوزراء البريطاني القديم أسكويث إذ يقول:
«هناك من يجد مشكلة لكلّ حلّ». وهؤلاء هم الموظفون في دوائر
الدولة.

ربيع الصحوات

في أوائل عهد الاحتلال الأمريكي للعراق، كانت هناك مقاومةٌ مسلَّحةٌ. هذا طبيعيٌّ ومألوفٌ. الغريبُ والخاصُّ بالمقاومة في حينها أنَّها كانت سلسلة عمليات معقَّدة جدًّا يقوم بها الناس في نومهم. هناك من يتكلَّم في أثناء النوم طبعًا، وهناك من يمشي وحتى يغيِّر ملابسه وهو في سُباتٍ عميقٍ. وعندنا أيضًا من يتحدَّث في أثناء نومه، والناس تصغي بشغفٍ وانتباهٍ تامِّينَ لمن يتحدَّث في نومه، فالسامع يتوقَّع أنَّ الإنسان سيُبوح بأسرارٍ كبرى وهو نائمٌ.

لكن من يستمع لصوت النائم عادة ما يعود خائبًا؛ فلن يسمع سوى حروفٍ مختلطة وأصواتٍ مزعجة. أمَّا بالنسبة للمقاومة في العراق فقد كان هناك الآلاف الذين يخطِّطون وينفِّذون عملياتٍ عسكرية فائقة الدقة والمهارة وهم نيامٌ. هذا هو التوصيف الأمريكي الرسمي لتلك العمليات، لأنَّ من يتوقَّع عنها يقال إنَّ عنده صحوة.

ولا نعرف سبب الصحوة التي أيقظت حاملَ المتفجَّرات من نومه. لعلَّه انفجار عبوة لئيمة أو مجرد سماع صوتٍ يقول: «إذا أفقت من نومك وتوقفت عن القتالِ والتفجيرِ فستحصل على أموالٍ طائلة أو تفوز بمقاوالات بناءٍ أو عقود استيرادٍ وتصديرٍ». لا نعرف تحديدًا، لكننا نعرف أنَّ هناك ما يجعله يستفيق ويصحو. والزعم بأنَّ المقاومين كانوا

نائمين زعمٌ قادمٌ من دولة عظمى ومتقدمة علمياً ولا شكَّ أنَّهم يعرفون
عمّا يتحدَّثون.

الذي ذكّرني بالصحوات وحملني على الحديث عن النوم
واليقظة هو أننا دخلنا الربيع بحقٍّ، وبدأ الدفء وجاءت الصحوات:
صحوات الحيوانات والنرجس وباقي الأبصال التي كانت في سُباتٍ.
بدأت الضفادع تخرج بعد سُبات الشتاء وأعينها لا تزال جاحظة بسبب
شحوب الوجه وهزاله من طول الجوع، تشبه المؤمنين في أواخر شهر
الصوم، يعني فيها من هزال النسك والزهد لأنّها لم تأكل لشهورٍ.

هذا سببٌ. السبب الآخر هو أنني كنتُ هذا الأسبوع في سيارة نقل
المرضى في طريقي إلى مستشفى. كان معي في السيارة رجلٌ عجوزٌ
وامرأةٌ أكبر منه سنّاً. كان الرجل في منتهى الحيوية والبريق والمرأة في
سُباتٍ عميقٍ فاغرةً فاها الخالي من الأسنان وكأنّه منطقةٌ يُحرّم وجود
الكالسيوم فيها بقرارٍ أممي.

الرجل كان يحكي عن نفسه وعن أخيه الذي يعيش في لاس
فيجاس، ثم وصل به الكلام عن العجوز المئوية النائمة بجانبه، وقال
معرفاً بها «إنّها أمّنا». قال إنّ عمره ثلاثة وسبعون وهذه أمه وعمرها ستة
وتسعون عاماً.

هنا تحرّك شيءٌ في وجدان العجوز فانتبهت من سُباتها وقالت
بانزعاج: «عمرى خمسة وتسعون وليس ستة وتسعين». لا تخطئوا في
عمر المرأة بالزيادة حتى لو كانت في سُبات، ولو كان الخطأ واحداً في
المائة.

سخيف دون سياق^{١٨}

الإنسان لا يطيق أن يبدو سخيفًا. قد يتقبَّل السُّخف لكن على مضضٍ ولساعة أو ساعتين في حفلة تنكُّريَّة مثلاً. في الحفلة التنكُّريَّة نفسها لا يبدو الإنسان سخيفًا جدًّا بل مجرد سخيفٍ. هذا لأنَّ هناك سياقًا، هناك حفلة وهناك عشرات السخفاء: هذا روبن هود وذاك أدولف هتلر وهذه جون دارك وهكذا. هناك قراصنة وقُطَّاع طُرُق وخلفاء عباسيُّون وليس هناك محصِّل ضرائب واحدٌ.

المشكلة أساسها أنَّ الإنسان الذي يصرُّ على أن يبدو هارون الرشيد ويقود سيارة هايونداي ينسى ماذا يرتدي. وربما تسوقه حماقته إلى السوبر ماركت ليشتري لتر حليب. ليس هناك مرآة وينسى مظهره كما قلنا. هنا يبدو الإنسان سخيفًا جدًّا فالسياق لا يسمح بهارون الرشيد. ثلاثيات السوبر ماركت لا تسمح. لكن المتنكِّر قد نسي تمامًا مظهره ويروح يجادل العاملين ويستفسر ويروح ويجيء وهو هارون الرشيد.

شاهدتُ ذات مرَّة عائلةً كاملةً، أبًا وأمًّا وولدين، في أحد الدكاكين وكلهم من أصحاب روبن هود. نسوا منظرهم وبدوا سخفاء جدًّا وهم يتناقشون حول كرتونات العصير ووجوهم مقطَّبةٌ وجادَّةٌ والأم تضرب الأرض بقدميها بعصبية وهي في زي قُطَّاع الطرق من سكان غابة شيرود برفقة روبن هود.

في ميدان رمسيس المزدحم أبدًا في القاهرة، كان هناك محلٌ يبيع أقراص الطعمية في ساندويتشات. خُلِقَ كثيرون متحلّقون حول مدخل المحلّ الصغير وهناك ضجيجٌ وصُراخٌ من الجمهور الكريم. لكن وسط كلِّ هؤلاء هناك رجلٌ بدينٌ واقفٌ أمام مقلاة لم أر أكبر منها وهو يرمي قطع الطعمية ليقليها بسرعةٍ ونشاطٍ. كلُّ شيءٍ طبيعيٌّ لولا أنّ الرجل الذي يقلي الطعمية ويزعق طالبًا المزيد من عجينة الطعمية ألبسوه ملابس غريبة أظنهم يريدونه أن يكون خليفة عباسيًا.

لسببٍ أو لآخر حسبته المتوكّل. ملابسه مذهّبة وعلى رأسه عمامةٌ كبيرةٌ مزخرفةٌ. هو المتوكّل في رؤية التلفزيونات العربية. الخلفاء في تلفزيوناتنا وأفلامنا يرتدون عباءاتٍ مزركشة وعمائمٍ من قماشٍ لمّاعٍ. نسي أنّه المتوكّل وكان يقلي الطعمية ويصرخ في الصبي المساعد طالبًا المزيد من عجينة الطعمية. بدا سخيًّا ومضحكًا حقًا.

ما ذكرني بكلِّ هذا السُخف هو أنني أبحث عن تلفزيونٍ جديدٍ. لاحظتُ انحسارًا واضحًا في عروض التلفزيونات المجسّمة. وهناك انحسارٌ موازٍ في إنتاج الأفلام المجسّمة قياسًا بما كان عليه الوضع قبل أقلّ من عقدٍ.

ستنحسر ثم تنقرض الأفلامُ الثلاثية الأبعاد كما حصل من قبل، في الخمسينيات والسبعينيات والتسعينيات. مكتوبٌ على المجسّم الانحسار لأنّه يتطلّب ارتداء نظاراتٍ غريبة تجعل الإنسان يبدو سخيًّا، والإنسان لا يريد أن يجلس في بيته مرتديًا عدساتٍ خضراء وحمراء، لا يريد أن يبدو سخيًّا.

الاستعارة الضائعة

هذا حديثٌ عن الاستعارة باعتبارها شكلاً من أشكال التعبير اللغوي وليس حديثاً عن الاستعارة كما في أخذ الكتب من المكتبة العامة وإعادتها بعد أسابيع. أهمُّ ما في الاستعارة أن تكون مفهومة، وواضحٌ أنَّها تشبیهٌ لشيءٍ محذوفٍ. يعني أن تقول إنَّ «جنودنا يحاربون مثل الأسود» ليست استعارة، ولكن أن تقول «أسودنا خاضوا معركة» تكون استعارة.

وينبغي هنا توخّي الحذر مع استخدام الاستعارات أمام الأطفال. ففهم الاستعارة يحتاج إلى فهم عميقٍ للأفكار وخبرة في احتمالات وقوعها. عندما تقول أسودنا في المعركة لا يفهم السامع الذكي أنَّ عندك حديقة حيواناتٍ فيها أسودٌ تخرج من أقفاصها لتتعارك وتعود مع موعد تقديم وجبة المساء.

الإنجليز مولعون بالاستعارة، وبالأستعارة الملطّفة بالذات. يتحاشون الكلمات القاسية والجارحة ويستعبدون تعبيراً لطيفاً ليؤدي المعنى. عندما جئتُ إلى إنجلترا لم أكن أعرف هذا، كنتُ مثل الأطفال يصدّقون المعنى الحرفي للكلمات. انتبهتُ إلى أنَّ نشرات الأخبار تقول لدى ذكر جريمة ما، إنَّ أحداً ما يعين الشرطة في تحرياتها. كنتُ أقول يا لهم من شعبٍ طيبٍ: ما إن تقع جريمة حتى يتطوَّع من يساعد الشرطة.

لكنني بمُضي الوقت عرفتُ أنَّ هذه استعارة ملطّفة، وأنَّ الرجل الذي يقولون عنه «يساعد الشرطة في تحرياتها» هو في الواقع شخصٌ أُلقي القبض عليه وهو رهن التحقيق، يعني الآن في غرفة موحشة والمحقّقون يتوالون عليه صُراخًا وقسوة. اكتشفتُ أنَّ «الرجل الذي يعين التحريات» استعارة ملطّفة عمّن أُلقي القبض عليه وانتزع من فراشه في ساعات الفجر الأولى وهو يرتجف في غرفة التحقيق وضوء مصباحٍ ساطعٍ مسلطٍ على عينيه.

عندما تقول سيصينا الفقر وسننام في الشوارع أمام الأطفال يتصوِّرون المبيت في الشارع حقًا وليس حتى على الرصيف بل الإسفلت نفسه، ويصوِّرون لهم عقلهم مرتباتٍ مفروشة ومخداتٍ وبطانياتٍ على الإسفلت بين السيارات وهدير المواصلات العامة.

كنتُ في القاهرة في إحدى الحوارات وسمعتُ امرأةً تجادل بائع الخضار في سعر الباذنجان وترمي البائع بصفات الجشع والاستغلال وهو يؤكد أنَّ الباذنجان غالٍ من عند بائعي الجملة ويقول «هو سعره جنيهاً إلا ربع بالجملة، ماذا أفعل؟ هل أقطع نفسي؟».

هنا انشقت الأرض عن ولدٍ صغيرٍ في الخامسة، دافع العين حانقًا ممسكًا بيد البائع الذي يبدو أنّه أبوه، وصرخ بالمرأة بكلّ الهلع الممكن «ماذا تريد من أبي؟ هل تريدني أن يقطع نفسه إلى قطعٍ صغيرة بسكينة اللحم التي عندنا في المطبخ؟».

ملاحظة: «الأرض تنشق عن الأطفال» لأننا لا نراهم قادمين لصغر حجمهم، وننتبه إلى وجودهم فجأة حين يقومون بشيء.

أَسْمَاءُ وَإِبْدَاعُ

هناك ناسٌ لا تؤتيهم فرصة أن يكون لهم أثرٌ فيما حولهم. يمضون عمرهم دون أن يكتبوا قصيدة أو يرسموا لوحة أو يصمّموا بناية أو ينشروا مقالًا أو يتخذوا قرارًا ولو كان إداريًا بسيطًا يؤثر في أحدٍ. هكذا يُولدون ويرحلون دون أثرٍ. لكن لا يأس مع الحياة. هؤلاء تُتاح لهم في العادة فرصة أن يطلقوا أسماءً على أطفالهم. لدى إطلاق الاسم، والمولود يصرخ ويركل الهواء بقدميه ساخطًا على مَنْ أخرجته من مكانه المريح ونكّد عليه عيشته، تتدفّق عبقرية الأب وتطفو كلُّ ذائقته وأحلامه وأمنياته ويعبر عنها جميعًا بكلمة واحدة هي الاسم.

الغريب أنَّ الأسماء الشائعة جدًّا لا تبدو حقيقية. لا بُدَّ للاسم من أن يكون فيه غرابةٌ وإلاّ بدا مزيفًا. أنا شخصيًا أعاني من شكوك المسؤولين في المطارات لأنَّ اسمي حسين صالح. وقد نبّهني أحدُ الزملاء إلى أنَّ هذا الاسم يبدو مفتعلًا وملفّقًا.

ربما لهذا يضع ديكنز لأبطاله أسماءً غريبة لأنَّ روايته واقعية ولكي يكون الأشخاص فيها واقعيين يمنحهم أسماءً غريبة مثل مستر بمبل في «أوليفر تويست» ويورايا هيب في «ديفيد كوبرفيلد». وأعتقد أنَّ نجيب

محفوظ أدرك هذا أيضًا. في رواياته هناك أشخاص يحملون أسماء من قبيل «الشيخ تغلب الصناديقي» وهناك «شطا الحجري» ورجل اسمه «طباع الديك» وأيضًا «قرة عيني» و«صنعان الجمالي». بل إنه في «السكرية» يسخر من اسم أحد أبطاله، ويصف اسمه بأنه «اسم لا طعم له» لأن الاسم عادي جدًا، وهو «إسماعيل لطيف».

الإنجليز عندهم جون سميث اسم زائف. والعاشق المتخفي مع عشيقته في فندق يسجل نفسه باسم جون سميث. وأذكر مرة أن الشرطة اكتشفت أن إرهابيًا مطلوبًا في لندن قد سجل نفسه في نزل باسم محمد علي. وقالت الصحافة الإنجليزية حين أوردت الخبر أن اسم محمد علي هو النظير العربي لجون سميث. لكن هناك من اسمهم محمد علي وجون سميث فعلاً. وستظل تطاردهم الشكوك والريبة.

وهناك طبعًا أسماء غريبة لا يبررها سوى أنها مستلة من نص مقدس مثل سندس واستبرق وطه عندنا.

الغربيون كان عندهم طبع مماثل. أعلم أن في إنجلترا القرن السابع عشر أسماء غريبة يختارها الأبوان بفتح الإنجيل وتسمية الطفل بأول كلمة تصادفهما. هذا كلام جاد: هناك من اسمه «ولهذا» إذ رأى الأبوان كلمة Therefore لدى فتح العهد القديم.

أسماء الأمنيات جميلة وخصوصًا لدى الفقراء وفي البلدات الصغيرة. من أسماء الأطفال تفهم أحلام الأبوين. كان حارس مدرستنا فقيرًا يقيم في كوخ عند حائط المدرسة. كان عنده ثلاث بنات، أسماءهن: ألمانيا وبيروت والصغرى طيارة.

خريجو جامعة جوجل

بسبب العمل صرْتُ أتنجذب أطرافَ الحديثِ مع ناسٍ بعيدين جدًّا، لا أراهم ولكن أكتبهم ويكتبونني عبر وسيلة اتصالاتٍ «إنترنتية»، هذا يتطلبُ أن يكون كُلُّ منَّا أمامَ كومبيوتر، لاحظْتُ منذَ اليومِ الأولِ أنَّ هؤلاء يعرفون كُلَّ شيءٍ، معرفتهم لا حدودَ لها وهم فتیانٌ وفتياتٌ دون الثلاثين.

فيهم من هم من بلدٍ بعيدٍ عن العراقِ لكنَّهم يعرفون كلمات أغنية «اعزاز» لياس خضر ومَن لحنها ومَن كتب كلماتها، ويعرفون بالتفصيل مصدر عبارة «أن تكون أو لا تكون» الشكسبيرية ومن أي فصلٍ، بل ومن أي مشهدٍ ضمن الفصل في مسرحية هاملت.

ويعرفون أين يُباع أحسن آيس كريم في الطريق الواصل بين ميلانو وفيرونا في شمال إيطاليا. يستطيعون ترديد أشعار بشار بن برد وأغاني ميلي سايروس بنفس اليُسْر. يعرفون ويعرفون، ومعارفهم لا حصرَ لها ومتنوعة.

ولاحظتُ أيضًا شيئًا غريبًا وهو أنَّ هؤلاء مهما اتَّسعت وتنوَّعت معرفتهم لا يعرفون كيف يستطردون. وأنا أكتب هذا العمود تذكُّرُ الشاعر ألكساندر بوب وشعره عن المعرفة وكيف أنَّ القليلَ منها مؤدِّ وخطيرٌ، وكيف أنَّ من ينهل من نبعها عليه أن ينهل بعمقٍ أو لا يشرب أبدًا.

شعر ألكساندر بوب والنَّهل من المعرفة نقلاني فورًا إلى الإبل في جيش المسلمين القدامى بين العراق والشام وتعليمات خالد بن الوليد بسقاية الإبل عللاً بعد نهلٍ ليكون رُيُّها عميقًا مثل المعرفة التي يدعو إليها ألكساندر بوب، هذا تداعٍ، هذا استطرادٌ تمليه المعرفة لكنَّ هؤلاء لا يتداعون ولا رابط موجود بين شاعر إنجليزي من القرن الثامن عشر وخالد بن الوليد. وهذه معرفة جوجل.

وبعد فترة، ومن جمع القرائن والأدلة، اكتشفتُ أنَّ هؤلاء خريجو جامعة جوجل. من جوجل يتلقَّون معرفة قائمة على ارتشاف جرعاتٍ صغيرة دون نهلٍ أو عللٍ. جوجل يعطيك حجارة البناء حجرًا حجرًا ولا يكشف البناء كله.

الأكثر ثقافة اليوم هو الأبرع في استخلاص المعلومة من جوجل بأسرع وقتٍ. يعرف كيف يضع كلماتٍ معيَّنة في الاستفسار. أذكر أنني في بدايات محرَّكات البحث وفي عصر ما قبل جوجل كنتُ أزور موقعًا اسمه «أسك جيفز» (اسأل جيفز) وكنتُ إذا أردتُ معرفة عاصمة كولومبيا أكتب بتأدُّبٍ «هل لك أن تخبرني من فضلك ما هي عاصمة كولومبيا؟» أسأل ولا أنسى «من فضلك».

المعرفة الجوجلية معقّمة ومحدّدة. القواميس الآن على الإنترنت
تعطيك معنى الكلمة التي طلبتها لا غير. كنّا منذ زمنٍ نطلب كلمة فنفتح
القاموس ونقرأ عشر كلماتٍ أخرى قبل المطلوبة وبعدها والعقل يألف
الاستطلاات والامتدادات ويتعلّم. محرّكات البحث قتلت كلّ هذا،
وصار المعمار أحجّاره.

روتيني يقيني

هذا دفاعٌ عن الروتين الحكومي وأساليب تعقُّب المعاملات وسلوك موظفي الدولة المؤتمنين على مصالح الناس. قبل كلِّ شيءٍ، الياء المُلحقة بكلمة روتين في العنوان ليست ياء صفةٍ أو نسبٍ بل هي ضمير متصل بمعنى الروتين الخاص بي، مثل الياء في ثقافتي وحضارتي. فمن طبعي أن أدافع عن ثقافتنا وهويتنا الحضارية، والروتين جزءٌ منها. حُبُّ الروتين والتعلُّق به ومهاجمته أيضاً جزءٌ من ثقافتنا. الروتين من إنتاجنا وهو روتيننا ولم يفرضه أحدٌ علينا.

الجميل فيه أنَّه يُنَجِّب أشياءً ومطالبَ مضحكة. أتعرَّف على مخترعات المصالح الحكومية، ومهما بلغت من العمر فإنَّهم يعلمونني شيئاً جديداً، علومُهم لا تنقضي. من بحار المعرفة هذه تعلَّمتُ الأسبوع الفائت أنَّ هناك شيئاً اسمه «صحة الصدور». قد يهَيِّأ لكم أنَّ الموضوع متصلٌ بالسُّعال والرئة والتنفُّس. خطأ، «الصدور» هنا ليست جمع صدر بل مصدر من الفعل صدر.

تكون لديك وثيقة رسمية، فيطلب منك الموظف أن تحضر له وثيقة أخرى تؤكد أن الأولى صحيحة. يعني الافتراض المبدئي هي أن ما لديك مزور، وعليك إثبات أنه غير مزور. هذا الكلام ناتج عن ثقافة كاملة.

أذكر مرة أني كنتُ واصلًا مطارَ دولة عربية برفقة صديق. أموري كانت ماشية مع ضباط الجوازات لكنَّ الصديق فوجئ بطلبٍ عجيب. كان عنده فيزا لكنَّهم طلبوا منه وثيقة تثبت أنه ليس ممنوعًا من الدخول. قالوا له إنَّ الفيزا تعني أنه مسموح لك بالدخول لكننا نريد ما يثبت أنَّك لست ممنوعًا من الدخول.

شخصيًا، عقلي تعب وأصابه الإعياء في محاولة فهم هذا المنطق. لكننا شعوبٌ نجد هذا الطلبَ معقولًا، رغم أنه يذكرُ بجنونٍ إصرار الولايات المتحدة أن يقدم العراق دليلًا على أنه لا يملك أسلحة دمارٍ شاملٍ. المفروض أن من يتهمك بحيازة سلاح أن يثبت أن عندك سلاحًا، لكن أن يطلب منك أن تُثبت عدم حيازتك سلاحًا، فهذا من قبيل صحة الصدور ووثيقة عدم المنع من الدخول.

كنتُ في القاهرة ذات ربيع، في أثناء تلك الزيارة نشرتُ الصحف تقريرًا يقول إنَّ بلدية العاصمة بصدد افتتاح سلسلة تواليتات نظيفة لكنَّها تكلفَ جنيتها واحدًا لدخولها. ورصدتُ ردودَ فعل القاهريين كما وردتُ في الصحف. بداية قال الناس إنَّ هناك من لديه ظروفٌ صحيَّةٌ تتطلبُ زياراتٍ متفرقة ومتعددة للتواليت.

فاقترح البعض أن يتقدّم من لديه ظروفٌ كتلك بطلب إعفاءٍ من الرسوم موثقٍ من وزارة الصحة. ودار حديثٌ عن استماراتٍ خضراء وحمراء وبطاقات إعفاء متمايزة ولغطيّ كثيرٍ. الناس عندنا تلتمس دفء الروتين والمعاملات الرسمية. ففيه العدالة والإنصاف والمراجعات، وأهمُّ شيء فيه أنّه يتيح الشكوى من الروتين.

من لي بالمتوكل

عندي مشكلة أريد أن أحكيها. أعلم أن الشكوى لغير الله مذلة، وأعلم أن آخر ما يريده القارئ هو النكد من الصباح، ولكن ما العمل؟

مشكلتي أنني أستخدم الكلمات بمعانيها. أذكر مرة أن استخدامي لكلمة «موتور» بمعناها الصحيح تسبب في انزعاج شديد حقاً لضيف قريب مقيم في بيتي. ضيفي من أتباع قائد سياسي وديني في عراق قبل الغزو الأمريكي. هذا القائد فقد أعضاء من أسرته قتلاً، والسلطة متَّهمة بقتلهم. قلتُ عن ذلك الزعيم إنه موتورٌ ومعناها أنه طالبٌ ثارٍ لم يدرك ثأره بعد. السلطة وترته وهو موتور. وما أن قلتُ «موتور» حتى غضب ضيفي وراح يقرعني على شتيمة الزعيم السياسي حتى الثانية صباحاً.

حاولت طيلة الوقت أن أشرح لكنَّ ضيفي العزيز كان غاضباً لا يسمح بالشرح. «موتور» عنده شتيمة وانتقاص ولا مرء في ذلك ولا شرح. وهكذا صرْتُ أنفادى إلى اليوم استخدام كلمة «موتور» فلي معها ذكرى سيئة. صرْتُ لا أقولها، اللهمَّ إلا حين أغني «لاركب حدك يا الموتور» لفهد بلان.

وفي مناسبة أخرى سألني مسؤولٌ إعلاميٌّ عن رأيي في أحد الزعماء السياسيين التاريخيين فقلتُ إنه فاشي. كان المسؤول صاحب السؤال من أتباع فكر ذلك المفكر والقائد. فاستشاط غضباً وكأنني

قلتُ إنّ ذلك المفكّر قاتلٌ أو نذلٌ على الأقل. رحّت مرّة أخرى أشرح وأوضح أنّ الفاشية مذهبٌ وفكرٌ كان له شيوعٌ كبيرٌ أيام ذلك القائد في العشرينيات وأنّ الكلمة ليست شتيمة. هي وصفٌ لمنهجٍ به رومانية وحينئذٍ إلى ماضيٍّ مجده تليدٌ ومحاولة بلوغه بعسكرة المجتمع وجعل المواطنة انحرافاً في مؤسسة قتالية إلى آخر أوصاف إيطاليا الفاشية.

كلمة «الاستعمار» صارت شتيمة لدى المنادين بـ«الاستقلال التام أو الموت الزؤام». وروى لي صديقٌ أنّه كان عازماً على السفر، للمرة الأولى، إلى بريطانيا منذ عقود. فقال لأُمّه «الأسبوع القادم سأكون في أرض الاستعمار البريطاني». فهلعت أُمّه وقالت متوسّلة «أرجو ألاّ يفلتَ لسألكَ تقول عن الإنجليز إنّهم استعمارٌ وأنّ في بلادهم. الله يعلم ماذا سيصنعون بك؟». حاول صاحبي عبثاً أن يفهمها أنّ في بريطانيا، في أيامها، وزارة اسمها وزارة المستعمرات، والاستعمار عندهم ليس شتيمة.

علاقة الخليفة المتوكلّ بالعنوان هي أنّ شاعراً بدويّاً خشنَ الملبس واللفظ ملازماً للبادية ورد إلى بغداد، ومدح الخليفة بأبياتٍ جاء فيها: أنت كالكلب في حفاظك للودّ.

بُهِتَ الحاضرون من نعت الخليفة بالكلب، لكنّ الخليفة لم يغضب بل فهم جمال المقصد وخشونة اللفظ فابتسم. فهذا الشاعر رجلٌ لم تفسد تطورات الاستخدام في بغداد فهمه لصفة الكلب. من لي بمستمعٍ مثل المتوكلّ.

ثقافتان في المركب

توجد أممٌ وثقافاتٌ متدبرةٌ وحصيفة بطبيعتها. لا تستعجل الأمور وتطبخ أفكارها طبخًا جيدًا حتى النضج قبل أن تتفوه بها أو تذيعها بين الناس. وقد بلغت الحصافة بالزعيم الصيني الراحل ماو تسي تونغ، مثلاً، أنه سُئل في السبعينيات عن أثر الثورة الفرنسية في العالم فقال: «لا يزال الوقت مبكرًا لإطلاق أحكام». هذا الكلام بعد قرابة القرنين على الثورة الفرنسية. الزعيم ماو رغم ثوريته وشيوعيته كان صينيًا تمامًا وابتناً مخلصًا لثقافته المتأنية الصبور.

الحضارات المتأنية بطبيعتها تحترم العمر الطويل. أتذكر وأبتسم كيف أن الصينيين كانوا ينظرون في موضوع من سيخلف دينج شياوبينج في قيادة الحزب والبلاد، وكانت أسماء المرشحين تضم جنرالاً في الستين من عمره. أعضاء اللجنة المركزية أسقطوا من حسابهم الرجل ذا الستين عامًا في الجولة الأولى من عملية الاختيار. والذي يضحكني هو أنهم قالوا في أسباب رفض ترشيحه «إنه لا يتجاوز الستين، يعني ما زال صغيرًا وطائشًا. والتهور غير محمود».

العرب كانوا صبورين متدبرين. والحلم صفة حميدة جدًا والحليم من أسماء الله الحسنى. لكنهم فقدوا القدرة على الصبر والتأني فيما فقدوه. أذكر مرة أني كنتُ برفقة صديقٍ عربي في مدينة إنجليزية تبع

عن لندن نحو مائة وسبعين كيلومترًا. أردنا العودة إلى لندن ووصلنا محطة القطار لنرى قطارنا مغادرًا للتو. كان علينا أن ننتظر ساعة واحدة لنركب القطار الذي يليه. لاحظتُ أنَّ صديقي راح يقترح اقتراحاتٍ كثيرة للتصرف وكان مستعدًا لعمل أي شيء سوى الانتظار لساعة واحدة.

المحطة فيها مقاهٍ ومقاعد للجلوس عند أرصفة القطارات وأكشاكٌ تبيع صحفًا وشايًا وكل شيء. كلُّ هذا لا يجعل صاحبي يتحمّل الانتظار ساعة واحدة. هو عربيٌّ من شبه جزيرة العرب أجداده بدوٌ متأملون صابرون. البدوي قد ينفق نهاره مطارّدًا ناقة صغيرة لعبوًا. تجري الناقة فيجري وتبطئ الخطو فيبطئ، وكل هذا تحت شمسٍ لاهبة. يقضي سحابة اليوم ولا يتذمّر.

في بلادنا التمللمل اللا معقول هذا حكرٌ على أهل الحضر. أذكر أنَّ عائلة عربية واحدة وعوائلٌ يابانية عدة كانت في سياحة بمركبٍ في نهر الدانوب أمدّها ساعتان. رحّتُ أرصد المجموعتين. اليابانيون لم يتحركوا طوال الساعتين. كانوا جالسين محدّقين عبر الشبابيك الواسعة «ويشربون» منظر الشاطئ وما فيه من قرى وكنائس ونباتٍ. أمّا العرب فصعدوا ونزلوا طابقي المركب اثنتي عشرة مرة. واشتروا من البوفيه الصغير في المركب كلّ ما هو متوفّر من مرطبات حارة وباردة وبسكويت وشيكولاتة. قطع أطفالهم طولَ القارب جيئةً وذهابًا عشرات المرات، فعلوا كلّ شيءٍ عدا التفرّج على شاطئ الدانوب: هدف الرحلة.

حين تقلّد الحياة الفن

طالما ظننتُ الظنونَ بثقافتنا ورميُّها بأنّها منتجٌ للخُبث والكيد بشكلٍ لا تضاهيه حضارةٌ أخرى. ولاحظتُ أنّنا نتعلّم الكومبيوتر بإتقانٍ من أجل القرصنة واستخراج كلمات مرور الآخرين وقراءة رسائل الجيران والأقارب. وهناك مكرٌّ وكيدٌ أكثر من المعدّل العالمي المسموح به دوليًا حسبما تنصُّ عليه الاتفاقيات واللوائح. ومن نتائج هذه الثقافة إيمانٌ راسخٌ بنظرية المؤامرة باعتبارها التفسير الوحيد للأمور. هذا فضلًا عن الكذب واعتباره الأصل في الأشياء. في كلّ خطوة يُطلَب منك أن تثبّت أنّك صادقٌ، حتى الأطفال يتعلّمون القسم بأغلظ الأيمان قبل أن يتعلّموا أناشيد الحضانة ويحسنوا الدعاء على أنفسهم بأنواع التعذيب والتحرّيق إن كانوا كاذبين، قبل أن يحفظوا جداول الضرب.

في رمضان من كلّ عامٍ أعود إلى التعرّف على الدراما العربية. فالشهر الفضيل شهر شوربة العدس والمسلسلات التلفزيونية. وهناك شرٌّ لا يصدّق ليس في شوربة العدس بل في المسلسلات.

حين تقلّد الحياة الفن لا تقلّد الرسم والنحت وإنّما الأعمال الدرامية. لم أرَ شخصًا يقلّد محمد غني حكمت أو عادل السيوي. كلّ الكيد في أمّتنا تقليدٌ للحبكات الدرامية غير المعقولة وكميات الشر والكذب التي

فيها. طبعًا قبل المسلسلات لم تكن عطاشى للخبث فقد كانت الأفلام العربية تقوم بالواجب وأكثر. لأنَّ هناك جيشًا من الدسَّاسين والمتآمرين الأشرار: استيفان روستي وميمي شكيب وزكي رستم.

رأيتُ في مصر رجالًا يتكلَّمون مثل عبد الفتاح القصري؛ مدرسة في نمط الكلام تقوم على تقليد الراحل عبد الفتاح القصري «المعلم»، كل بائع فواكه أو بقال أو قصاب (جزَّار) يقلد القصري. ورأيتُ مرَّةً شابة بعباءة ملفوفة على قدِّها (ملاية لف) وهي تتلوَّى في أثناء الحديث وتقول عبارات من قبيل «شيل إيدك وإلَّا أكسرها لك» وتطرق بعلكتيها مثل الأفلام. في مصر أكثر من غيرها ترى الناس وكأنَّهم شخصياتٌ من أفلام، ربَّما بسبب ازدهار صناعة السينما ورواج الدراما. عندما أنظر في حوارِي القاهرة أرى شخصياتٍ ولا أرى ناسًا، وأتذكَّر مسرحية «ست شخصيات تبحث عن مؤلف».

الشرُّ متفشٍّ عندنا لأنَّنا نقلد ما نراه على الشاشة. البعض يظنُّ العكس وإنَّ ما نراه في التلفزيون من كيدٍ وخبثٍ ودسائسٍ هو انعكاسٌ لواقعنا. لكنَّ هذا ليس ممكنًا لأنَّ الفن لا يعكس الواقع. ولو كان الفن انعكاسًا صادقًا للواقع لَمَا أنفق أحدٌ على إنتاجه ولمَّا تفرجنا عليه، ووظيفة الفن هي الكذب فالصدق لا يحتاج إلى خيالٍ، الصدق ما به إبداعٌ.

قال صديقٌ قادمًا مسلسل رمضان الذي يتابعه إنَّه لا يعكس الواقع، فقلتُ إذا كنتَ تريد الواقع بصدقٍ لا تفتح التلفزيون وافتح الشباك وتفرج.

كتب في التنصّل

تجلس في المقهى تنتظر صديقًا. لم تحضر معك كتابًا ولم تشتتر حتى جريدة فتضطرّ إلى أن تزجي وقت الانتظار بالتطلّع في الناس ومراعاة شؤونهم. الحكمة تقول إنّ عليك الاهتمام بشأنك فقط وأن تدع الخلق للخالق، لكنك تهتم بشأن الرائح والجائي وشأن البشرية والنبات والحيوان وشأن كل شيء سوى شأنك. لدى الانتظار والصمت ترتدّ إلى عرويتك الأصيلة بالتحديق في الوجوه. الأوروبيون في أيديهم كتب يدفنون رؤوسهم فيها في كلّ مكان: في المواصلات العامة وفي الرحلات وفي المقاهي. نحن نحب التطلّع في الوجوه، ونحاول أن نستشفّ علاقات القرابة في الأسرة الجالسة عند الطاولة المجاورة مثلاً. ونحب أن نتكهن بمسارات العلاقات العائلية في من نراهم، نتخيّل كلّ شيء عنهم.

وأخيرًا يصل الصديق متأخرًا ثلاثة أرباع الساعة، وبدل أن يعتذر أو حتى يلقي التحية، تكون أولى كلماته «حادث سيارة في الدوار الذي فيه الصيدليات، تعال تفرج. السير واقف تمامًا. بالكاد وصلت. زحمة زحمة». هذا هو عنوان الخبر. بعده يمضي ذاكراً التفاصيل. تلاحظ أنّه يستخدم ستمائة كلمة ليس بينها كلمة «أسف». مئات الكلمات تتدفّق شرحًا وتصوير مشاهد أبطالها سائقو سيارات وأطفالٌ يصرخون ورجالٌ

شرطة غاضبون وكل شيء. تدرك حينها أنك لن تحصل على اعتذارٍ أبداً. بعد ذاك تنخرطان في حديثٍ عن اقتراحات لتحسين حالة المرور في الدوار الذي به صيدليات.

الحكاية وما فيها أن الصديق يريد أن يرمي اللوم على السائقين والناس والزحام بل والدوار نفسه وقواعد المرور. الكل مُذنبٌ إلا هو. والاعتذار اعترافٌ ضمنّي بالذنب، ويسيء إلى الشرف ويلطخ سمعة الأسرة، والموت ولا العار. ما يفعله هذا الصديق ليس خاصاً به. هذا تقليدٌ عربيٌّ قديمٌ. حتى في مرامي الأدب وغاياته هناك بابٌ اسمه «التنصّل»، فيه أشعارٌ وبلاغةٌ وحكاياتٌ. لا يوجد باب الاعتذار، هو التنصّل ولا شيء سواه. هذا الصديق استخدم ستمائة كلمة، ولكن هناك من يستخدم مائة وخمسين ألفاً إلى ربع مليون كلمة للتنصّل.

كُتِبَ المذكرات السياسية التي ينشرها السياسيون والمسؤولون بعد تقاعدهم موضوعها للتنصّل ولا شيء سواه. هذا طبعاً إذا ظلّوا طليقين وأحياء بعد عزلهم من مواقعهم. في حياتي كلّها اشتريتُ كتابَ مذكراتٍ سياسية مرّة واحدة فقط. قرأته ولم أشتري بعد ذاك الكتاب أي شيءٍ يتعلّق بمذكرات أي سياسي، فهمتُ أن هذه كتبٌ غايتها التنصّل وتحميل مسؤولية المصائب لآخرين. إذا كان ثمة ذنبٌ فقد اقترفه آخرون. الكلُّ مُذنبٌ إلا أنت. تدوس على قدم أحدٍ فتقول له لماذا وضعتَ قدمك تحت رجلي. عشتُ طويلاً وحياتي مترعة بالأحداث والناس ولم أسمع «آسف» سوى خمس مراتٍ.

تخمين وتقدير

التخمين علمٌ له أصولٌ تُدرَس، وهي دراسة متصلة بالإحصاء وتقدير معدلات الأشياء والرقم الوسيط. وهناك معادلاتٌ ونفاضلٌ وتكاملٌ للبتِّ في التقدير. أمَّا التخمين العادي وهو الحدس فيعتمد على الحصافة أكثر من الدراسة. الصحفيون مثلاً يكتبون في تقاريرهم من موقع الحادث: إنَّ الانفجار وقع في مقهى مزدحمٍ يبعد ثلاثمائة مترٍ عن محطة الحافلات المركزية.

واضح أنَّ الصحفي المصدوم بالانفجار لم يحضر شريطاً قياس لقياس المسافة ولم يقسها حتى بالخطوات وإنَّما خَمَّن المسافة بالاعتماد على حصافته وذاكرته وتخيلِهِ للمتر والمائة متر من تجارب سابقة.

القياس في الفقه الإسلامي هو ضربٌ من التخمين العلمي. الرقم التالي في المتوالية العددية أو الهندسية - إن كنتم تذكرون المتواليات - تخمينٌ علميٌّ مدروسٌ تضبطه قواعدٌ ومعادلاتٌ صارمة لا تهريج فيها. وهناك وظائف لدى شركات التأمين صفتها مشتقة من الفعل «خَمَّن». لا، ليس القصد خامئني أو خميني بل يسمونه مُخَمَّن.

لكننا كلنا مخمّنون بالحدس أو بالمعرفة، والحياة لا تمضي دون تخمين. هناك دائماً من يريد أن يعمي بصيرة التخمين لديك ليبهرك بسعرٍ منخفضٍ أو مرتفعٍ، حسب الظرف. هناك من اشترى جاكته، مثلاً، بسعرٍ زهيدٍ بناءً على شطارته في المفاصلة مع البائع. يطلب منك أن تخمّن السعرَ ويعطيك معلوماتٍ لحملك على توقُّع سعرٍ مرتفعٍ؛ لكي تندesh أكثر من السعر الزهيد الذي دفعه.

تستطيع دائماً أن تحدث إذا كان السعرُ زهيداً جداً لأنَّ مشتري الجاكته سيطنب في مديح قماشها وتفصيلها وخياطتها على أساس أنَّه سيحملك على توقُّع المئات من الدولارات فيفاجئك بالقول إنَّه اشتراها بعشرة. حين يقول «قمّاش صوف اسكتلندي خالص، والبطانة متقنة الصنع من الساتان وانظر إلى الأزرار»، إلخ.

ثم يكمل بسؤال «كم تتوقَّع دفعْتُ فيها؟» يجب أن يغلب عليك اللؤم وتقول «خمسة» لكي تؤدّب السائل. قلّ خمسة وانظر إليه يجن جنونه ويصرخ «أقول لك صوف اسكتلندي وبطانة ساتان وأزرار، تقول بخمسة». وينبغي أيضاً أن تعجل بمغادرته لأنَّه قد يضربك فعلاً.

الذي دفع سعراً باهظاً سيفعل العكس وسيحط من قدر البضاعة ويسألك أن تخمّن السعر. نفس الجاكته لو كانت باهظة ودفع فيها ثلاثمائة دولار، سيفصفها صاحبها قائلاً: «جاكته ليست سوى خرقة قمّاش، والبطانة تقليد للساتان وأزرار بلاستيك. كم تتوقع؟» هنا ينبغي أن تقول «ثمانمائة دولار» وتتركه يُجن على راحته.

لكنّ الذين يعجبونني هم البشر غير القادرين على التخمين بالمرة.
هؤلاء ناسٌ اعتبرهم مناطق خالية من الحصافة والذكاء والخبرة. أذكر
أنني قابلتُ مزارعًا قال لي إنّ فلانًا عنده بستانٌ به سبعون ألف نخلة،
فقلتُ هذا كثيرٌ فعَدَلْتُ تخمينه «إذن سبعون».

القاعدة والاستثناء

يستخدم الفلاحون في مصر تعبيراً جميلاً في تعريف النبات الذي لم يزرعوه لكنّه يظهر طبيعياً وسط زرعهم. يصفونه بأنّه «طالع شيطاني» خصوصاً إذا كان مؤذياً أو به أشواكٌ مزعجة. جميلٌ أن يرى الإنسان أنّ كلّ مفيدٍ ومرتبٍ ربانيٌّ وكلّ مزعجٍ شيطانيٌّ. الإنسان مجبولٌ على حبِّ النظام ويرى فيه جمالاً ويرى في الفوضى والاضطراب قبحاً.

من هنا يضع الإنسان قواعد. هناك قواعدٌ يستنبطها البشرُ في كلّ يومٍ. هذا لا اعتراض عليه، لكنّ المشكلة أنّ الحياة نفسها ماشية بشكلٍ «شيطاني». الحياة تنمو وتتمدّد في كلّ اتجاه وهي عشوائية بالفطرة. لكنّ الهوسَ بالترتيب والنظام يجعلنا نضع قواعدَ سرعان ما نكتشف أنّها غيرُ صالحة دائماً.

وبدلاً من أن نعرف أنّ القانونَ الذي وضعناه لا يصلح، نصرُّ عليه ونُبقِه ونضع ما يُعرف بالاستثناءات. الاستثناءات هذه هي في الواقع قواعدٌ أخرى. وما إن تصير الاستثناءات قواعدَ حتى ندرك أنّ لها هي أيضاً استثناءات ستحوّل إلى قواعد، وهكذا.

كُلُّ يومٍ في حياتنا نخوضه وسط أدغالٍ من تراكم القواعد والاستثناءات. لعلنا لا ننتبه إلى كمية القواعد التي نخضع لها لكننا نلمسها فعلاً، عندما نتحدث بلغتنا العربية. لغة الضاد هذه خُضعت لمحاولات التكبيل بالقواعد منذ أيام أبي الأسود الدؤلي الذي عاصر علي بن أبي طالب، يعني أقدم من الخليل وسيبويه. النحويون جالسون في حجرهم يضعون قواعد ويضيفون إليها إذ تبرز أمامهم طوارئ مردّها أن اللغة عنيدة وتمضي بشكلٍ «شيطاني».

غالبًا ما يتحدّى أيُّ إعرابي أرقى قواعد سيبويه وغيره من المثقفين العلماء. يمكث العالم دهرًا يقارن ويشدّب ويهدّب ليصنع قاعدة فيأتي مارٌّ عابِرٌ من تميم يقود جملاً ويجبر النحوي على العودة إلى حجرته لينفق دهرًا آخر في وضع استثناء وشروط.

النُّحاة قرّروا أن لكلِّ فعلٍ فاعلاً. لكنهم سرعان ما اصطدموا بحقيقة أن المتكلّم يريد أن يُخبر عن حدثٍ لا غير. وهذا أمرٌ موجودٌ في كلِّ اللغات، ومن حقنا أن نُخبر عن حدثٍ وقع لا عن مرتكبه. المتكلّم يريد أن يُخبرني أن الشنطة سُرقت ولا يريد أن يُخبر عن سارق. لكنَّ النُّحاة وضعوا قاعدة وجود فاعلٍ لكلِّ فعلٍ وتورّطوا، فاستنبطوا فكرة المبنى للمجهول، وكأنَّ من يريد أن يخبرني عن سرقة الحقيقة ولا شيء سوى هذا، يتستّر على السارق ويُبقي عليه مجهولاً.

والأسخف هو أن القُدح المكسور والحقيبة المسروقة يصيران نائباً لمن كسر القُدح أو سرق الحقيبة، أو ما يُسمّى بنائب الفاعل. وكان عندي صديقٌ لا يملُّ من الشكوى من أن المرأة القَتيل في جملة «قُتِلَت المرأة» تُعدُّ نائباً للقاتل الذي ذبحها.

لغة التّضاد

حين نتكلّم ونتناقش ونعلّق نفترض دائماً أنّ هناك ضدّاً لكلّ شيءٍ . لكنّ الحقيقة أنّ الأشياء ليس لها مضادّ دائماً . تتكلّم عن سياسيٍّ بغیضٍ وفاسدٍ فتقول إنّهُ حرامي فيجيبك من يدافع عنه ببساطة قائلاً «بالعكس» .

منذ أن سمعتُ ردّاً كهذا إلى اليوم وأنا أفكر في «ما هو عكس الحرامي؟» ، أعرف أنّ الحرامي يسطو على البيوت أو المصارف . ماذا يفعل «عكس الحرامي» ، هل يدخل إلى البيوت ليلاً والناس نائمون ويضع فيها تلفزيونات وحلّيات ونقوداً؟ هل يحفر نفقاً تحت بناية المصرف ليصل إلى الخزّانة ويعالج قفلها إلى أن يفتح بابها ويضع نقوداً ويهرب؟ أظنّ أنّ من يقول «عكس الحرامي» لم يفكر في أيّ من هذا ، ويريد أن يقول إنّ ذلك السياسي ليس حرامياً . لكن اعتياد التّضادّ جاءه بفكرة عكس الحرامي وكان يكفي القول «ليس حرامياً» .

وهناك من يعني ما يقول لكنّه يظل دون تفكيرٍ . معظم المتزمتين المحافظين الذين يدافعون عن النقاب ويدعون إليه ، مثلاً ، يقولون إنّ المرأة التي لا تتنقب عارية . تقول لأحدهم إنّ ارتداء النقاب إسرافٌ في الاحتشام فيقول دون تفكيرٍ «هل تريد المرأة المسلمة عارية؟» .

كلُّنا نعرف أنَّ بين ارتداء النقاب الكامل وبين العري طيفاً كاملاً من الاحتشام والخلاعة. هناك حجابٌ دون نقابٍ، ثم نصف أكمامٍ ثم من دون أكمامٍ، بعد ذلك نأتي إلى طول الفستان وتدرُّجه وفتحة الصدر وسعتها، وهكذا إلى أن نصل إلى البكيني. كلُّ هذا والعري لا يزال بعيداً لبضع خطواتٍ. ولا أذكر أنني تحدّثتُ عن النقاب وناقشته أمام أحدٍ هؤلاء دون أن يقول هل تريدن عاريات؟ لغة التضاد لا ترضى إلا بحاليتين فقط: التنبُّ والعري، والحياة ليست كذلك. الحياة أبداً أطيافٌ وألوانٌ ودرجاتٌ.

كان لي صديقٌ يشبهني في احترامه للشحاذين واعتبارهم علامة حضارة ضاربة الجذور. المدن المتحضرة جدّاً فيها شحاذون يصفون على الشوارع والأرصفة لوناً وفناً. وفيهم من ينتجون دراما ذات فصولٍ. اذهب إلى حي الحسين في القاهرة أو إلى الدار البيضاء في المغرب، وأنا أضمن لك قضاء يومٍ كاملٍ مبتسماً مستمتعاً بالنظر إلى الشحاذين والشحاذات والأعيهم. الجاحظ يصف الشحاذين ونقاباتهم وأصنافهم في بغداد العباسية، وتشعر أنَّهم جزءٌ مكملٌ للحضارة. المهم، صاحبي هذا راح إلى إحدى حواضر الخليج الغنية جدّاً ذات العمارة الحديثة والأسواق العامرة والسيارات المبهرة.

حكى لي بحماسٍ عن كلِّ شيء في تلك المدينة وأطنب. سألته هل عندهم شحاذون؟ فقال دون تردُّدٍ: «بالعكس» قلت في سري: «حتى أنت يا بروتس». مضى على هذا الحوار سبع سنواتٍ ولا أزال إلى الآن أفكر في «عكس الشحاذ» وماذا يصنع.

تخويف ممّا لا يُخيف

نحن الآن في حمّارة القيظ. يعني في شدة حرارته وليس عندنا ما نتطّلع إليه سوى أغسطس المشتعل الحارق. في هذا شيء يشبه يناير وهو شهرٌ كثيبٌ وأسوأ ما فيه أنه يفضي إلى فبراير الأشدّ كآبة. الشهر الذي يلي مهمٌّ في كونه قد يعطيك ما تتطّلع إليه.

مهما يكن من أمرٍ، الشيء المبهج في فصل الحر هو أنّ دعاة البيئة يكفّون عن صدع رؤوسنا بالتحذير من الاحتباس الحراري وظاهرة البيت الزجاجي. ألا تلاحظون؟ أنهم ينشطون في الشتاء حين يكون الإنسان بردان ولا يخاف من الإدفاء بل ويرحب به، ويصمتون في الصيف حين يخشى المرء ارتفاع درجات الحرارة.

لسببٍ سنأتي على ذكره يختارون أن ينذروا البردان ويخيفوه من ارتفاع درجات الحرارة. انتبهوا إلى هذه الظاهرة من الآن وصاعدًا وستجدوني محقّقًا، كل عام في فصل البرد يحاولون أن يخيفونا بارتفاع درجات الحرارة درجتين إذا استهلكنا طاقة أحفورية ينتج عنها ثاني أوكسيد الكربون.

وحماقة تخويفنا بالدفء في عزّ البرد تشتمل على حماقة أخرى؛ الإنذار الأخرق الآخر، الذي لا يأبه له أحدٌ، هو ما سيحلُّ بنا إذا أشعلنا المدفأة طلبًا للدفء. يقولون لنا إنّ إيقاد المدافئ يُطلق ثاني أوكسيد

الكربون الذي يؤدي إلى الاحتباس الحراري وهذا بدوره سيؤدي، وبعد سلسلة من التأثيرات، إلى أن الدب القطبي في خليج هدسون لن يجد كفايته من السمك.

تصوّروا. يتوقّعون أننا سنظلّ نرتجف بردًا ولا نوقد المدفأة ونحمّل كلّ هذا النكد من أجل أن يجد الدب القطبي كفايته من السمك في خليج هدسون. يفترضون أن شعارنا في الحياة «نموت نموت ويحيا الدب القطبي» وهتافنا الحماسي الصباحي «بالروح بالدم نفديك يا دب».

أطفالنا يرتجفون بردًا ويطلبون المدفأة ونحن نصرخ فيهم «أي مدفأة؟ هل تريدون أن لا يجد الدب القطبي سمكًا يأكله في خليج هدسون المحاذي لهضبة اللابرادور في كندا؟».

تفسير هذه الحماقة وهذا الإنذار الذي ليس في محلّه هو أننا نقلد الغرب ونترجم كلّ شيء عنهم. في هذه الحالة التحذير غير قابلٍ للترجمة. نحن شعوبٌ تعاني الكثير وليس فيها بقية من عاطفة للقلق على الدب القطبي. «اللي فينا مكفينّا»، كما نقول.

ونحن أيضًا نستهلك طاقة أكثر في الصيف عبر أجهزة التبريد. الأوروبيون يستهلكون طاقة ويلوِّثون الجو بثاني أكسيد الكربون في الشتاء وفي الصيف لا يستهلكون طاقة تذكر. صيفهم ربيعٌ، والإنذار مصنوعٌ لهم، ويتعلّق بنمط استهلاكهم للطاقة ووجدانهم المرتاح بما يكفي بحيث يهتمهم توفّر السمك للدب القطبي.

ومع ذلك، يظلّ التحذير من ارتفاع درجات الحرارة في موسم البرد أمرًا سخيًّا.

مستودع الثأر

لا تفهموني خطأ. ليس كلُّ ثأرٍ يتضمَّن أذى أو لطمة أو شرًّا. الثأر الذي أتحدث عنه يشتمل على الهدايا والتحيَّات والابتسام. الرد فعل ثأري. من يقول لك «كيف حالك؟» ستقول له فوراً: «كيف حالك أنت؟» يعني تعامله كمن يقول: «أنت ملعونٌ» فتجيبه: «ملعون أنت».

وبهذا نستطيع أن نوَكِّد بثقة أنَّ الثأر غريزة وطبعٌ إنسانيٌّ أصيلٌ. ما أن يهديك أحدٌ شيئاً حتى تفكر في ردِّ الصاع صاعين فتهديه أنت شيئاً. حتى التحية تُردُّ بأحسن منها. يقول أحدهم «السلام عليكم» فتبادره بالقول «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» بتشفٍّ وابتسامة صفراء ظافرة. الظفر يأتي من إحساسك بإدراك الثأر.

هناك طبعاً لؤماء لا يتركون لك مجالاً لردِّ الصاع صاعين ولا يسمحون لأحدٍ أن يرد التحية بأحسن منها. ناس بلغ بهم اللؤم أنَّهم يفاتحونك بقول «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» فلا تملك سوى الردِّ بالمثل. هؤلاء يمكن النظر إليهم بتعريفين: هم إمَّا من النوع الذي يحاصر الحسنات ولا يريد لك أن تردَّ التحية بأحسن منها وبذلك تصيب حسنة، وإمَّا أنَّهم مانعون للثأر كما شرحت قبل بضعة سطور.

محاصرة الحسنات حالة موجودة، وهناك من يتعامل على أساس أن كل من يحصل على حسنة قد آذاه، وكأنَّ عددَ الحسنات الممكن أخذها محدودٌ وكل من يسحب واحدة سينقص من نصيب غيره.

في بيتنا مخزنٌ للهدايا الثأرية. أعرف علبَ البسكويت والشوكولاتة المخزونة هناك وكيف تلقيناها ثأراً من هدية مماثلة قدمناها لأحدٍ. وهناك أشياء أخرى تلقيناها من باب الثأر أيضاً. توجد «برطمانات» أو علبٌ زجاجية متوسطة الحجم تحتوي على مُربَّيات مُهداة من الجيران الإنجليز.

يصنع الناس هنا مُربَّيات بإصرارٍ، والأهم والفريد هو ما يُعرف بالتشاتي وهو ضربٌ من مخلل الفواكه في نسخته الإنجليزية (أصله هندي ومختلف) ويقف في الوسط بين المربى والمخلل. شيءٌ مثل طرشي النجف فيه خلٌّ وفيه حلاوة لكنَّه أسمك قواماً. التشاتي موضوعٌ فيه إجاص أو تفاح أو أي فاكهة تجود بها الحديقة أو آخر الصيف. الإنجليزيات من ربَّات البيوت يصنعن التشاتي وبسبب تعلق هذا الشعب بالتدوين والتوثيق، يضعن ورقة عليها تاريخ الصُّنع.

في المَجَمَّدات وعلى علب المربى والتشاتي هناك علامةٌ تدلُّ المُستخدم على المادة الموجودة وتاريخ التجميد. عشتُ في العراق ردحاً طويلاً من عمري ولم أرَ علامة على الأكياس المُجمَّدة، نعرف ما في الكيس بالتخمين. نحب المفاجآت.

أمضيتُ بعضاً من الوقت أحاول أن أتذكَّر تواريخ تلقينا كل هدية في خزانة الهدايا هذه. تمنيتُ لو كنتُ مولعاً بالتدوين مثل الإنجليز، فتحسَّرتُ وأغلقتُ بابَ مستودع الثأر.

قصص الأطفال

في ثقافات كثيرة قصصٌ وحكاياتٌ عن منشأ الأطفال. في الغرب صاحب اليد الطولى والثقافة المهيمنة يقولون إنَّ الأطفال تجيء بهم اللقلق، تحملهم بمناقيرها الطويلة الحمراء وتقذف بهم من مداخن البيوت. اللقلق فيه شيءٌ من ساعي البريد ليس لأنَّ سعاة البريد عندهم مناقير حمراء لكنَّ أرجلهم طويلة ونحيلة.

القصص هذه تزعم أنَّ الأطفال يُؤتى بهم من مكانٍ غير معلوم، ويُصار إلى توزيعهم ملفوفين بقماطٍ بسيطٍ. ويبدو أنَّ اللقلق طائرٌ حسَّاسٌ؛ إذ إنَّه يقذف بهم في المداخن باستعجالٍ واستهتارٍ بسبب الرائحة المنبعثة منهم والتي لا تُطاق بالنسبة لطائرٍ حسَّاسٍ مرهفٍ. ولا يتوقَّف اللقلق لدقيقة ليفكِّر بما إذا كان الموقد مشتعلًا والطفل الساقط من المدخنة سيروح للنار مباشرة. يبدو أنَّ الرائحة لا تُطاق فعلاً.

ولو سألت عن سرِّ ابتكار حكاية اللقلق لقليل لك إنَّها ضرورية للإجابة عن سؤال كيف يأتي الطفل؟ دون إحراج وتفصيلات محرّجة تخدش الحياء، ربما كان هذا هو السبب لكني أظنُّ أنَّ هناك سبباً آخر لا علاقة له بالحياء العام أو الخاص، أعتقد أنَّ الطفل البشري كائنٌ غريبٌ فعلاً يحتاج إلى قصصٍ تفسِّر وجوده وشكله وتصرفاته.

أنا أنظر إلى أبناء الفيل، مثلاً، أو أطفال القطّ وأراهم مشاريع فيلة أو ققط. لكنّ أطفال الإنسان لا يشبهون البشر في شيء. هم مخلوقات عجيبة تعيش بيننا. وأنا أظنّ أنّ اللقلق قد أتى بهم وقذف بهم من فتحة المدخنة.

قُرب بيتي حديقةٌ عامّةٌ وملعبٌ لأطفال البشر. عندما يكون الجو صحواً أذهب وأتفرّج عليهم من مجلس على مصطبة. أدركتُ أنني أتصرّف كمن يزور حديقة الحيوان. أتفرّج على الأشكال والسلوك والتفاعل بين هذه المخلوقات. كلهم يهربون من أمهاتهم ببهجة وحماسٍ لكنّهم لا يبتعدون سوى مترين اثنين ويتراخى حماسهم ويتوقفون.

يصاحب بعضهم بعضاً بسهولة، ويعقدون صداقاتٍ سريعة وحميمية مع أي كلبٍ يصادف وجوده وجودهم. يعقدون الصداقات على أساس الارتفاع. الكلب لا يختلف عنهم ارتفاعاً فيأمنون له ويرتاحون إليه ويمنحونه الصداقة والحب. بعد كلّ هذا يأتي من يقول إنهم بشرٌ ولم تأت بهم اللقالق من جهات غامضة!

الذي يثير عجبني من الأطفال أنني أراهم في المنتجعات السياحية المخصّصة للاستجمام. تراهم على البلاجات شأنهم شأن البشر العاملين الذين يأتون للراحة بعد عناء شهورٍ من الكدّ والعمل. أريد أن أوقف أحدهم هؤلاء الأطفال العابثين على شاطئ البحر وأسأله من باب الفضول: «ماذا فعلت طوال العام لتستحق إجازة؟ ماذا صنعت سوى الاستلقاء على ظهرِكَ وتأمّل أصابع قدميك لشهورٍ؟».

أصحاء ولئام

بيتنا محاطٌ بالأشجار، ومنطقتنا كلها أشجارٌ غير التي في الحدائق. حديقتنا فيها أشجارٌ، منها يصدر أو كسجين يكفي ثلاثمئة شخصٍ أو أكثر وكذلك بيوت الجيران. كلُّ بيتٍ ينبعث منه أو كسجين يكفي لثلاثمئة إلى خمسمائة إنسانٍ في حين يعيش في البيت الواحد شخصان. كلُّ هذا يعني أنَّ هناك وفرة في الأوكسجين وفي الأشجار وحتى الأحرار. الأشجار الكثيرة تعني إقامة مماشٍ للبشر حسنة التبليط تلتوي وتمتدُّ بين الأشجار والأحرار. المماشي بدورها والهواء المشبَّع بالأوكسجين يستدعيان الناس الأصحاء المتربضين من هواة الهرولة في الصباح والمساء أيضًا.

هؤلاء الأصحاء أراهم كلما خرجتُ، أتضايق منهم ويتضايقون مني. الهرولة والحياة الصحية ترسم على الوجه البشري نظرة كراهية دائمة. الذي يركض يعاني من ألمٍ طبعاً، في عضلاته وعظامه، بسبب الإجهاد، ولسبب سيكولوجي بحثٍ يحمِّل أصحابَ المشي الهادئ غير المتعب مسؤولية آلامه. شعاره في الحياة «أنا أنألم وأركض وأنتم لا تتألَّمون يا أنذا!».

في زمنٍ يبدو الآن سحيقَ القدم كانت القطارات فيها عربة للمدخنين. عربة كاملة مخصَّصة لغير الأصحاء. تقع هذه العربة في

وسط القطار عادة. أذكرها جيّدًا وأذكر أنّك حين تقترب منها، ومن على بُعد عربية كاملة، تسمع ضحكًا وأصواتًا ماجنة وصاخبة. عربية المدخنين بصخبها تُظهر تناقضًا عجيبًا مع بقية القطار ومسافريه. الأصحاء صامتون واجمون ووجوههم مكفهرة، يركزون على أوراق وصحفٍ بصمتٍ يعطيهم هالة من اللؤم. المفروض أنّ الحياة الصحية تطيل العمرَ لكنّ هؤلاء لا تطول أعمارُهم. الذين أراهم يهرولون قد استعاضوا عن الترهّل وكلّ ما هو غير صحي باللؤم والكمد، وأظنّ أنّ أعمارهم ستنقص من كثرة الكمد والغمّ الممزوجين باللؤم.

طالما فكرتُ في عربية المدخنين والبهجة المنبعثة منها. لا أجد تفسيرًا لبهجتهم سوى أنّ المدخنين أساسًا مخلوقاتٌ بهيجةٌ، وسعادتهم تأتي من الاستهتار. هم يعرفون أنّ التدخين مميتٌ لكنّهم يراقصون الموت. يكون الموتُ جالسًا على طاولته وهم يذهبون إليه ويقولون له «هل تسمح لنا بهذه الرقصة». الذي يراقص الموت لا يهتمُّ بشيءٍ، الذي يهتمُّ بصحته مخلوقٌ مهتمٌّ وبالتالي مهمومٌ. والمدخنون أيضًا مخلوقاتٌ متفائلة. يقرؤون الإحصائيات حول إصابات المدخنين ويرون نصفَ الكوب المملآن. إذا قيل لهم إنّ التدخين يقتل أربعة في المائة من المدخنين سيقولون ولماذا لا أكون ضمن الستة وتسعين في المائة.

نلاحظ هنا أنّ الإنسان منحازٌ بطبعه. الذين يظنون أنّهم ليسوا ضمن الأربعة في المائة من جهة الموت أو الأذى، يندبون حظّهم السيئ مستغربين جدًّا من كونهم ليسوا ضمن الثلاثة في العشرة ملايين الذين يكسبون اليانصيب.

المُشْتَبِه بِهِم

في كلِّ مجتمعٍ توجد فئةٌ معينة من الجمهور يقال لهم «المُشْتَبِه بهم»، يُلقى القبضُ عليهم روتينيًا. وهذه صفةٌ أوجدتها الشرطة القليلة الكفاءة أو تلك التي يهْمُها أن يراها المسؤول قد اعتقلتُ أحدًا بغض النظر عن العدالة وهيبة القانون، وبعدم الاكتراث تمامًا لجُرم المعتقلين أم براءتهم.

مسألة أن تصنع شيئًا لأجل أن يراك مسؤولٌ وأنتَ تصنعه، سائدة عندنا. أوّل ما تلاحظه في تاكسيات القاهرة هو طلبُ السائق من الراكب أن يمسك بيده حزام الأمان بحيث يراه ضابط الشرطة. المطلوب الإمساك بالحزام ليصبح مرئيًا وليس وضعه في موقعه المحكم. وظيفة الحزام تصير أن يراه الشرطي لا أن يحافظ على الحياة.

الفقرة أعلاه استطرادٌ، نعود إلى موضوع المُشْتَبِه بهم. في حين تحاول المجتمعات المتقدّمة تقليص دائرة الاشتباه لحدّ أن تختفي، توسع مجتمعاتنا الدائرة لتشمل الجميع. في الدول العربية ذات المولات والهاير ماركت، يُعامل القائمون على أمن المكان كلّ زبونٍ على أنّه مشروعٌ حرامي. دون خجلٍ يطلبون من كلِّ مَنْ معه كيسٌ أن يسلمه

للإدارة قبل الدخول كي لا يجد مكانًا يخبئ فيه سرقاته من المحل. هكذا وعلى رؤوس الأشهاد يجرد الزبون من الأكياس والحقائب في اتهام واضح بأنه لو وجد في يده كيسًا لما تردّد لحظة واحدة عن السرقة. الكل سُراق، النساء والرجال والأطفال أيضًا، المجتمع مكوّن من لصوصٍ.

المعنى الوحيد لهذا السلوك هو أنّك كإنسانٍ لا تجد في ذاتك ما يردعك عن السرقة سوى عدم توفّر كيس أو حقيبة تخفي فيها سرقاتك. ليس عندك رادعٌ من أخلاقٍ أو ضميرٍ أو دينٍ أو تربية. كلُّ هذا يدور بشكلٍ يوميٍّ ولا يعترض أحدٌ أو يثور غضبًا لكرامته ولإنسانيته بل تراه سعيدًا بعد هذه الاتهامات والإهانات، سعيدًا لكونهم سمحوا له بالدخول إلى متجرهم، رغم لصوصيته، لينفق دراهمه على بضاعتهم.

شهدتُ مرةً حادثًا غريبًا في سياق درء الاشتباه عن المجتمع. في خريف ١٩٨٤ بينما كان مؤتمر حزب المحافظين الحاكم ينعقد في قاعة مؤتمرات مدينة برايتون الإنجليزية الساحلية، فجّر الجيش الجمهوري الإيرلندي ليلاً قبلة ضخمة في الطوابق العليا من فندق برايتون، حيث كانت تقيم رئيسة الوزراء مسز تاتشر. لم تصب تاتشر بأذى.

فئران في المتاهة

حين نشترى شيئاً جديداً من تلفزيون إلى تليفون إلى كمبيوتر أو حتى ساعة نتسلّم مع الجهاز كتيباً يفترض أن يعلمنا تشغيل الجهاز. الأجهزة هذه معقّدة والكتيب الذي يسمونه «مانيوال» مختصّ بشرح ما غمض واستعصى من أمرِ جهازنا الجديد.

لكنّ هناك شيئاً غامضاً في ثقافتنا يجعلنا نتهرّب من المانيوال ومن قراءته ونلجأ عوضاً عن ذلك إلى طريقة الفأر في المتاهة وقطعة الجبن. لا بُدَّ أنكم رأيتم تجاربَ علمية يُوضع بموجبها فأرٌ أبيض في متاهة من العوارض والقواطع وهناك قطعة جبن في الجهة الثانية من المتاهة. الفأر يبدأ يركض ويرتطم ويحيد يميناً ويساراً، ويرتطم ويتراجع ويتقدّم إلى أن يصل إلى قطعة الجبن لا بالعقل ولكن بالشغف بالجبن. لا يحركه عقلٌ ولا فلسفةٌ ولا منهجٌ بل مجرد الرغبة في بلوغ الهدف.

هذا منهجنا مع مشغّل الدي في دي أو الهاتف الذكي مثلاً: نكبس هذا الزر وذاك ونظّل نلعب إلى أن نتوصّل إلى تشغيله ولو بعد ساعاتٍ من العناء. كلّ هذا وكتيب التشغيل موضوعٌ على طاولة قريبة ولا ينظر إليه أحدٌ. أمّا السيطرة الكاملة على الجهاز والتعرّف على كلّ فعالياته المتاحة فهذا هدفٌ قد يتحقّق بعد شهورٍ.

أذكر مرّةً أنني اشتريتُ دولابَ ملابسٍ مفكّكًا إلى قطعٍ لتسهيل حملِه. كان معه كتيبٌ يشرح كيف تركبه. لا أزال أذكر التعليمات لأنّها أدهشتني. المادة الأولى من التعليمات الصارمة تقول «اجلس. ولا تقرأ هذه التعليمات واقفًا». كنتُ واقفًا فعلاً فامتثلتُ وجلسْتُ.

الملخص: الغالبية العظمى منّا لا تقرأ التعليمات. وهناك من يسوق حجبًا وذرائع لتبرير هذا السلوك. يقولون إنّ كُتَبَ التعليمات ليست ضرورية والإنسان يهتدي بعقله وغريزته إلى ما هو صحيح. ويضربون مثالًا بالمواليد الجدد. يقولون إنّ الطفل يُؤلّد ويخرج إلى هذا العالم لوحده ولا ينزل معه كتابُ تعليمات التشغيل.

تأكّدتُ من هذه النقطة بنفسني قبل أن أذيعها على القراء. سألتُ أهل الخبرة والاختصاص ومستشفيات الولادة، والجميع أكّد أنّ الطفل ينزل لوحده وما معه أيُّ كتابٍ وأنّ الأمّ تعرف كيفية «تشغيله» بالسليقة. شيءٌ يشبه تعلّم الحلاقة بالنسبة للأولاد؛ لا أحد يعلمهم لكنهم يحلقون.

كنتُ في مؤسسة عربية بلندن فيها شخصٌ درس في بريطانيا منذ مراهقته. وكان الجميع ينظرون إليه على أنّه من إحدى طوائف الجن. كلما يعطّب جهاز يصلحه. سألته: هل تعلّمت إصلاح كلّ هذه الأجهزة هنا في بريطانيا. قال «تعلّمتُ في بريطانيا قراءة كتاب التشغيل».

حق النطق الخاطئ

حقوق الإنسان كثيرة ويزداد عددها موسميًا. والأمم المتحدة عندها لجنة كبيرة مختصة بتوسيع الحقوق ومطاردة المخالفين وتوجيه الكلمات القارصة لهم. الأمم المتحدة لا تملك سوى قارص الكلم لمعاقبة المسيء مهما بلغ مستوى إجرامه. ليس في وسعها سوى التويخ. في أحيانٍ محدودة ومعدودة تكشّر المنظمة الدولية عن أنيابها ثم تنسى الأنياب وبأصبعين فقط تقرص أذن أحد.

أتحدّث عن حق افتعله الإنسان واتّخذَه لنفسه ولم يُصدّر به قرارٌ أمميٌّ حتى ساعة إعداد هذا العمود. يمنح الإنسان نفسه حق أن ينطق الأسماء الأجنبية خطأ. ربّما لأنّ الاسم الأجنبي لا يعني له شيئاً فيروح يبحث عن لفظٍ مقاربٍ بلغته الأم.

هناك مشروبٌ غازيٌّ معروفٌ اسمه بيبسي. في الجنوب، الفلاحون يسمّونه دبسي نسبة إلى الدبس الذي يعرفونه جيّدًا. فالقرويون والفلاحون في جنوب العراق لا يعرفون العسل ويعرفون الدبس المُستخلص من التمر. في مناطق الأكراد وعرب الشمال المسألة معكوسة. ويمكن جدًّا تقسيم العراق على أساسٍ غيرِ عرقيٍّ ولا طائفيٍّ ولا جغرافيٍّ بل إلى فئتين: أهل الدبس وأهل العسل.

وما دُمنا في ذكر المشروبات الغازية المشروب الغازي الشهير الآخر الذي يُفترض أنَّ اسمَه فانتا يسميه العوام «فالتة» لأنَّ الاسم فانتا لا يعني شيئاً في حين «فالتة» اسمٌ ذو معنى ويعني سائبة. ويُقال «الدنيا فالتة» بمعنى يسودُّها الاضطراب.

الاسمان يعنيان شيئاً، أو أنَّهما موجودان، في اللغات الأوروبية. «البيسي» اسمٌ مأخوذٌ من اسم بيسين وهو اسم أحد الأنزيمات المساعدة على الهضم، وفي اللغات الأوروبية يقولون «يعاني من الديس بيسيا» بمعنى عسر الهضم والحموضة. الاسم الثاني، فانتا، مألوفٌ لديهم أيضاً في كلماتٍ من قبيل «فانتاستيك» و«فانتاسيا».

وهناك أيضاً علاج تلبُّك المعدة والغازات لدى الأطفال (واسم هذا العارض «غرايب» بالإنجليزية). العلاج اسمه «غرايب ووتر» أي ماء الغرايب والناس عندنا تسمِّيه ماء غريب. كانت الناس تعطيه للأطفال الرضع، وتقسم بفاعليته في إرسال الطفل إلى عالم الأحلام وابتسامة على وجهه، ثم اكتشفوا أنَّه يحتوي على الكحول.

وفي أحيانٍ كثيرة لا يجد ناسُنا كلمة مقارنة للاسم الأجنبي فيضطرون إلى ترديد الاسم الأصلي بمقارناتٍ وتقريبٍ. ويبلغ بهم التسامح مع الاسم الأجنبي وتقبُّله حدَّ أن يصير الاسم جزءاً من العربية، يُصرَف وتُشتقُّ منه أفعالٌ. فصار الكنس بالمكنسة الكهربائية يُسمَّى «هوفر»، ومسحوق الغسيل، مهما كانت علامته التجارية، اسمه «تايد» بحيث يمكن أن يسأل سائلٌ «أي نوع تايد تستخدمون؟» ويكون الجواب «سيرف».

مولع بالجبل وفاجنر

لو صادفتَ جبلاً، وهذا يحدث لبعضِ الناس، فانظر إليه وتأمل وتفرج وافعل أيَّ شيءٍ عدا أن تتسلَّقه. لا أدري ما الذي يدفع الناس إلى تسلُّق الجبال. الجبل شيءٌ جميلٌ وملهمٌ ودراماتيكيٌّ، بل وحتى أوبراليٌّ، وفيه شيءٌ من فاجنر ولكن للنظر لا للتسلُّق.

قرأتُ أنَّ هتلر كان مولعاً بالذهاب إلى بيتٍ له على قمة جبلٍ يُقال له عَشُّ النسِر. واحدٌ من خاصته ذكر أنَّ الفوهرر نظر مرَّة إلى جبال الألب من حوله ودمدم: أرى دماءً ودماءً والمزيد من الدماءِ.

هذا مشهدٌ فاجنري يليق به شيء من البرق والرعد. وأذكر أنني كنتُ في مطعمٍ في جبال العلويين قرب اللاذقية ذات ربيعٍ سوريٍّ عاصفٍ. ورأيتُ الجبالَ يضيئها البرق ودمدمت «أرى دماءً ودماءً والمزيد من الدماءِ». وقد حصل.

المشكلة في تسلُّق الجبال هي أنَّ الجبل ملهمٌ وأوبراليٌّ كما قلنا، ولكن بالنظر إليه. من يعتلي شيئاً لا يراه. في مدن أوروبا القديمة ذات العمارة القوطية أو تلك التي يسمونها القروسطية (نسبة إلى القرون

الوسطى) للكنائس فيها أبراجٌ مدبَّبة ذات فتحاتٍ مقرنصة وحجر بنائها مزخرفٌ.

ترى أفواج السائحين بمجرد أن يشاهدوا برجًا جميلًا مدهشًا حتى تتملكهم رغبة صعوده، وتسلك أكثر من مائة درجة لبلوغ قمته والوصول إلى نقطة يروُن منها كلَّ شيء عدا البرج الذي أُعجبوا به. حين تكون في أعلى البرج لا تراه.

يحصل هذا أيضًا في مدينة سامراء العراقية. فيها هيكلٌ عماريٌّ حلزوني جميلٌ وفريدٌ اسمه «الملوية». ويقال إنه حتى رائد الحداثة في العمارة فرانك لويد رايت زار الملوية التي رأى صورَها عندما كان يفكر في تصميم متحف جوجنهايم في نيويورك. الملوية يتسلَّقها الزائرون، أي يمشون في طريقٍ مترَّب من القرن التاسع يرتفع بهم ثم ينحدر بهم لدى النزول، ولا يروُن بهاء الهيكل العماري نفسه.

خيرٌ من انتبه إلى أنَّ تسلُّق المكان المرتفع يعني ألا تراه كان الكاتب الفرنسي جي موباسان. كان موباسان هذا يمقت برج إيفل الذي اكتمل بناؤه عام ١٨٨٩ وموباسان عمره ٣٩ عامًا. كان صاحبنا يكره أن يرى هذا البرج الحديدي المنتمي إلى عصر الفولاذ والصناعة. المشكلة أنَّ البرج ارتفاعه ثلاثمئة مترٍ، وهو أعلى مبنى في باريس حتى الآن.

هذا يعني أنَّك تراه وأنت تتناول غداءك في أي مكانٍ في باريس القرن التاسع عشر. عرف موباسان أنَّ في البرج مطعمًا. صار يتغذى هناك كلَّ يومٍ حتى لا يرى البرج الكريه. هذا هو الإجراء الصحيح.

عُدنا إلى الأمية

الناس، فقيرُهم وغيثُهم، يحتاجون اللغة ويعرفون استخدامها ولو بتفاوتٍ في القدرات. بائع الخضروات ومحافظ البنك المركزي يستخدمونها بطلاوة كلٍّ حسب اختصاصه. الأول يشيد بالبانجنان الذي لديه ونضارته، والثاني يجمّل في أعين الناس خفض أسعار الفائدة. وكلاهما يخفيان الحقائق بالطلاوة وذراية اللسان، ولكن أولاً وأخيراً باستخدام اللغة.

أتذكّر دومًا عبارة للدبلوماسي الفرنسي العبقري تاليران إذ يقول «لقد اخترع الإنسان اللغة لكي يخفي أفكاره». لو كنّا من دون لغة لفضحتنا نظراتنا وتعابير وجوهنا ولمّا كذب أحدٌ على أحدٍ. «الصبُّ تفضحه عيونه» كما تقول أم كلثوم. وهناك شيء اسمه «الفراسة» وهي معرفة تقوم على تكذيب اللسان ومطالعة الوجه والحركات والتعابير وحركة العينين وما إلى ذلك.

على أي حال، اللغة اختراعٌ ناجحٌ. وأدّت إلى اختراعٍ ناجحٍ آخر وهو الكتابة. هذه اختراعاتٌ لا يفكر فيها أحدٌ لأنها ناجحة تمامًا. الاختراع الناجح يكون منسيًا ومُهْمَلًا لأنّه ضروريٌّ ومستخدَمٌ كلَّ يومٍ إلى حدِّ الابتذال وضياح الاندهاش.

القراءة والكتابة وفدتْ على اللغة متأخرة لتسهيل التدوين. عاشت اللغات قرونًا عديدة في مجتمعاتٍ تسودها الأمية. ولا يزال عندنا ميلٌ طبيعي للكلمة المنطوقة والمسموعة. وهناك اليوم تقنيات تسهّل التواصل دون كتابة. وبعد أن أنفقت البشرية جهودًا في استنباط التدوين، ألاحظ أننا عُذْنَا إلى عصور ما قبل التدوين. هناك، مثلاً، كاتب مشهور اسمه محمد حسنين هيكل وهو كاتبٌ بارعٌ، لكنّه قضى سنواته الأخيرة دون كتابة بل راح يتكلّم فقط. تراه في قنوات التلفزيون محاورًا مخاطبًا لكنّه لا يكتب. بعد أن كان يكتب ونحن نقرأ، صار يتكلّم ونحن نسمع، ضمن عودتنا المباركة إلى عصر الأميّة.

الكتابة والقراءة تذهب وتجيء لكنّ اللغة ثابتة. وهناك نظريات كثيرة حول نشأة اللغة، وكيف توصّل الإنسان إلى إجماع في كلّ بيئة على أصواتٍ معينة وكونها تشكّل كلماتٍ ذات معنى. النظريات كثيرة كما هو متوقع. لكنّ هناك نظرية واحدة تعجبني وأتمنّى أن تكون هي الحقيقة. التصوّر هذا لبدء اللغة وضعه شخصٌ متعدّد المواهب لكنّه سفيهٌ.

اسم صاحب النظرية مايك هاردنج. يقول إنّ الإنسان كان صامتًا وليست عنده لغة. كان يعيش على الأغصان في مجتمعاتٍ يطبق عليها الصمت. وفي ذات غروبٍ وبعد قرونٍ من الصمت نطق واحدٌ ممن يجلسون على الأغصان. نطق أوّل كلمة وكانت «ضجرت». وفجأة نطق الجميع قائلين «وأنا أيضًا». ثم ساد الغابة والأشجار لغوٌ وضوضاء. ألم أقل لكم إنّهُ سفيهٌ وأنا أتمنّى أن يكون محقًا.

قصة استفتاءين

منذ زمنٍ كنتُ في المنطقة المحيطة بالسفارة العراقية بلندن. كان ثمة مطعمٌ بئسُ أكثرَ بؤساً حتى من المطعم المصري قرب سفارة مصر. هذا المطعم لم يكن عراقياً بل إنجليزياً مهترئاً.

كان ثمة رجلٌ ضخْمٌ وله بنية مصارعٍ أو ملاكمٍ. شكله عراقي، تراجع السفارة وجوعان في نفس الوقت. كان عنده طبقٌ سمكٍ وبطاطس مقلية (فش أند تشيس) سيئ الإعداد.

دخل رجلٌ إنجليزي واضحٌ أنّه من السّفلة، حليق الرأس وجسمه مزينٌ بأنواع الوشوم، وأنفه وأذناه فيهما ثقبٌ ودبابيسٌ. كان يريد أن يهين أحداً. واضحٌ أنّ عنده كمية من الحقد والضعينة جُمِلهما يرهقه ويريد التخلص منهما.

اختار المرقش الإنجليزي صاحبنا المصارع العراقي ليفرغ فيه حمولة البغضاء التي ترهقه. وقف بإزائه وانهاه عليه بالشتائم والإهانات من كلّ الأصناف وصاحبنا يفهم وينظر بعيداً. حدستُ أنّه يفهم ما يُقال من نظرة التخاذل والاستخذاء في عينيه المتفاديتي النظر إلى المرقش.

أفرغ المعتدي سموه وغادر. تبادل المصارع العراقي نظراتٍ معي وتقدّم لي بتفسيرٍ؛ قال إنه إذا أدّب هذا الحيوان أو ضربه فسيقول الحاضرون: «عراقيٌّ همجيٌّ وغير متحضرٍ» وينسون كلّ عدوان الإنجليزي. ربما كان محقًّا.

لكنّ الذي يستوقف هو حساسيته المفرطة وخوفه من أن يُقال: «غير متحضر». هذه الخشية ترسم معالم سلوكنا وردود أفعالنا. الروس يشبهوننا في هذا وعندهم صفة «غير متحضر» سائدة، وخصوصًا لدى أهل القرى، في الانتقاص من أحدٍ.

والصفة، وتُقال بالروسي «نيكولتورني»، مقبولة الاستخدام، كما هي باللغة الإنجليزية أيضًا. وعندما ضرب خروتشوف طاولة الاجتماع في الأمم المتحدة بحذائه كان التخلّص منه في الاتحاد السوفيتي سهلًا لأنّ سلوكه «نيكولتورني»، وبهذا يكون قد فضحنا أمام الذي يسوى والذي لا يسوى.

في الأيام الأخيرة تصرّفت حكومتان نحو حدثٍ يكاد يكون متطابقًا بشكليّن مختلفين تمامًا. فقد أعلن إقليما كاتالونيا في إسبانيا وكردستان في العراق عزّمهما على إجراء استفتاء على الاستقلال.

الحكومة الإسبانية أوروبية غربية، والبلد عضو مهمّ في الاتحاد الأوروبي. إسبانيا ليست عندها عقدة «ماذا سيقول الناس عنا» فتصرّفت على أساس أنّ الدعوة لاستفتاء على استقلال الإقليم خرقٌ للدستور. ووظيفة الدولة معاقبة الخارج عن القانون.

أرسلت مدريد رجالَ الدرك، وصادرت أوراق الاستفتاء، واعتقلت عددًا من دعايته. في حين استُخِذَت حكومة بغداد وانكُمشت، ولم تعاقب الخارجين عن القانون في كردستان. سلوك حكومة بغداد أعاد إلى ذاكرتي صورة ذلك العراقي في المطعم البائس في لندن. أخشى ما تخشاه حكومة بغداد أن يُقال عنها نيكولتورني.

قبيلة تغلب وأسماء الأشياء

عندي حكايةٌ أروبيها من الذاكرة، لذلك تجدونها تحتوي على «أظنُّ» و«لعلَّ» والأدوات الأخرى المختصّة بالتملُّص من المسؤولية. الحكاية تبين أهمية أسماء الأشياء، وكيف أنَّ الاسم يغلب على التعريف الصحيح.

الحكاية تقول إنَّ هناك قبيلة عربية، أظنُّها تغلب، تسكن نواحي بادية الشام والجزيرة منذ الجاهلية. القبيلة هذه مسيحية، وبهذا صار عليها أن تدفع الجزية عندما فتح المسلمون بلاد الشام.

فهم أبناء القبيلة الجزية على أنَّها مُهينة ويدفعُها من هو صاغرٌ، وهذا ما يأبونه تمامًا. جاء محاسب الوالي وحسب ما عليهم أدأؤه فرفضوا الدفع طالما هي جزية وإذعانٌ. لكنَّهم كانوا يقبلون أن يدفعوا الأموال إذا لم يكن اسمها جزية، واقترحوا أن يدفعوها على أن يكون اسمُها صدقة. هنا تبرز العقلية العربية. الخليفة نفسه وهو عربيٌّ طبعًا قبل بهذا الحلَّ، وقال ما معناه أنَّ المهمَّ أن يدفعوا الأموال وليسموها ما شاؤوا.

أيّنا أنظر أجد ناسًا يهتمون بالأسماء أكثر مما هو ماديٌّ وملموسٌ فأتذكر قبيلة تغلب. تذهب إلى السوبر ماركت وترى شابًّا يافعًا يمسك بثمار الليمون الحامض بعناية ويمسحها ويرصُّها على الرف. وترى

على صدره بطاقة تعريفية تذكر اسمه وتصفه بأنّه «المسؤول الأعلى عن ثمار الليمون وبعض الحمضيات».

أنا متأكد أنّ هذا الشاب طالب بزيادة في راتبه لكن أصحاب العمل رأوا أنّ الأفضل أن يرفعوا من قدر لقبه الوظيفي لا من راتبه، وهو الخيار الأرخص.

تجد شباباً كهؤلاء في ماكدونالد وستاربكس وغيرها من المحلات ذات العمالة الشابة. كلُّ عنده لقبٌ رنانٌ وأخاذاً: هذا مشرفٌ أعلى، وذاك مستشارٌ أقدم، وهذا رئيس قسم، وعملهم لا يزيد عن نقل القهوة إلى الزبون أو مسح الطاولات. ولعلّ هناك الملايين من المساكين قرأوا الأوصاف الرائعة في عنوان الوظيفة وتقدّموا لها وصُدِّموا بتدنيها مقارنة بالإعلان.

والبدع لا تنتهي ولا تعرف حدّاً. الآن يشهد العالم موجة ألقابٍ فضفاضة من نتاج مخيلات متألقة في استنباط اللقب الرنان. قرأتُ إنَّهم في أمريكا صار عندهم وظيفة «فني تعزيز الشفافية»، وهو لقبٌ جديدٌ لمنظف النوافذ. أو فتاة لقبُها الوظيفي «مسؤولة الانطباع الأول» وهذا يعني أنّها موظفة استقبالٍ بسيطة، أمّا «مستشارة التغذية في المعاهد التعليمية» فهي طبّاخة في مدرسة.

ويبدو أنّه كلّما تسامى اللقبُ كلّما تدهور الموقع. وإذا كنتَ جالساً في مطعمٍ أو مقهى ورأيتَ رجلاً يحمل على صدره بطاقة تعريفٍ تقول «رئيس جمهورية الكون»، فاعلم أنّك إزاء ماسح الطاولات.

أمة الـ«تيك أوي»

الأكل مناسبة اجتماعية وليست فردية أو وحدانية، أي أنها لا تشبه الاستحمام أبدًا، رغم أن هناك حالات استحمام جماعي في الجاكوزي الياباني والسونا الإسكندنافي، لكن الاستحمام يظل في أساسه فعالية فردية مضجرة تبعث على الكآبة. كل هذا محل اتفاق وإجماع.

لكن كون الأكل مناسبة اجتماعية لا يعني أن الإنسان يستمتع بالمطعم. إن الأكل اجتماعيٌّ بمقدار ما أن الصحبة على مائدة الطعام هي صحبة أصدقاء وأحبة دون وجود طاولات أخرى تتطلع فيك وتستمتع إلى هذرك وثرثرتك.

المطعم ليس من ثقافتنا. نحن أصحاب حضارة مدونة ومرصودة بتفصيلاتها اليومية. نحن مثلاً نعرف رئيس الكنائسين في بغداد في القرن التاسع (اسمه نوفل لمن يريد أن يعرف). التدوين لدينا ليس حكرًا على أخبار ذوي الشأن من القادة والأمراء، بل يشمل الكنائسين ومرقصي القروود والحلاقين والمختشين وحتى باعة الثلج. في كل هذا التدوين الدقيق والواسع لم أقرأ عن مطعم ولا حتى في ألف ليلة وليلة أو عند التنوخي. هناك «تيك أوي» دائمًا. الناس إما يطبخون في بيوتهم وإما يعيشون بغلام إلى السوق ليشتري سمكًا مقلًا مثلاً ويعود به ليؤكل في البيت.

الناس عندنا لم يفظنوا إلى أننا أمة تيك أو اي ويظنون أنها، مثل الدليفري، بدعة غريبة ويذهبون إلى المطاعم رغم أن عندهم في البيت أطعمة جيدة أو عندهم في الثلاثية مكونات وجبات شهية. ومنذ دخولهم المطعم إلى الانتهاء منه تتوالى المنكدرات.

أولاً يجلسونك حيثما يشاؤون هم لتسهيل حركة الجرسون ولا اعتبار لذوقك في اختيار المكان. وما إن تجلس وتنفق نصف ساعة في انتظار أن يحنّ عليك الجرسون بنظرة، حتى تشم رائحة شيء يحترق وتكتشف أنها أعصابك.

يأتي الجرسون ليسألك سؤالاً لا يوجد أسخف منه. يقول بأدبٍ مفتعلٍ «هل تريد أن ترى قائمة الطعام؟» هنا تدمدم مع نفسك «وكيف لي أن أطلب طعاماً إذن؟ يبدو أن الأفضل هو أن أنظر إلى اللطخ على ثيابك وأحمن ماذا طبختم اليوم».

بعد واقعة الجرسون ووفود الطعام، بعد انتظارٍ يأتي جرسون آخر عجيبٌ بيده طاحونة فلفل أسود خشبية جبّارة يبدو أنهم سرقوها من بيت أحد العمالقة. يسألك الوافد الجديد ذو الفلفل الأسود «هل تريد شيئاً من الفلفل على طعامك؟».

لا يهمني كيف خطّط هذا الرجل لمستقبله وكيف اختار مهنته. الذي يشغلني هو أنهم إذا أرادوا استبداله ماذا يكتبون في الإعلان في وصف الوظيفة الشاغرة، مطلوب طحان فلفل أسود، مثلاً.

الـجبال الطويلة والقـصيرة

ما أعرف لماذا يحظى الجبل بكلّ هذا الاهتمام في كل الحضارات. مسألة غامضة واهتمامٌ لا يفوز به الكرسي مثلاً رغم أنّ الكرسي نراه كلّ ساعة ونستخدمه كلّ يومٍ وكذلك الصحن. لا نرى الجبل إلّا نادرًا لكنّنا منشغلون به.

أذكر في طفولتي أنّي رأيتُ مظاهرة في بغداد يسودها هُتاف «ماكو مؤامرة تصير والجبال موجودة». يعني: لن تكون هناك مؤامرة ما دام هناك جبالٌ. المعنى شريّرٌ والجبال هنا ليست لنشر الغسيل أو لربط القوارب بل للشنق أو السحل وربما استخدام شريـر آخر. الشنق معروفٌ لكنّ السحلَ بحاجة إلى توضيح.

السحل كان من وسائل العمل السياسي في العراق في نهاية الخمسينيات، ويقوم على فكرة بسيطة وهي أن تربط الخصم بجبلٍ وتجرّه، أي تسحله، في الشوارع حتى الموت، وبهذا تكسب المناظرة الفكرية وتتخلّص من الخصم وصداعه.

وفي الجانب اللطيف من نعوت الجبل هناك شعراً لسويد بن أبي كاهل يقول فيه: «بسطتُ رابعةَ الجبلِ لنا- فوصلنا الجبل منها ما اتسع». وهكذا ترى الجبل يتحوّل من الشنق والسحل والشرّ إلى الوصل والودّ والعلاقة الطيبة.

ولدى الحديث عن الجبال ومناقِيتها يُستحسن ألا نتخذ منهجاً ونترك الجبلَ على الغارب، أي ننداعى ونجعل الفكرة تدعو الفكرة والجبل على الجرار.

في مصر يقولون إنَّ المحاكم حبالها طويلة ولا نعرف ماذا يعنون. رأيتُ محاكمَ كثيرة ولم أرَ لها حبالاً. أعتقد أنَّهم يريدون القول إنَّ اللجوءَ إلى القضاء يستغرق وقتاً. ويُقال أيضاً إنَّ حبلَ الكذب قصيرٌ، لكنَّ الكذبَ يأخذ وقتاً طويلاً في السرد، دائماً أطول من الحقيقة، فالكذاب يورد أموراً تفصيلية.

وقرأتُ أنَّ ولي عهد بريطانيا في مطلع القرن العشرين دعا نبيلًا إلى القصر، أيام التلغراف، فجاءته برقية اعتذارٍ يقول النبيل فيها «لن أستطيعَ الحضورَ، وسأرسل الأكاذيبَ في رسالة عادية». هذا لأنَّ البرقيات سرعُها بعددِ الكلمات، والكذب طویلٌ ويستغرق المئات من الكلمات. في العراق يقولون عمَّن مات إنَّه قرضَ الجبلَ. وهناك مثلٌ فارسيٌّ يعجبني يقول إن أردتَ استعارة حبل الغسيل من جارك وقال لك لا نستطيع إعارته فنحن نستخدمه الآن لننشر عليه حبوب السمسم لتجفَّ، فعليك أن تقبل الحُجَّة لأنَّ الجبل حبله ولا يريد إعارته.

تذكرتُ المثل الفارسي عندما راح مراسل صحيفة الجارديان في مطلع الثمانينيات إلى تيرانا لمقابلة الرفيق أنور خوجة زعيم ألبانيا. ظلَّ المراسل الإنجليزي في تيرانا ولم يقابله الرفيق أنور خوجة. انتظر وانتظر حتى كاد يزهد.

وفي ذات صباحٍ موعودٍ جاءته رسالة قصيرة من مكتب الرفيق
خوجة إلى فندقه تقول «الرفيق أنور خوجة لا يستطيع أن يقابلك لأنّه
مشغولٌ ببناء الاشتراكية». الحُجّة مضحكة مثل نشر حبات السمسم
على جبل الغسيل، لكنّها كافية.

عمى الأرقام

هذا أكثر أنواع العمى انتشارًا. أحيانًا أظنُّ أنَّ العالم ليس مسرحًا كبيرًا كما يقول شكسبير، وإنَّما ليس سوى نادٍ اجتماعيٍّ كبيرٍ للمصابين بعمى الأرقام. يفاجئك العارف والجاهل بقول شيء لا تفسير له سوى الإصابة بذلك العمى.

كان بصحبتى يومًا رئيس تحرير نشرة العاشرة مساءً في التلفزيون التجاري البريطاني. أخذنا الحديثُ إلى العراق في أعقاب الغزو. كانت الموضة يومها الحديث عن المقابر الجماعية، وهو موضوعٌ توقَّف اللغظ فيه فجأةً ربَّما لندرة تلك المقابر فتلاشى الكلام مثل أسلحة الدمار الشامل.

كانت البي بي سي قد صَوَّرت تقريرًا عن مقبرة جماعية، لعلَّه التوثيق الوحيد. سألتني صاحبي كم تقدَّر عددَ الجثث التي أظهرها التقرير؟ فأجبتُ بإخلاصٍ قرابة سبعين. فعاد يسأل «لعلَّك تقصد سبعين ألفًا؟» فقلتُ «أقصد سبعين فقط».

هو رأى التقرير نفسه، وهو صحفيٌّ مخضرمٌ وواعٍ لكنَّه أُصيب بعمى الأرقام. الشوشرة وكثرة الكلام عن الآلاف وعشرات الآلاف، كما كان سائدًا يومها، أعماه وصار يرى السبعين سبعين ألفًا.

في أعقاب الثورات العربية أُصيب الجمهور الكريم بعمى الأرقام بشكلٍ وبائيٍّ. بدأت الحالة من تقدير عدد المتظاهرين، وتوسَّعت لتشمل ثروة الحُكَّام التي يُفترض أنَّهم سرقوها من الشعب الفقير وهربوها إلى الخارج.

لم تعد هناك مظاهراتٌ بل صار هناك ما يُعرف بالمليونات. الذي يقول مليونيات لم يشاهد مليونَ إنسان ولا يستطيع أن يتخيَّل ذلك. صارت الجماهير تستسهل المليون، وبلغ الأمر حدَّ الزعم بأنَّ هناك مظاهرة شارك فيها ثلاثون مليون إنسانٍ.

أمَّا ثروات الزعماء المخلوعين فراحت تتضخَّم وتتجاوز بيل جيتس نفسه. وصل الرقم في مصر إلى سبعين مليار دولار لثروة الرئيس المخلوع حسني مبارك التي يكتنزها في الخارج. وصار المليون رقمًا حقيقياً ومبتدلاً؛ من عنده سبعون مليون دولار فقيرٌ وزاهدٌ، والمظاهرة ذات المائة ألف مشارك هزيلة ولا تستحق الذكر.

الغريب أنَّ الإنسان الذي يستهين بالمليون ولا يرضيه سوى الألف ضعفٍ لكلِّ شيء، هو نفسه لو قلت له وهو عائدٌ من السوق: هل اشتريتَ طناً من الطماطم؟ لَاتَّهَمَكَ بالجنون، وإن قلتَ له إنَّ مكتبك يبعد عن بيتك عشرة آلاف كيلومترٍ لأمسك بتلابيبك وصرخ فيك مستهجنًا.

الألف ضعفٍ يبدو أنَّه مقصوَرٌ على عدد المتظاهرين وما اختلسه الحُكَّام وربما يشمل المدفونين في المقابر الجماعية. ولو مدَّ الله في أعمارنا عقدين آخرين لبلغت ثروة حسني مبارك سبعين تريليون دولار ولوصلت أعداد المشاركين في أيِّ تظاهرة ستة مليارات إنسان (سكان كوكب الأرض) في القاهرة وحدها.

اللوائح والقوانين والأعراف

سلوكنا مقيّد ومحدّد بأشياءٍ، ولا مكان في حياتنا لحرية مطلقة. هناك لوائح وقوانين نراعيها إلّا إذا كنّا متفائلين جدًّا بكوننا محظوظين ولن يضبطنا أحدٌ متلبسين بفعلٍ يخرق القانون. أستخدم كلمة التفاؤل في محلّها وأقصدُها تأثّرًا بجون مورتيمر، الكاتب الإنجليزي الذي يعزو ارتكاب الجرم إلى التفاؤل، على أساس أنّ المجرم يعتقد أنّ أحدًا لن يقبض عليه.

المرء لا يرتكب جُرمًا إلّا إذا كان واثقًا بأنّه سينجو بجرمه ويفلت، وهذه قمة التفاؤل. لكنّ سلوكنا محدّد بأشياءٍ أخرى غير القانون، أشياء أهم وأخطر ولا نريد أن نخرقها، دون أن تكون مفروضة بالقوة وليست هناك شرطة تشرف على الالتزام بها.

لا يوجد قانونٌ يمنعك من الضحك وتبادل النكات في جنازة أحدٍ. لكنّك تلتزم بالتجهم حتى وإن كانت المناسبة ليست حزينة فعلاً، وحتى إن تملكك رغبة في الضحك. لا يوجد قانونٌ، على حد علمي، يجرم الضحك في الجنائز. أنا أتحدث عن الأعراف والتقاليد التي نراعيها بحذرٍ أكثر من القوانين ذات العقوبات. لا أحد يتحيّن الفرص للضحك

في الجنازة لكنَّ الإنسان يتحيَّن الفرص لكسر قوانين المرور، مثلاً، والضرب عرض الحائط بالإشارة الضوئية، إذا بلغ به التفاؤل حدَّ أنه يعتقد أنَّ أحدًا لا يراه.

المهم، هناك شيءٌ اسمه «العيب»، تمنعه الأعراف فقط، ويتوصَّل المجتمع إليه بالإجماع وبالتراضي والالتزام به لا يحتاج شرطة.

وهناك عيوبٌ محلية وأخرى كونية. وهناك أحياناً عيبٌ كونيٌّ لكن بدرجاتٍ نهجيَّ مختلفة. هناك حضاراتٌ تمنعه تماماً وهناك من يخفّفه. مثال على هذا العيب دس الإصبع في المنخر. الأطفال بالذات يرونه أمراً طبيعياً ويستهوهم تطابق قُطر إصبع السَّبَّابة مع قُطر فتحة المنخر. وبلغ بهم الحال أنني سمعتُ رأي طفل يقول إنَّ الغوريلا منخره واسعٌ جداً لأنَّ أصابعه كبيرة جداً. وهكذا يكون المنخر المأوى الطبيعي للسَّبَّابة.

كلُّ هذا يقودني إلى حكاية عراقي يعيش في ألمانيا وفد عليه زائرٌ من العراق وأقام لديه. العراقي الوافد المكتمل الشهامة لاحظ امرأةً ألمانية في العمارة التي يسكن فيها مضيفه تحمل أكياساً ثقيلة وكثيرة وهي حاملٌ ولها بطنٌ ممتدَّة لأكثر من مترٍ أمامها.

هرع العراقي الشهم لمساعدتها، وقال لقريبه أين زوجها ليحمل عنها، فقال له القريب إنَّها غيرُ متزوجة وحملها أمرٌ عادي هنا. ذهل الضيف العراقي ووقف متأملاً ودس إصبعه في أنفه فقال المضيف: أخرج إصبعك، عيب.

فصرخ العراقي الشهم: «عيب؟ حامل من غير زواج، عادي. ودس الإصبع في الأنف عيب؟».

معارف ومطاعم

يُفد العربُ على الغرب وينقلون معهم عاداتٍ وثقافاتٍ ومأكلاً ومشاربَ. العرب يحبُّون طعامَهم ويتعلَّقون به وبسببه، ربما، لم تُعد لهم فتوحاتٌ. الشعوب التي تمضي في الفتوح وتقاتل بشراسة في أنحاء الأرض غالباً ما تكون شعوباً سيئة الطعام. وعندما يتحسَّن الطعام تترك الشعوب أو على الأقل يصير لها ما تشتاق إليه ولا تطيق الابتعاد عنه.

من لا يصدِّق الاستنتاج هذا أحيله إلى الفتوحات العربية وضراوتها عندما خرج العرب من صحرائهم بحيث يبدو كلُّ مكانٍ يحلُّون به أجمل وذا طعامٍ أحسن مما لديهم. ويمكن الإحالة إلى الإنجليز، في قرونٍ خلت، وأكلهم الرديء جداً، مصحوباً بطقسهم السيئ طبعاً، حينها حكموا العالم وكانوا يجدون طعاماً أطيبَ ممَّا لديهم في بلادهم فيطيب لهم أن يظلُّوا مندفعين في الفتح لا يجذبهم شيءٌ إلى الوطن.

العرب الذين يأتون إلى الغرب ليسوا كلهم مهندسين وعلماء أو كُتَّاباً ومثقفين باحثين عن رئة يتنفَّسون بها في ما يعرف بحرية التعبير. هؤلاء موجودون طبعاً، لكنَّ الأخطرَ منهم وأهم هم البقالون والطبَّاخون وصانعو البقلاوة وبائعو الخضراوات. يفتح هؤلاء محلاتٍ لنجدة العربي الذي يضيق ذرعاً بطماطم الإنجليز المتساوية الحجم والتدوير التي تبدو مثل كرات البليارد.

بائعو الخضراوات لا ينقلون معهم قدراتهم على اقتناص البامية الجيدة وانتقاء الخيار الطازج والطماطم الريانة وحسب بل يجيئون وبمعيّتهم شيءٌ أخطر ولا لوجود لمثله في الغرب. يجلبون معهم معارفهم التي لا تنتهي في كلّ شيء وفي أي موضوعٍ عدا الخضراوات. يتكلّمون في الزلازل وسقوط الحكومات وجرائم الخمير الحمر وحرب فيتنام ولا يوفون الفلفل الأخضر حقه من العناية والاهتمام.

بائع البصل الفلسطيني، مثلاً، أو بائع البطيخ المصري يقول لك بلهجة ملؤها اليقين وبشكلٍ حازم «اسمع مني، أنا أخبرك بما قال ريجان لجورباتشوف في قمة ريكيافيك في آيسلندا». وأنت تعرف أنّ اجتماع القمة ذاك غير العالم وأنهى الحرب الباردة وكان لقاءً تعمّدوا أن يكون في عاصمة بعيدة في بلد مثل آيسلندا لا يزوره أحدٌ وخلف أبوابٍ موصدة تمامًا. ما دار هناك من حديثٍ لا يعرفه أحد سوى باعة الخضراوات العرب.

هذا الادعاء بمعرفة كل شيء عن أي شيء ليس حكرًا على باعة الخضراوات عندنا. هناك الإسكافي وآراؤه العسكرية وسائق التاكسي وطرقه الناجعة لحلّ الخصومات الدولية، ونادل القهوة وعلاجه للسكري والسرطان وأمراض مستعصية أخرى باستخدام البصل وقشور البطاطس.

هذا يوحي أنّنا تجاوزنا مرحلة الجهل وانحدرنا إلى الأخطر وهو توهّم المعرفة.

لا خبر

العنوان أغنية عراقية لفاضل عوّاد شاعت وزادت في السبعينيات وما كنّا نتصوّرها ستختفي يوماً وستحتاج إلى تعريفٍ لكنّها الآن كذلك. ليس لموضوع الأغنية علاقة بالموضوع، لكنّها تقول «لا خبر»، وهذا هو الموضوع.

في مساء يومٍ موعودٍ في ربيع عام ١٩٣٠ حانت ساعة إذاعة النشرة المسائية لراديو البي بي سي. فاجأ المذيعُ المستمعين المتظرين بالقول: لا توجد عندنا أخبارٌ تستحق أن نطلعكم عليها، ونخصّص وقت النشرة لإذاعة عزفٍ منفردٍ على البيانو.

ما حدث عام ثلاثين يبدو مستحيلاً بعد قرابة تسعين عاماً رغم أن وسيلة بثّ الأنباء كانت محدودة جدّاً وهي إذاعة البي بي سي وحدها. اليوم تضاعف عدد وسائل البثّ مئات من المرات، إضافة إلى مواقع الإنترنت وما زلنا قادرين على ملئها كلّ ساعة من كلّ يومٍ. والمتلقي اليوم يألّف الأخبار التي لا تعني له شيئاً بالمرة.

اختيار مقطوعة البيانو بدل الأخبار اختيارٌ كريمٌ. أنا أعرف أخباراً يغنيني عنها لا العزف الراقي بل أي أغنية مهما كان مستواها. سماع «فرتكة» لعماد بعرور أهم من أي تعديلٍ وزاري في جيوتي أو بلغاريا،

بل ومن مدامات في الفلبين لمهربي مخدرات أو افتتاح قاعدة عسكرية في كازاخستان.

وهناك أخبارٌ نقلها ونهتهم بها لا شيء إلا لأنَّ الإعلام المتعطَّش إلى ملء دقائق البث أراد لنا أن نعرفها وأن نهتم بها. قبل أسبوعين ثار ضجيجٌ كبيرٌ في العالم كلّه من خبر مفاده أنَّ هناك أصحاب ملايين يتفادون دفع الضرائب. هل هذا خبرٌ؟ طبعاً يتفادون الضرائب، هذا الخبر يوازي أن يأتيك أحدهم ليقول لك إنَّ آية الله خامنئي شيعيٌّ أو إنَّ الشيخ أحمد الطيب سُنيٌّ أو إنَّ بابا الفاتيكان كاثوليكي.

تقييم اللا-خبر أو الخبر نسبيٌّ أحياناً، ومرتبٌ بثقافاتٍ وحضاراتٍ. ما هو خبرٌ بالنسبة لك قد يكون لا خبر للآخرين. وأذكر أنني كنتُ أعمل منذ زمنٍ بعيدٍ في صحيفة عربية تصدر من لندن. كلَّمني صديقٌ إنجليزي كان منضمّاً إلى حملة عرقلة إنجاز طريقٍ سريعٍ يقتضي حفراً وتعديلاتٍ على الطبيعة، الأمر الذي يؤذي بعض الفراشات.

باعتباري أعمل في الصحافة، أراد هذا الصديق أن يهديني سبّاقاً صحافياً. رتّب لقاءً سريعاً في سيارته. تكلم بصوتٍ هامسٍ نظراً لخطورة الموضوع. قال لي إنَّ لديه أدلّة تشير إلى وجود تنسيقٍ وتعاونٍ بين الحكومة وشرطة المقاطعة. فتخيَّلتُ قارئنا العربي ونحن نطالعُه بعنوانٍ مثيرٍ: «شرطة بريطانيا متواطئة مع الحكومة البريطانية». موضوعٌ سيهزُّ ضميرَ الأمة كما يقال.

سحر الجهل

عايشَ جيلي عقودًا من صناعة السينما. عرفنا نجومًا ونجومًا ونلاحظ أنَّ ممثلي اليوم ليسوا من نجومِ الأمس في شيء. أبطال اليوم ما فيهم سحرٌ ولا بريقٌ وما عندهم هالاتٌ. تنظر إلى أنجلينا جولي فتري معارك طلاق من براد بيت. تشاهد جوينيث بالترو فتري معها تحرشًا رخيصًا. لكن لدى النظر إلى صورة لورانس أوليفيه وفيفيان لي من الخمسينيات فكأنك ترى سكان جبال الأولمب أو أيقونتي جمالٍ.

السبب في اختفاء الهالات والنجومية الحقّة هو أننا صرنا نعرف الكثيرَ عن الممثلين. المعرفة تكشف وتعري وتسلط أضواءً ساطعة ترينا العيوب، والجهل يضيف روعة وبهاءً. اليوم نعرف الكثيرَ عن كلِّ ممثلٍ وشخصية عامة يسوقنا ولعٌ لا حدَّ له بكشف المستور وهتك الحجب ودسّ الأنوف في كلِّ مكانٍ.

حين كنّا صغارًا كانت لدينا تعليماتٌ مشدّدة بأن لا نفتح حقيبة الوالدة اليدوية أبدًا. لذلك كنْتُ أتصوّر وأتوهّم ما في الحقيبة. كنْتُ أتخيّلها مثل كهف علي بابا مليئة بالذهب والزمرد، ولكن مع مرور الزمن جنح الخيال أكثر فأكثر وصرْتُ مقتنعة أن في حقيبة أُمي مسدسًا وقناعًا وأنها عضوٌ في عصابة. ظلَّ خيالي ينسج أوهاما رائعة عمّا في

الحقيقية، ولو أنني فتحتها لوجدت محفظة نقود صغيرة وقلماً ومناديل ورقية وأشياء تافهة أخرى. لهب الخيال أجمل.

كُلُّ شيءٍ اليوم مشروخٌ ومسلطٌ عليه ضوءٌ بحيث يصير خائباً لا بريقٌ فيه. كان هناك وهجٌ فأطفأته المعرفة. نسمع حكاياتٍ من الزمن القديم تقول إنَّ الإمبراطور نابليون الثالث هاجم لوحةً حديثة وقطَّعها بسوطة غضباً من وقاحة الرسام وحدثته المفردة. أذكر هذا بتوقٍ لأنَّ الفنَّ اليوم لا يستفز أحداً.

في القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت هناك حوادث مهاجمة مسارح وإضرام النار فيها سخطاً على مسرحية. اليوم لا شيء من هذا مهما خرقت المسرحية المألوف. وأذكر أنني كنتُ في التيت جاليري، وهو بمثابة متحف الفن الحديث، وكانت هناك أعمالٌ صيانة وترميمٍ في إحدى صالات العرض.

بدا لي أنَّ العمَّال ذهبوا لبعض شأنهم وتركوا عدَّتهم في الصالة. تركوا بالتحديد سُلماً خشبياً يعلوه غطاءً أبيض وسطل صبغ وفرشاة عريضة. كانت هناك سيدتان عجوزان في الصالة. توقفتا لدى عدَّة العمَّال الغائبين ثم قالت واحدة للأخرى: أظنُّه فنناً حديثاً. ظنَّت أنَّ السُلَّم الخشبي والسطل والفرشاة عملٌ تشكيلي. هذا غريبٌ لكنَّ الأغرب هو أنَّ العجوزين لم يستفزهما «العمل الفني». لا تفسير لهذا سوى أنَّ الأشياء مشروحة أكثر مما ينبغي.

باربي

في هذا الشهر السعيد، بل والموعود، تحقّق حلمٌ طال انتظاره. فقد أطلقت شركة ماتيل لإنتاج لعب الأطفال دمية «باربي المحبّبة». للأسف لا يمكنني نشر صورتها لأنّ الأعمدة في الصحيفة لا تحمل صوراً، لكن يمكنني أن أحتفل، ولو لوحدي، بهذا التنازل الخطير من الرأسمالية الغربية لصالح حضارتنا وقيمنا.

من يزعم أنّنا أمّة مهزومة وأنّ الانتكاسات تتوالى بوتيرة متزايدة؟ من يرّدّد هذا الزعم شريراً ومتأمراً على أعصاب الأمّة، ويريد لها الانهيار العصبي. انتصاراتنا تتوالى، وقد أجبرنا الغرب الغاشم منذ أكثر من عقدٍ على إضافة لغة الضاد، عنوان فخرنا، إلى الآيفون، ولم نكتفِ بهذا المجد بل انصاعت لنا سامسونج الآسيوية وأضافت لغة الضاد إلى هواتفها الذكية. وبهذا يكون قد دان لنا الغرب ممثلاً بشركة أبل وآيفونها والشرق ممثلاً بسامسونج وجلاكسيها.

لكنّا متعطّشون إلى المزيد من الاكتساح والظفر، اعتدنا النصر وأدمنّا عليه. في موسم أعياد الميلاد في بريطانيا، مثلاً، صارت هناك محلات تباع الديك الرومي (أكلة الكريسماس لدى الإنجليز) مذبحاً على الطريقة الإسلامية. يعني أنّ أبناء الأمّة يقلّدون الإنجليز في احتفالهم بعيد الميلاد، والعائلة المسلمة تأكل ما يطيب للعائلة

الإنجليزية وتحلّق حول الديك الرومي بعد صلاة العصر يوم ٢٥ ديسمبر (وهو توقيت انتهاء الملكة من خطاب الكريسماس المتلفز).

هذا طبعًا عدا إنتاج البيرة التي من دون كحول بل والنبذ أيضًا. هذه انتصارات لا يأبه لها الأشرار الذين يروّجون إلى أننا أمة استهلاكية لا تنتج شيئًا. وأذكر كيف ضحك أبناء الوطن العربي، وخصوصًا أبناء الخليج، في نهائيات كأس العالم ٢٠١٠ في جنوب إفريقيا، سبب الضحك الشامت هو أنّ العرب سمعوا أنّ فريق كوريا الشمالية كلهم يشتركون في هاتف نقالٍ واحدٍ محفوظٍ لدى المدرب، ويستعيّره أعضاء الفريق بالتناوب لمكالمة ذويهم. كان العرب يمسكون بطونهم من الضحك ويقولون بشماتة ومباهاة «ليأت الكوريّون عندنا ويروّ الهواتف الذكية مكدّسة في المحلات».

لكن إصدار باربي المحجّبة يشكّل بُعدًا استثنائيًا، ويشير إلغازًا مباشرة وآنية. من يتابعون سيرة باربي يعرفون أنّ لها صديقًا اسمه كيفن. كيفن هذا يخرج مع باربي ويؤمّن حفلات وسهرات. باربي المحجّبة لن تستطيع الخروج مع كيفن حتى لو تغيّر اسمه إلى عبد الله.

الشركة الرأسمالية لن تقبل بإنهاء إنتاج كيفن وتراجع مبيعاتها، لكنني اهتديتُ إلى حلٍّ سأكتب به إلى الشركة، وستعمل به حتمًا لأنّه سيزيد مبيعاتها. الاقتراح هو أن تنتج الشركة دمية أخرى تُضاف إلى ثنائي باربي وكيفن. الدمية هذه ستكون «المحرّم» الذي يرافق باربي وصديقها.

الظلم والاختيار

أحوال المرأة الآن قاربتُ بلوغ أحوال الرجل . هل هذا أمرٌ طيبٌ؟
الإجابة ليست سهلةً كما يبدو . الإجابة صعبةٌ وملتويةٌ . صارت المرأة ترى المعادلة واضحة: كلما انتزعتُ المرأة لنفسِها حقوقًا ومكاسبَ، تراجع التعاطفُ معها، وصارت عُرضةً لأنواءٍ مؤذيةٍ وتعاملٍ عاصفٍ .
في الغرب، الآن، المرأة تعاني وتتعرّض للخدشِ والعنتِ من الصباح حتى المساء، لكنّها راضية .

الحالة المثالية طبعًا هي نيل الحقوق والاحتفاظ بشيءٍ من التعاطفِ الذي لا يأتي إلا بقبول شيءٍ من الحيف . بدأ الحديث يصعب وسيزداد الموقف صعوبة . المشكلة الكبرى في الحياة هي أنّه لا يوجد شيءٌ سهلٌ .

سأروي حكايةً تشرح الموقف المعقّد . كان عندي صديقٌ طيبٌ جرّاحٌ من بلدٍ عربيٍّ محافظ جدًّا . جاء إلى إنجلترا وعمل في أحد كبار المستشفيات . الممرضات الإنجليزيات كنَّ شغوفات بمعرفة أحوال النساء في بلد صاحبي . يسمعن الكثيرَ عن نقاب المرأة ومنعها من سياقة السيارة، وما إلى ذلك .

وأنت الشجاعة واحدة منهن واقتربت من صاحبي، وقالت «ماذا تفعل زوجتك؟» فقال صاحبي: «لا شيء تحديدًا. تلتقي بصاحباتها ويشربن الشاي معًا، ثم يذهبن إلى السوق ويتسوقن ثم الغداء ثم القيلولة». بدا وكأنَّ غيومًا حالمة طفت على عينيَّ الإنجليزية، وراحت تقارن ما سمعت بيومها الذي يبدأ ببرد الساعة السادسة صباحًا ثم الإفطار السريع فالموصلات والازدحام. دمدمت «هنيئًا لها ما أسعدها».

لكنَّ هذا الحسد لم يكن إلاَّ عابرًا وابن لحظة مقارنة بيوم رماديَّ باردٍ من أيام نيوكاسل. لو أُتيح لهذه الإنجليزية حياة كحياة تلك المتتمة إلى المجتمع المحافظ لما قبلت، بل ولناضلت من أجل تهشيم تلك الحياة. الفرق بينها وبين تلك المرفَّهة والمتسوقة أبدًا هي أنَّها اختارت مهنتها وحياتها ولم يفرض عليها أحدٌ شيئًا. الإنسان لا يريد أن تُفرض عليه حتى الرفاهية والدعة.

الرجل الذي لا يحب الخروج ويفضِّل أن يظلَّ حيث هو لا يريد السجن. يريد ألاَّ يخرج ولكن باختياره. من يفضلُّ قضاء يومه جالسًا لا يعني أنَّه يقبل أن يكون مُقعدًا.

كنتُ في مطلع شبابي أعتقد أنَّ الفرق بين ما لدينا وما لدى الإنجليز أو الأمريكان بسيطٌ وصغيرٌ. كان لدينا في العراق حزبٌ واحدٌ ولدى الإنجليز حزبان: محافظون وعمال، وكذلك لدى الأمريكان جمهوريون وديموقراطيون. هذا يعني أنَّ الفارق مجرد حزبٍ إضافي، وهذا ليس فرقًا شاسعًا.

لكنِّي كبرتُ وأدركتُ أنَّ الفرق كبيرٌ فعلاً. الفرق ليس حزبًا واحدًا الفرق هو حرية الاختيار. عندهم تختار وعندنا لا تختار.

الدنيا حظوظاً

اكتشفتُ بعد لأي، كما يُقال، وعن طريق الصدفة البحتة أنَّ الحظَّ صناعة بشرية بسيطة ومتاحة للجميع. وبهذا نستغني عن الأقدار وكلِّ ما هو «ما وراء الطبيعة». الحظ ممكن أن تصنعه أيُّ امرأة سبعينية ترتدي معطفًا أزرق وتركب حافلة. وممكن أيضًا أن تصنعه امرأة خمسينية بمعطفٍ بنيٍّ في القطار أو طالب يمشي إلى المدرسة سعيًا على قدميه. باختصارٍ، يمكن أن يصنعه أيُّ أحدٍ، وليس من الضروري أن يكون مرتديًا معطفًا.

اكتشفتُ أنَّ الحظَّ مصنوعٌ بيد البشر في ذات رحلة على متن حافلة موصلات عامة في إنجلترا. في المقعد الذي أمامي مباشرة جلست امرأتان عجوزان يتحدثان. كنتُ كعادتي أنصت إلى حديثهما. فمن طبعي أنني كلما كنتُ في مكانٍ عامٍ أن أهتمَّ بتركيزٍ شديدٍ بما لا يخصني البتة وأسترق السمع. أراعي شؤون الآخرين بشغفٍ واهتمامٍ كبيرين.

المهم، كانت إحدى العجوزين تروي كيف أنَّ لصوصًا سطّوا على بيتها بينما كانت في زيارة لبيت ابنها استمرت يومين. تذكّرت ما شاء لها أن تتذكّر مما حصل وبالذات من وقاحة الحرامية وكيف أنَّهم أعدوا

لنفسهم شيئاً بالحليب في أثناء مكوّثهم في بيتها. عرفت ذلك من اتساخ الأكواب التي لم يغسلوها ومما تبقى في الثلاجة من قينة الحليب.

فهم صناعة الحظ لم يأتي من حكاية المرأة المسروقة بل من صاحبيتها المصغية بصيرٍ حتى الآن. كانت المرأة المصغية تسمع وتهزُّ رأسها تعاطُفاً أو ربما لتنبئ صاحبيتها أنها ما زالت حية وتسمع. وبعد انتهاء فاصل التوجُّع والتألم والحسرة على المسروقات من حُلي وأدوات كهربائية، بعد كلِّ هذا تحدثت المصغية بأن سألت المسروقة سؤالاً بسيطاً. قالت: هل هذه المرة الأولى التي يُسرق فيها بيتكم؟ يبدو من الكلام أنكم لم تتعرَّضوا للسرقة من قبل.

المسروقة اعترفت بأنها المرة الأولى التي يتعرَّض فيها بيتها للسطو. المصغية قالت: يا لكم من محظوظين. أعرف ناساً سُرقوا خمس مراتٍ، وأنا شخصياً سُرقْتُ مرتين. وبهذا عرفتُ وتعلَّمتُ معنى صناعة الحظ. هذا هو الحظ البريطاني الشهير. حظٌّ حسنٌ يقوم على أساس المقارنة بما هو أسوأ بكثيرٍ. الإنجليز مقتنعون بأنهم محظوظون بل ويتمنون للناس حظاً كحظِّهم. وأنا شخصياً أظنُّ وأنشاءم عندما يتمنّى لي أحدهم حظاً بريطانياً. فأنا أعرف أنه حظٌّ من نوع التعرُّض لحادثة وفقدان عين واحدة فقط وليس كلتا العينين. أو أن تضيع نصف نقودك وليس كلها. والمحظوظ السعيد هو من يسطو للصمص على بيته للمرة الأولى.

رووا أولادكم الكوميكس

في كلِّ يومٍ تقريباً أقسّم البشرية بملياراتها الستة إلى قسمين. فلستُ أقلُّ شأنًا من بن لادن وفسطاطينه ولا من جورج بوش ومحوريه. وفي كلِّ مرةٍ أعتد معيارًا لفصل الفسطاطين تمليه أحداث اليوم أو المزاج. يومًا أصنّف البشرية إلى هؤلاء الذين يقشّرون البطاطس قبل سلقها وهؤلاء الذين يسلقون ثم يقشّرون. ومرةٍ أقسّم الإنسانية إلى مجموعة من يكتبون على لوح الفواصم الكهربائية (صندوق الفيوزات) اختصاص كلِّ فاصم (فيوز)، وأولئك الذين لا يكتبون ويلجأون إلى التجربة لدى حصول عُطلٍ.

وفي بعض الأيام أكون بمزاج المثقف المتقدّم وأقسّم الناس إلى أولئك الذين قرأوا رواية بروس ت «البحث عن الزمن المفقود» بأجزائها السبعة، وأولئك الذين لم يقرأوها أو بدأوا ولم يتموها. وهكذا تتغيّر سمات ساكني الفسطاطين كلَّ يوم تقريباً. في هذا لا أشبه بن لادن ولا جورج بوش اللذين لا تتغيّر صفاتُ أهل المعسكرين عندهما أبداً.

اليوم بالذات قسّمت العالم منذ الصباح إلى فئتين. المعسكر الأول يضمُّ كلَّ من قرأوا كوميكس والآخر من لم يقرأوا ولم يعرفوا تان تان وسوبرمان والوطواط والشبح. أنا من معسكر الكوميكس وقضيتُ طفولة أتصوّر أنّه من الممكن، بل ومن الطبيعي، أن يكون الإنسان مليارديراً

صاحب شركات وساكن قصر منيف في النهار، وما إن تغرب الشمس حتى تراه قد لبس غطاء رأسٍ موصولٍ بقناعٍ وملابسٍ ملتصقة بجسمه وراح يكافح الجريمة ويضرب الأشرار واسمه الوطواط.

لم أقابل الكثيرين من قراء الكوميكس، ومن قابلتهم أحسستُ انجذابًا لهم ورابطة غامضة وكأننا أبناءُ تنظيمٍ سريٍّ وخطيرٍ مثل الماسونية. في عملي في الإعلام بأصنافه من صحفٍ إلى راديو وتلفزيون قابلتُ كوميكسيًّا واحدًا. كان يعرف أن نبيل فوزي (سوبرمان) يعمل في صحيفة الكوكب اليومي التي يرأس تحريرها وهيب ج.

مثلي، كان يقبل أن الإنسان ما إن ينزع نظاراته الطبية حتى يتغيّر شكله بحيث لا يعرفه أقرب الناس إليه، كما يفعل نبيل فوزي ليصبح سوبرمان. لعلّ هذه القدرة على قبول اللا معقول هي التي تجعل قراء الكوميكس طائفةً مختلفة. ليس القبولُ سذاجةً بل رغبة في التحليق وشغفٌ بالخيال.

أعطني طفلًا يقرأ الكوميكس أعطك رجلًا متنوعًا يحب أن يعرف ويعرف ويعرف.

من كلام الأولين «رووا أولادكم الشعر». ويمكن أن تكون الحكمة الحديثة «عودوا أولادكم على الكوميكس ستنبت لخيالهم أجنحة». سيخلقون إلى عوالم جميلة لا حدود لها، فيها هنديٌّ أحمر اسمه «الرجل ذو السنّ الواحدة التي فقدوها» وليس الرجل الذي بلا أسنان.

واسوا الأغنياء

البرُّ والشفقة عواطف نبيلة. كنتُ ممن لا يقبلون شفقةً من أحدٍ. كان شعارنا بيتاً للسياب في قصيدته «غريب على الخليج» يقول: الموت أهون من خطيئة/ من ذلك الإشفاق تعصره العيون الأجنبية.

و«خطيئة» هنا كلمة عراقية تُستخدم تعبيراً عن الإشفاق مثل «حرام» في الشام. لكنني صرْتُ أعقل، وأدرك أنَّ الشفقة لا تستحق الاحتقار والاستصغار بل هي هدية نبيلة من قلبٍ رقيقٍ.

كنتُ أخصُّ الفقراء بالشفقة والعطف، لكن زيارة طارئة لضيوفٍ من أغنياء مصر جاؤوا إلى إنجلترا للتسوق أقنعتني بأنَّ الأغنياء هم الأولى بالعطف. لم يكن منطقتهم في الدعوة إلى العطف على الأغنياء من ابتكارهم. تأكَّد لي أنَّ منطقتهم سائدٌ في صفوف الأغنياء وخصوصاً بعد تعويم الجنيه.

الفكرة تقوم على أساس أنَّ الأغنياء هم الذين يعانون من ارتفاع الأسعار أكثر من المحرومين. المحرومون ما عندهم فلوس وبالتالي لا ينفقون ولا يهتمون لصعود الأسعار وتدني سعر صرف الجنيه. الفقراء من حي أبو قتاتة أو منطقة صفط اللبن (في بولاق الدكرور) لا يأتون إلى إنجلترا للتسوق الشتوي في موسم الكريسماس.

من لا يتسوّق من محلات هارودز، أو حتى جون لويس، في لندن لا يدري أنّ سعر صرف الجنيه المصري تراجع من عشرة جنيهاً مصرية للإسترليني إلى خمسة وعشرين جنيهاً مصرياً للإسترليني.

فقراء القاهرة مُنعمون لسبيين: الأول أنّهم بلغ بهم السفه وقلة الاكتراث أنّهم لا يأبهون للكريسماس، والثاني أنّهم يشترون من ميدان العتبة ولا يعرفون شارع أو كسفورد أو نايتسبريدج.

أغنياء مصر لا يكتفون بهذا القدر من الهجوم المضاد على الفقراء، بل ويذهبون إلى كافة أوجه الحياة ويكشفون لك أنّ ارتفاع أسعار المحروقات لا يمس المجرمين الفقراء. الغلابة وقحون بحيث لا يملكون سيارات. نعم، يبلغ بهم اللؤم حدّ عدم شراء سيارات خاصة وإلقاء تبعة أسعار المحروقات على الأغنياء.

وأكد لي ضيوفي الأعزاء أنّ فقراء مصر قد تمكّنت منهم النذالة وغلب على طبعهم الشرّ حدّ أنّهم لا يبعثون أولادهم إلى مدارس لغات أو مدارس خاصة أخرى. الشرّ يدلّهم على مدارس الحكومة وسوء النية تدعوهم إلى استخدام المواصلات العامة أو المشي.

أفلح ضيوفي في إقناعي بأنّ فقراء مصر يظلمون الأغنياء، وأنا سهل الإقناع. المهم، اقتنعتُ وتحمّستُ وآليتُ على نفسي أن أنشر بين الناس هذا الفكر، وأضّمّ صوتي إلى الدعوة إلى كشف نذالة الفقراء والتنويه بمعاناة الأغنياء. أرجو أن أكون قد وفّقتُ في مساعي.

استقبلوا أعوامكم بالشخير

كيف استقبلتم العام الجديد؟ هذا سؤالٌ أخشاه وأتفاداه لا لشيء إلا لأنني أخجل من طريقة استقبالي لأي عام. أكون في العادة نائمًا لدى منتصف الليل. تعرفون طبعًا أنَّ الإنسان ينام ولا يتوقع أن يقف العالم ويُعلق التاريخ لدى شخيره. كم من الأشياء تقع ونحن نيامٌ؟ أطفالٌ يُولدون وبشرٌ يموتون وسياراتٌ مستخدمة وعقاراتٌ تباع وتُشتري ونحن نيامٌ.

فقط الحمقى يتوقعون أن تتوقف الحركة ويتوقف التاريخ لأي سببٍ. أذكر أنَّ أحققَ أمريكياً، نسيْتُ اسمه، نشر في التسعينيات فكرة أنَّ التاريخ انتهى لمجرد نهاية صراع بين السوفييت والغرب. وأذكر أيضًا أنَّ كمياتٍ هائلة من البشر، وخصوصًا من الشرق الأوسط المنشغل أبدًا بحركة التاريخ، أولوا ذلك الهراء عناية خاصة جدًا وناقشوه وتشاجروا بسببه.

مهما يكن من أمرٍ، عامنا الجديدُ هذا لا يستحق استقبالا أهدأ وغير آبه أكثر من الإغفاء. الأعوام الجديدة كلها تستدعي النوم لأنها لا تترى. لا يوجد فاصلٌ ولو لجزءٍ من الثانية بين سنة وأخرى، مثل مات

الملك عاش الملك. ليست هناك استراحة لاستحداث جردٍ وحسابٍ ربحٍ وخسارة بين السنة والتي تليها.

وهناك طبعًا الحساب الدقيق لنهاية عامٍ وبداية آخر بحيث لا يظل للمناسبة طعمٌ. يبدأ العام في وسط المحيط الهادئ تليه بدايات وبدايات أحدث في اليابان وأستراليا ويقضي يومًا كاملاً وهو يبدأ، وتمرُّ ساعاتٌ وساعاتٌ من لحظات البداية. والكلُّ يعتقد أنَّ العام بدأ في لحظة منتصف الليل في الموقع الجغرافي الذي هو فيه.

المشكلة الأخرى هي الافتراض الخاطيء بأنَّ السنة الجديدة تبدأ في ١ يناير. هذا خرقٌ لطبيعة الأشياء. السنون والقرون بطبعها وسيماها لا علاقة لها بالفلك بل بالحدث الإنساني، أو الطبيعي، العامل. القرن العشرون، مثلاً، لم يبدأ في ١ يناير من عام ١٩٠١. قرن الحداثة ذاك بدأ بنهاية الحرب العظمى أو في أثناء عاميها الأخيرين أو بالثورة البلشفية في روسيا. والقرن الحادي والعشرون بدأ في ذات ثلاثاءٍ من خريف عام ٢٠٠١ بهجماتٍ إرهابية منسقة على الولايات المتحدة.

ثم إنَّ الأعوام رتيبة فعلاً في توقعاتها وما نتظره منها. تطلق أديل أغنية جديدة وتطلق أبل أو سامسونج هاتفًا ذكيًا، ويرتكب زعيمٌ ما خطأ أو حماقة لكنَّ الأمور لا تفلت من عقابها. أيُّ من هذه الروتينيات يبدو لنا حادثًا سيميّز العام عمّا سبقه وعمّا سيليه أيضًا.

عمومًا، ولتفادي كل هذه الأفكار المسيّبة للصداع، اكتشفتُ أنَّ استقبال العام يفصلُ أن يكون وأنتَ في عالم الأحلام والنوم العميق.

أمام الأ جانب

أسكن في مدينة ذات شخصية في جنوب إنجلترا. للمدينة أهمية تاريخية وكانت عاصمةً لملوك الساكسون قبل الفتح النورماندي. وهي رغم صغرِها تتباهى بكاتدرائية عريقة وشهيرة.

ذات صيفٍ رأيتُ عمَّالاً يروحون ويجيئون على الرصيف المقابل لمحطة القطار. المحطة صغيرة وفيها رصيفان: الأوَّل للقطار الصاعد إلى لندن والثاني للقادم من العاصمة. كان العمَّال منشغلين بدهان جدران المحطة وأعمدتها وأسقف الأرصفة. وجاء آخرون وصاروا يوزعون أصصَ الزهور الباهرة الألوان على الرصيفين ويعلِّقون البعض على الجدران.

صارت المحطة جميلة فعلاً. استعلمتُ فعرفتُ أنَّ صاحبة الجلالة إليزابيث الثانية آتية لزيارة الكاتدرائية، وأنها ستصل في القطار الملكي وسيكون هناك جوق موسيقي وأطفالٌ عندهم ورد وأعلامٌ صغيرة يلوحون بها. جاءت الملكة وراحت وظلَّت محطة القطار جميلة لزمين، واعتنى ناظر المحطة بأصص الورد لسنين، صرَّت كلما قصدتُ المحطة المزوَّقة أتذكرُ زيارة الملكة. وتذكَّرتُ الزيارة الملكية قبل بضع سنين حين زار الرئيس الأمريكي باراك أوباما القاهرة.

زيارة الرئيس تضمّنت فقراتٍ سياحية، منها زيارة لجامع السلطان حسن، وهو جامعٌ من العصر المملوكي جميلٌ وشجاعٌ معاً. شوارع القاهرة في حاجةٍ إلى التنظيف والتجميل أكثر من محطة القطار في مدينتي الإنجليزية.

شوارع القاهرة لمن يزورها لأول مرة تبدو كأنّها مهرجان أزيل وأكياس شيبسي فارغة وعلب كوكاكولا لايت تندرج بحرية. وكأنّ مهرجان القمامة يتطلّب أن يساهم كلّ مواطن بأن يحضر معه من البيت علبةً وأكياساً فارغة ويرميها لتمنح الشوارع ألواناً «ونسيجاً» ثرياً. عشية زيارة الرئيس الأمريكي سهر عمّال النظافة وتولّوا منطقة القلعة كلّها بالكنس والشفط بالماء والصابون. لم يشهد الجامع العتيق محيطاً بهيجاً مثل ذلك منذ أيام السلطان حسن نفسه. وفي الصباح وقبل الزيارة الموعودة بساعتين طافت بالمنطقة سياراتٌ تحمل أصص الزهور والورد وشجيراتٍ أنيقة وزّعوها على الأرصفة بنسقٍ بديع.

جاء الرئيس وتفرّج وانبهر وغادر. بعد رحيله عن المنطقة بأقلّ من ساعة عادت سيارات المحافظة لالتقاط أصص الورد والشجيرات ورفعها عن الأرصفة. مارسوا عملهم بهمة ونشاطٍ وكأنّهم يستكثرون على المواطن أن يمشي وسط زهورٍ ووردٍ وشجيراتٍ ولو لساعة.

قد يبدو فعلهم نذلاً ولكن والحق يقال إنّهم مارسوا نبلاً أيضاً. فقد لاحظتُ أنّهم لم يعيدوا الزباله التي التقطوها ليلة البارحة، ولم يرشّوا الأتربة والأوساخ التي رفعوها بالأمس، وهذا يُحسب في ميزان حسناتهم. بلغ بهم النبل أنّهم سمحوا لمواطنهم أن يمشي في شارعٍ نظيفٍ، شأنه شأن الأجانب.

القريب البعيد

منذ سنين جاءنا إلى العراق خبيرٌ أوروبيٌّ ليعمل معنا ونشأت بيننا علاقة زمالة وثيقة. كان الأجنبي يريد أن يعرف كلَّ شيءٍ عن بلدنا وعنده عطشٌ لا متناهٍ للمعرفة. وبسببه اكتشفنا أننا لا نعرف الكثيرَ عن بلدنا. فضحتُ أسئلته التي لا تنتهي جهلنا. نجهل أنفسنا ونعرف كلَّ شيءٍ آخر.

معرفتنا وثقافتنا تتيحان لنا الحديثَ بطلاقة عن هيجل والخوارج، لكننا نعجز عن الإجابة على سؤالٍ بسيطٍ حول معدّل درجات الحرارة في يناير ببغداد. وممّا زاد الوضع سوءاً أنّ الخبيرَ الأجنبي لا يريد رأياً في موقف عسكر الشام إبان الفتنة الكبرى، وإنّما يريد أن يعرف كيف نميّز النخلة الفحل من الأنثى. لكننا مثقفون ومعرفتنا بديكارت تفوق معرفتنا بالنخلة التي في حديقتنا الخلفية.

الخبير الأجنبي يريد أسماء الزهور والأشجار ونحن لا نعرف. نقرأ في القصص أسماءً لعلّها مترجمة لأشجارٍ لا نعرفها. نقرأ عن السرو والسنديان ونحن لا نعرف سوى الصفصاف. إضافة إلى هذا الجهل نمتاز بخاصية عجيبة وهي الانشغال بما هو بعيدٌ عمّا هو قريبٌ.

في المقهى يندلع شجارٌ على الطاولة المجاورة، القريبة، وفيه كلُّ ما يستهوي الإنسان من زعيقٍ وتهديداتٍ لكننا نهمله منشغلين بحديثٍ عن صعود الفاشية في إيطاليا، البعيدة، في ثلاثينيات القرن العشرين.

حديث القريب والبعيد ذكّرني بالخبر الأجنبي مرة أخرى. كان خبيرنا يحبُّ الموسيقى والغناء ويهتمُّ بهما. منساقاً وراء عطشه المعرفي سأل أحدنا عن موسيقانا وطلب ترجمة أغنية دارجة من أغانيها إلى الإنجليزية. أجابه صديقٌ من الذين يحبُّون أن يبدو شعبنا أمام الأجانب متقدِّماً صعب المدارك عميقاً، إجابة بأن راح يترجم أغنية ليست عراقية أصلاً وتغنيها نجاة الصغيرة. ترجم له «القريب منك بعيد والبعيد عنك قريب».

الأجنبي كان فاعراً فاه يحاول أن يفهم المقصود، وبدا كأنَّ رأسه يعوم حيرة. كان المسكين يحاول أن يجد نظرية أو فلسفة تشرح له فكرة أنَّ القريبَ بعيدٌ والبعيدَ قريبٌ، ولم تسعفه جميع معارفه ومطالعاته.

استفسرتُ من صاحبي عن سبب اختيار «القريب منك بعيد» فأجابني أنَّ الخبير هذا أجنبيٌّ أولاً ومثقفٌ راقٍ ثانياً وينبغي أن نقول له كلاماً عالياً ولا نلوّث مسامعه بأغانٍ من قبيل «عمي يا بيع الورد» أو «طالعة من بيت أبوها رايحة لبيت الجيران».

بعد كل هذه السنين أتخيّل صاحبنا الخبير جالساً قُرب مدفأة في شتاءٍ أوروبيٍّ باردٍ ومظلمٍ يقصُّ على أحفاده أغرب ما رآه وسمعه في عمره قائلاً: «ورأيتُ بلداً يغنون فيه القريب...».

وظائف الأشياء

حيثما تكون هناك وظائف وخصائص للأشياء تكون هناك غايات ينبغي الانتباه إليها والعمل بها. الكذب مثلاً له وظيفة وعلينا أن نصدقه ليتّم عمله ويؤدي وظيفته. ودائماً أعتقد أنّ الكذب الذي لا يصدّقه أحدٌ ليس كذباً. لذلك آليتُ على نفسي أن أصدّق الأكاذيب لأنّ تصديقها واجبٌ إنسانيٌّ تملّيه علينا الرغبة في تحقيق مرامات الأشياء وأهدافها.

ينبغي أن يظلّ الكذب موجوداً ويمارسه الناس لأنّه لولاه لِمَا كان هناك تينٌ ينفث ناراً وأفَاع تطير وجبالٌ تنشق، بل لولاه لِمَا كان هناك صدقٌ. الاثنان يعيشان معاً ويعتمد أحدهما على الآخر في وجوده. اعتماد الشيء على نقيضه لكي يبقى يذكّرني بصديقٍ متدينٍ جداً كنت أعرفه وكان يتسامح مع الرغبات الجنسية ولا يعترض عليها ولا على عشق النساء قائلاً «لولا تلك الرغبات لما عرفنا العفة».

في الحروب والصراعات يبرز ويتسيّد نوعٌ من الكذب هو البروباجاندا. وكان تشرشل يقول الحقيقة هي أوّل ضحية تسقط في أي حربٍ. الأغاني الوطنية ليست البروباجاندا الوحيدة بالطبع. فموسيقى باخ الكنسيّة الرائعة كلها بروباجاندا لملكوت السماء والملائكة.

أحبُّ البروباجاندا وأقع فريسة لها متطوِّعًا. فيها جمالياتٌ غريبة.
فاتتني حرب العراق (بلدي) مع إيران. كنتُ في بريطانيا وضاعت عليَّ
سنون من البروباجاندا الممتازة القارحة. كنتُ أتابع أخبار الحرب في
الإعلام البريطاني، قبل عصر الفضائيات، وهي تقاريرٌ رصينة ومعقمة
وخلو من الزغاريد و«الهوسات» وباقي المؤثرات الصوتية.

أتيح لي أن أَسْتَثَار وأن أتحمَّس لبروباجاندا حرب إيران بأثر رجعي
قبل أسابيع، كانت ثمة أنشودة تدعو إلى القتل بل وإلى الإثخان في
القتل. تقول «ها يا جنود الحق.. ها دقوهم دق» هذه الدعوة إلى سفكِ
الدماء تأتيك مغلفةً بالزغاريد والبهجة، لتجد نفسك تردّد مع المنشدين
وبغبطة وسعادة «ها دقوهم دق»، هذا وأنتَ الإنسان المسالم الذي
يحزن لموت عصفورٍ. هذه هي البروباجاندا، وأنا أحبُّها وأستسلم لها
لمفعولها الساحر هذا.

تلاحظ من بداية الأمر أنَّ أنشودة «أصحاب الحق» ليست من
بروباجاندا باخ القدسية في شيء. لكنَّ الوظيفة والمفعول متشابهان.
شعر الأهلوجة العراقية لا يساوي شيئاً لولا الحرب. يعني أنَّه شعرٌ
يحتاج إلى حربٍ كاملة ليصير ذا قيمة.

اللحن أيضًا ليس ممَّا يستحق الاندماج معه والإحساس به. موسيقى
الأنشودة لا تحتاج إلى أوركسترا، ويمكن لأي نَداف قطن أن يؤدي
اللحن كاملاً دون إخلالٍ وتنشيز على آلة الندافة التي تشبه قيثارة أفقية
ذات وترٍ واحدٍ. لكنَّها البروباجاندا، وسحرها يجعلنا نطرب لـ«دقوهم
دق».

لا تعرفوا كلَّ شيءٍ

«هو الذي رأى كلَّ شيءٍ فغني بذكره يا بلادي / هو الذي عرف جميع الأشياء وأفاد من عبرها / هو الحكيم العارف بكلَّ شيءٍ».

بعد هذه المقدمة المُفعمّة بالإطراء، يتقدّم كاتبُ الأبيات من البلاد كلّها طالبًا أن تغني مرّةً أخرى باسم جلعامش الذي رأى وعرف كلَّ شيءٍ. وقد نصبتُ نفسي معنيًا بهذا النصّ لأنّه يطلب مني أن أغني باسم جلعامش. طلبُ الغناء موجّهٌ إلى بلادٍ ما بين النهرين كلّها، وباعتباري منها صرّت معنيًا.

لا أريدُ للناس أن تصدّق أنّ معرفة كلِّ شيءٍ تُعدُّ أمرًا جميلًا يستحقُّ الاحتفال. اعتراضٍ يقوم على أساس أنّ من رأى وعرف كلَّ شيءٍ لا يستحقُّ التمجيد بل لا يستحقُّ الحياة؛ حين ترى وتعرف كلَّ شيءٍ لا يبقى في سبيلك سوى الموت. قليلٌ من الجهل يديم النعم ويجعل للدنيا مقصدًا ومرامًا، ويُبقي على شيءٍ أو أشياءٍ نصبو إليها.

من يريد أن يعرف كلَّ أنهار الدنيا؟ من يريد أن يلمس كلَّ أشجار العالم؟ من يريد أن يعرف كلَّ الوجوه وكلَّ العواطف وكلَّ الفواكه وكلَّ

شيء؟ نعيش من أجل أن نعرف شيئاً جديداً. لذة الاكتشاف لا تُعوّض
ومن رأى وعرف كل شيء فقدّها إلى الأبد.

كنتُ أعرفُ اسمَ ناقدٍ أدبيٍّ إنجليزي (نسيته الآن)، وهو رجلٌ
ديكنزي، يعني مُولَعٌ بتشارلز ديكنز. وقد قرأ كلَّ ما كتبه الأديب
الفيلسوفي الكبير. قرأ حتى ما كتبه عندما كان مراسلاً برلمانياً صغيراً.

قرأ مقالاته ورسائله فضلاً عن رواياته طبعاً، لكنني سمعته يكشف
للجمهور أنّه لم يقرأ إحدى رواياته الكبرى. لم يقرأ *Bleak House* ،
وقد فعل ذلك متعمداً، يقول الناقد هذا إنّهُ إذا قرأ *Bleak House* فلن
يبقى لديه ما يتطلّع إليه وتصير أيامه رمادية كالحبة.

لا شيء أدعى إلى الكآبة أكثر من الإحساس أنّك بلغت كل شيء.
في التسعينيات ظهرت في أوساط المراهقين أقراصٌ مخدّرةٌ
يُفترض أن تجعل متعاطيها يحسُّ أنّه بلغ كل شيء وأنجز واكمل وهو
الآن سعيدٌ، لكنّ الذي حصل أنّ عدداً من متعاطيها انتحروا بالضبط
لأنّهم أحسّوا أنّهم بلغوا كل شيء، ولم يعد لديهم ما يصبون إليه.
مثل الناقد الإنجليزي، مُحبُّ ديكنز الذي نسيْتُ اسمه، اتخذتُ منذ
زمنٍ قراراً ما زلتُ متمسكاً به.

أحب عبد الوهاب مثل ما يحب هو ديكنز. لذلك قررتُ ألا أسمع
«من غير لي» لكي يظلّ عندي شيءٌ من عبد الوهاب لم أسمعهُ، وبهذا
تصير أيامي حلوة.

القول في لماذا

مثلما توجد أدوات حلاقةٍ وأدواتُ زينةٍ وأدواتُ نجارةٍ، وأدواتُ تعذيبٍ حتى، توجد أدواتُ استفهامٍ. نعم، الاستفهام يحتاج إلى أدواتٍ، ويقتضي معرفةً باستخدامها، ومهارةً أيضًا. لا أحد يعلمنا استخدام أدوات الاستفهام، ويُفترض أن نحسن استخدامها بالسليقة.

لا أحد يعلم أحدًا استخدام أدوات حلاقة الذقن للأولاد والزواق للبنات. الكلُّ يفترض أنَّ الولدَ سيتفرَّج على أبيه أو أخيه الأكبر ويقلِّدهما، وهذا ما يحصل. والأمُّ نفسها مع أدوات الاستفهام المتاحة للجميع دون اعتبارٍ للجنسِ أو الدينِ أو المذهبِ السياسي. المدرس وضباط الصفِّ والوالدان والجميعُ بلا استثناءٍ يعرفون استخدام متى وكيف وماذا وأين، إلى آخر القائمة. منذ الطفولة نتربَّى على سماع الأسئلة دون توقُّفٍ: أين خالدٌ؟ من لطَّخَ فرشَ السفرة؟ متى تُنهي واجبك المنزلي؟ وهكذا. معرفة الإنسان تقوم على الاستفهام. وهناك أداة استفهام لها قيمة استثنائية وأظنُّها مسؤولة عن التعلُّق بالديانات وبالفلسفة وبالخرافة وبالعلوم أيضًا. «لماذا» أداة استفهامٍ تفضي إلى الفلسفة والعُمق مباشرة.

حين سأل الإنسان لماذا يبرق البرق أو يثور البركان أو يفيض النهر
ويُدْمَر المحاصيل، نشأت أديانٌ للإجابة على هذه الـ«لماذا» وظهرت
آلهةٌ وملحقاتها. ابتكر الإغريق حكاياتٍ وحكاياتٍ عن غضب زيوس
وإرساله البرق من باب الغضب. ونذكر هنا أن آلهة الإغريق ظريفة
وتشبه الإنسان تمامًا، وما عندها أجنحة طائرٍ أو رأس كلبٍ أو وجه بومٍ.
والهتهم عندها مشاعرٌ غيرةٍ وحبٌ وكبرياءٌ ومشاجراتٌ وحتى نيمية،
مثلنا. هناك طبعًا وفي الجهة المقابلة لـ«لماذا» العميقة تقع «كم» التافهة
التي تُقال في الغالب مصحوبة بكلمة «حسابك» في محادثة ضحلة مع
نادل القهوة أو سائق التاكسي. وكلُّ ما يتعلّق بسائقي التاكسي تافهٌ ويشير
الغضبَ ولا يفضي إلى عمقٍ أو فلسفة.

الغريب أن «لماذا» في أغلب اللغات لا تمتلك كلمةً خاصة بها
ومستقلة، بل تأتي على شكل «لأي شيء» مثل «لماذا» و*Pourquoi*
الفرنسية و*Warum* الألمانية. للأسف لا تستقل، وهي أداة استفهامٍ
تستحقُّ كلَّ التكريم لدورها الحيوي في تطوير الدين والعلم والفلسفة.
والغريب أيضًا أن لـ«لماذا» جاذبيةً خاصّةً لدى الأطفال. يقولونها ولا
يعنونها في معظم الوقت. أو يستخدمونها للمعابثة وصياغة أسئلة
سمجة يعرفون أنها تضايق الكبارَ وخصوصًا أولئك الذين ينظرون إلى
«لماذا» بتوقيرٍ ويعتبرونها أمّ المعارف والديانات.

كانت تزورني في مكثبي في البيت ابنة صديقٍ عمرها ثلاث سنواتٍ.
حالما تصل تشير إلى الكمبيوتر سائلة «لماذا هذا كمبيوتر؟» فلا أجد ما
أجيب به سوى «لأنّ له كيبورد»، فتقتنع بالجوابٍ وتعتبره مفحمًا.

أبوي احترق ... هيه

تعبير البهجة العجيب أعلاه، أذكره جيّدًا في مسرحية مدرسة المشاغبين. في المسرحية يحصل مأسّ كهربائيّ يؤدي إلى احتراق بعض ملابس مدير المدرسة وشيءٍ من شعره. هنا ينطلق ابنُ المدير راقصًا يتمايل طربًا وبهجةً مصفّقًا بيديه مغنّيًا «أبوي احترق .. هيه. أبوي احترق .. هيه». طبعًا بالعامية المصرية يبدلون موقع التاء في الأفعال على وزن افتعل ويقولون اتفعل. يعني احترق تُقال اتحرق ويهترئ تصير يتهري.

وهكذا ينطلق الولدُ جذلان مرّحًا يتوقّف عن الغناء قليلًا ليقول لمن يصادفه «أبوي احترق عقبال والدك»، ثم يمضي هازجًا «أبوي احترق .. هيه». كنتُ أذكر هذا السّفه دوريًّا حين أرى الإنجليز يحتفلون بالفتح النورماندي لبلادهم.

الإنجليز متحصّنون بخندقٍ مائيّ كبيرٍ يطوّق بلادهم ويصدُّ الغزاة. حتى إنّ نابليون شرع في بناء نفقٍ تحت الماء ليصل إليهم، لكنّ تقنيات مطلع القرن التاسع عشر لم تسعفه. المهم، أنّ بلادهم لم يغزها أحدٌ سوى مرّة واحدة عام ١٠٦٦. كان غزوًا متكاملًا وكاسحًا غير أوجه الحياة في إنجلترا. جاء النورمانديون غزاة فاتحين وانتهى مُلك الأنجلو-ساكسون أهل البلاد الأصليين.

في ذكرى هذا الغزو، أو في أي مناسبة أو معرض ذي صلة، يحتفل الناس بالأعلام والبشائر والمرح في مشهدٍ لا نظيرَ له سوى «أبوي احترق.. هيه». تصوّروا لو أنّ العرب يحيون ذكرى نكبة فلسطين بالزغاريد والأهازيج ونثر الورد. أو تصوّروا إعلاناتٍ عن حفلٍ ساهرٍ «يمتد الرقص فيه حتى الصباح في ذكرى انتصار الإنجليز على أحمد عرابي في التلّ الكبير». لكن الاحتفاء بأن يُغزى بلدك ليس سفهًا وحماقة كما اكتشفتُ فيما بعد.

قبل أكثر من تسعمائة عامٍ وقع الغزو، قاوم الإنجليز وكبرهوا الغُزاة. ونشأت أساطيرُ شعبية عن نبلاء الساكسون المقاومين مثل روبن هود. ويبدو أنّ الوضع ظلّ كذلك: كراهية للغزاة واعتدادٌ بمناقب أهل البلاد الأصليين. يعني كان وضعًا طبيعيًا، وكان سلوك الإنجليز يشبه سلوك أي أمة أخرى دخلها الغزاة.

لكن، ومنذ القرن السادس عشر، صار الإنجليز يمتلكون مستعمراتٍ. صاروا غُزاة من الطراز الأول. دانت لهم أممٌ وحضاراتٌ. هنا انتبهوا إلى أنّ كراهية الغزو لا تجدي وتبلبل الخواطر. يتشكّت الموقف من التاريخ إذا آمنوا أنّ الغزو هو فتحٌ ورحمة إذا كانوا هم الغُزاة، ونذالةٌ واستعمارٌ إذا وقع عليهم الغزو.

أقترحُ على العرب أن يأخذوا موقفًا مماثلًا ويحتفلوا بهزائمهم: حفلة وبهجة من أجل خمسة يونيو وفرحة هزيمة ثورة عرابي وهكذا، لو فعلنا هذا لكانت أيامنا كلها أعيادًا.

من هذا المنظور

منذ عهودٍ وأنا متحامِلٌ على المنظور الذي دخل طارئاً على فنِّ الرسم في القرن الخامس عشر، وهو امتدادٌ لنظريات الاستمرار الخطِّي المسؤولة حتى عن مبدأ القياس لدى أبي حنيفة. المنظور يفترض أن يكون من إبداعات عصر النهضة. وأنا أصلاً لا أعتقد أن هناك حداً فاصلاً في تاريخ الفن يُسمَّى عصر النهضة. وأطلب ممن لا يعجبه هذا الرأي أن يراجع أرنولد هاووزر والمراجعة من الشباك رجاءً.

الاعتراض ليس على القياس أو أبي حنيفة، ولكن على تسيّد ما هو خطِّي ومعتدلٌ ومستقيمٌ، وعلى ظنِّ البعض أن لا طريق هناك سوى المعادلات الخطيّة. في الفقه الحنفي، وهذا مثالٌ من عندي، لو كانت دية بئر الإصبع ناقة فتكون دية الثلاث أصابع ثلاث نوقٍ بالقياس.

هذا عظيمٌ وجميلٌ ومُحكّمٌ. قياس أبي حنيفة صحيحٌ لكني لا أبغضه مثلما أكره المنظور. قياس أبي حنيفة يحرك الشرع والفقه وحصافته مطلوبة، بينما المنظور يلمُّ بالفنّ لا بالعقل. الفنُّ أصيب بداء المنظور لكنَّ الرسمَ تخلص منه في القرن التاسع عشر عبر الانطباعية، ثم جاء الفنُّ الحديث ليهين المنظورَ تماماً ويعود إلى قيم وآليات القرون الوسطى الجميلة.

في الرسوم الفرعونية القديمة يقف الفرعون في آخر المعبد، وفي مقدمة المكان يجلس الكاتب متربعا، لكنَّ فرعونَ يظلُّ كبيراً مهيباً والكاتبُ ضئيلاً وحقيراً بحجم البطة. قواعد المنظور تقول على الفرعون أن يكون صغيراً والكاتب كبيراً، لكني لا أقبل هذا، ففرعونُ إلهٌ والكاتبُ تافهٌ. الإله لا يكون بحجم البطة مهما كان رأي فناني عصر النهضة وأساتذة الرسم.

ألا ترونَ أنَّ المنظورَ حوَّل الرسَّام إلى كاميرا؟ الكاميرا لا ترى بل تسجِّل. الفرعون العملاق -حتى وإن كان في خلفية الصورة- يظلُّ ضمن منظورٍ آخر: منظور إنساني وديني. عندما أكون على ميعادٍ مع صديقٍ وألمحه يأتي من بعيدٍ، الكاميرا تسجِّله بحجم الذبابة والمنظور يعطيه طولَ البعوضة، فهو بعيدٌ وفي أوَّل الشارع، لكنِّي أراه صديقي الذي أعرفه. أراه طويلاً ولا علاقة لأبعاده بالبعوض أو الذباب أو حتى البط. كان لي قريبٌ قال له الطبيب لا تشرب إلَّا في المناسبات، رأيته خارج محلٍّ خمورٍ بصحبة زجاجة فقلتُ: يا ترى ما المناسبة؟ قال: سأشرب اليوم وقلَّ أنت أي مناسبة، وسأشرب من أجلها. قلتُ: تعويم الين؟ قال: هي كذلك.

ما هي مناسبة الكلام في شتيمة المنظور؟ لا أدري، ولكن لنقل إنَّ الحطَّ من شأن المنظور هنا يأتي بمناسبة اعتقال عبد المنعم أبو الفتوح.

زمان الموسيقى وموسيقى زمان

هذا الأسبوع قرأتُ سؤالاً لا أريد أن أحتفظ به لنفسي. أضحكني إلى حدٍّ أنني قررتُ مشاركتكم فيه لتعمَّ البهجة ويشيع السرور. السؤال ذكيٌّ جداً لأنَّ السائلَ يفتعل فيه حماقة لا تتأتَّى لهبنقة نفسه. السؤال يقول:

إذا كانت فرقة سيمفونية واسعة مكوَّنة من مائة وعشرين عازفاً تستطيع عزف السيمفونية التاسعة لبيتهوفن في ساعة وعشر دقائق، كم من الوقت سيستغرق عزف نفس السيمفونية لفرقة من ستين عازفاً فقط؟ ألا ترونَّ معي أنَّ هذا المستوى من الحماقة مفتعلٌ وأنَّ وراءه عقلاً في منتهى الذكاء والقدرة على الإضحاك؟ في عروض السيرك، الذي يمشي على السلك العالي ويتعثرٌ ويستعيد توازنه بالكاد، هو أكثر مهارة من الذي يمشي مسافة السلك مستقيماً. ادعاء التعثر والغباوة ليس سهلاً. عوداً إلى الفرقة السيمفونية. صرنا نعرف أنَّ عددَ العازفين في الأوركسترا نتاج الميزانية والتمويل وليس لدواعي الصوتيات والفنِّ بالدرجة الأولى. اكتشفْتُ هذا وأنا أشاهد منشدَ مواويل مصرياً في محطة تلفزيونية عربية غنية، يغني ووراء فرقة موسيقية فاجنرية الأبعاد (نسبة لفاجنر)، خمسون كماناً وعشرة فلوتات وأوبوات ونحاسيات

ووتريات وآلات إيقاعٍ لا حصر لها، كلُّ هذه الآلات تعزف بالتكاثف جملة موسيقية بسيطة تتكرَّر طول الوقت تقول «تتم تتم تم» والمغني يرقع بالموال. حتى آلات الكمان تعزف بالنقر على الأوتار لا بالقوس. الأوركسترا كلُّها تصير آلة إيقاعٍ مثل الدف.

الأوركسترا التي رأيتها بصحبة مغني المواويل تصلح لأداء مقدمة أوبرا تانهويزر لفاجنر بكلِّ بطئها وسعتها، لكنَّ الأوركسترا لا تزيد على ترديد «تتم تتم تم». أصحاب المحطة يريدوننا أن نعرف أنَّهم أثرياء ويملكون أن يشغلوا مائة عازف ولو ليصاحبوا متقال القناوي.

في موسيقى زمان كان التخت المصاحب لأم كلثوم مكوَّنًا من خمسة إلى ستة عازفين. وكان الأداء لائقًا بموسيقى صعبة المرامي وواسعة المساحة لذكريا أحمد. ومرَّت بضعة عقودٍ ورأينا وردة وعبد الحليم كلُّ يقف أمام أوركسترا فيها أكثر من خمسين عازفًا.

هذا عن موسيقى زمان، أمَّا عن زمان الموسيقى فإنَّ المؤلف لا يستطيع أن يملئ زمان العزف بدقة، هناك مساحة تستخدم حسب فهم قائد الأوركسترا ومزاجه، لكنه لا يتجاوز العشرة بالمئة من الزمن القياسي.

وأذكر أنَّ ناقدًا خبيثًا علَّق على تباطؤ أوركسترا في أوبرا تانهويزر فكتب يقول «في الثامنة مساءً بالضبط بدأ العزف، وبعد عشرين دقيقة من الموسيقى السماوية الخارقة الجمال، تطلَّعتُ إلى ساعتِي فوجدتها تشير إلى الثامنة وخمس دقائق».

موسم الحمق وزبيدة

من ضمن الحماقات الكبرى التي يرتكبها الإنسان بشكلٍ دوريٍّ هي تلك الناتجة عن القراءة الخائبة والقياس الفاسد تمامًا. فاسدٌ بمعنى أن ترى فأراً يأكل ورقاً فتستنتج أن فلاناً عاملٌ مجدٌّ ومتفانٍ، كما سنرى. الحماقة الدورية التي أتحدث عنها وقعت الأسبوع الماضي. الحكاية هي أنَّ البي بي سي أعدتْ ونشرتْ تقريراً عن الاختفاء القسري في مصر، ومواضيعٌ ملحقة عن حقوق الإنسان والتعذيب وبقية المتلازمات المعروفة. التقرير أتى على ذكر مختفين ومسيجونين. ظهرتْ في التقرير امرأةٌ حكَّتْ عن اختفاء ابنتِها، وتُدعى زبيدة منذ نحو عامٍ.

بعد أيامٍ من نشر التقرير استضاف الإعلام المصري زبيدة المذكورة في تقرير البي بي سي، التي قالت إنها تعيش بسلام مع زوجها وليست موقوفة لدى السلطات. كلُّ هذا ممكنٌ ومعقولٌ، ويؤشِّر على وجود خطأ ما لدى البي بي سي أو الإعلام المصري. الحكاية لا ينبغي أن تذهب إلى أبعد من هذا.

القياس الفاسد أطلَّ برأسه فوراً. كان لابداً متحفّزاً ينتظر، فما كلُّ يومٍ يُسمَح بارتكابِ حماقة. فور ظهور زبيدة انطلقت الأقلام والإذاعات تقول «لا يوجد اختفاءً قسريٌّ ولا تعذيبٌ ولا معتقلون». كلُّ هذا لأنَّ زبيدة تعيش مع زوجها ولم تختفِ قسريّاً. هذا الإسقاط الشاسع اللا معقول له صدى ورواج. وأنا لا أتحدّث عن صحافة حمقاء وكتّابٍ سفهاء ومهاترين، بل عن أقلامٍ لها باعٌ ورؤساء تحرير. يبدو أنّ الناس صارت لا تطيق حدثاً محدوداً، وتريد لكلِّ شيءٍ دلالاتٍ كونية.

في عام ٢٠٠٤ سرّت مهماتٌ ولغطٌ عن أنّ القوات البريطانية المشاركة في غزو العراق منغمسة في اعتداءاتٍ وأعمال تعذيبٍ ضد مدنيين عراقيين. انطلق سباقٌ بين أشهر المتنافسين في الصحافة الصفراء لنشرِ كلِّ جديدٍ في هذا السياق. هنا، نشرتُ الديلي ميرور صوراً لجنودٍ بريطانيين يركلون ويهينون عراقياً معصوبَ العينين.

سرعان ما اتّضح أنّ الصورَ مزوّرة وأنّ من يظهر فيها ممثلون. كتيبة القياس الفاسد هبّت فوراً لتقول لنا «لا يوجد تعذيبٌ وسوءٌ معاملةٌ للعراقيين»، لمجرد أنّ صورَ الديلي ميرور مزيفةٌ.

لنتصوّر أنّ موظفاً سيئاً يجتمع به مديره ليوبّخه. المدير يتهمه بالكذب والاحتيال والنشاط في ساعة الخروج فقط. أثناء كلام المدير يلاحظ الموظف فأراً في ركن الغرفة يقرض ورقاً. يقول للمدير هناك فأراً يا سيدي في الغرفة. لا يصدّقه المدير لكنّه يدقّ النظر فيرى الفأر يقضم الملفات فيقول: «هناك فعلاً فأراً. يا عزيزي أنتَ صادقٌ ومجدّدٌ في عملك». هذا منطقُ المتعاملين مع موضوع زبيدة.

لافتات ودلالات

هذا الأسبوع استمتعتُ بفيلمين لمخرج واحد اسمه ألكساندر بين. أحببتُ المخرج ولو بشيءٍ من النرجسية؛ أحببتهُ لأنه يشبهني في شغفه باللافتات. عمومًا، لستُ وحيدًا في هذا (أي في حبٍّ من يشبهني) فقد شهد الأسبوع خطوبة مغنٍ مشهورٍ لامرأة تشبهه. والروائي الإنجليزي إيفلن ووه تزوج امرأة اسمها إيفلن وصار اسمها بالزواج إيفلن ووه أيضًا، وأظنه أحبَّ فيها اسمها الذي هو اسمه.

الفيلمان من أفلام الرحلات وقطع المسافات الشاسعة بالسيارة في الولايات المتحدة. ورغم التضاريس والمسافات لا يفوت المخرج ملاحظة اللافتات. إشارات الطريق ولافتات عيادات الأطباء في المدن وأسماء الكنائس والشوارع وكل شيء.

في كلِّ مدينة أو بلدٍ أزوره أسعى للتعرف عليه من لافتاته: حس النكتة، الذوق في الخطوط والألوان وخصائص أخرى. اختيار اسم المحل يخبرك شيئًا عمّن اختار الاسم. القاهرة تضحُّ بأسماءٍ ونعوتٍ مبالغٍ من قبيل: ملك الكفتة وأمير الكبدة. تجد عربة فول مكتوبًا عليها بكلِّ استعلاءٍ «إن خلص الفول أنا مش مسؤول».

في القاهرة أيضًا هناك محلٌ يبيع ملابس حُجر النوم الخليفة شيئًا ما (لأنجري) اسم المحل «دلّعني دلّع شخلعني شخلع»، وهذه لافتة تبعثُ على الابتسام مهما كان يومك وكان مزاجك، وتنبؤك أنّك في مدينة تحبُّ أن تضحك. صاحب محل الخضراوات في أي مدينة في العالم حين يريد أن يقول إنّه خَفَضَ سعرَ الفجل سيستخدم تعبيرًا ويوظف خطأ وحجم لافتة كلّها تشي بثقافته.

في الطريق الجبلي بين بيروت ودمشق وفي موسم الثلوج حين يكون لزائمًا عليكِ السياقة ببطءٍ وحذرٍ، أذكر أنني رأيتُ لافتةً كبيرةً تقول: أسرع ولا يهَمِّكَ أبو راجي يجي يلمِّك. وواضحٌ أنّ أبا راجي يملك شركة انتشال سيارات محطمة.

في زيارتي للمنطقة العربية أحرص على أن أصطحب ابني المولود في إنجلترا، أريده أن يرى الأشياء وهي في طور التصنيع. الطفل هنا لم يرَ طرشيًّا يُعمَل أو قميصًا يُخاط أو دجاجة تُذَبَح. كلُّ شيءٍ يراه على رفٍّ في السوبرماركت: الدجاجة وبرطمان الطرشي. كنتُ أصطحبه للفرجة في حارة طويلة في القاهرة فيها ورشاتٌ ومحلاتٌ: محل تجليد كتبٍ ودكان طرشي وأيضًا «سلخانة دجاج وبط وخلافه».

هلع الصبي لرؤية ذاك المزيج المفزع من الريش والدماء. في المحل هذا يذبحون دجاجًا وبطًا وإوزًا وحمائمًا، وهناك صُراخٌ وريشٌ يتطاير ومشهدٌ مفزعٌ حقًا. لمحل الرعب هذا اسمٌ طبعًا. سألني ابني ما اسم هذا المحل فقرأتُ اللافتة، وترجمتها له بأمانة؛ كان اسم المحل «جنة الطيور».

لا نملك أسبوعنا

الإنسان قد يملك قوتَ يومه لكنّه لا يملك يومه. هناك أيامٌ لا نملكها وتتحكّم في إدارتها قوى أخرى أو أحداثٌ. أسبوعنا هذا من النوع الذي لا نملكه. مهما حاولتُ أن أفكر وأفكر من طوق حدث الأسبوع لا أقدر. أسبوعنا هذا أسبوع ستيفن هوكينج. البشرية كلّها تفكّر فيه. لعلّ هذا هو المقصود بعبارة «يلقي بظلاله». عالم الفيزياء الكونية يلقي بظلاله على أسبوعنا.

هذا رجلٌ وجوده نفسه، أو لنقل مجرد كينونته، يعني أشياء وأشياء. جسمه وشكله ركامٌ بشريٌّ حقاً، يشبه سيارة تعرّضت لحادثٍ مريع. لا يمكنني حتى تخيل جسمه، إعاقته تفوق خيالنا وتكشف محدودية قدراتنا على التصوّر. في داخل هذا التشويه المريع يوجد عقلٌ ثاقبٌ ساطعٌ. يرى ما لا نراه ويفهم ما لا نفهمه. وهذا بالذات ما جعلني أحبه وأجعله أيقونة لي.

كان ردّاً حيّاً ودامغاً لمقولة أو حكمة أكرهها. كان وجوده ردّاً بليغاً على مقولة «العقل السليم في الجسم السليم»، وهي حكمة أدركتُ سُخْفها منذ أن سمعتها طفلاً. صدّعوا بها رؤوسنا، وكم تنصدع الرؤوس بسبب المقولات الحمقاء.

ننظر حولنا فنرى أصحاب الأجسام الرياضية السليمة في المدرسة وهم مجموعة من البلطجية الأغبياء. معلّم التربية الرياضية كان يستقطب كلّ بليدٍ مؤذٍ ما دام يركض بسرعة ويعتلي الحصانَ الخشبي ويقفز من فوقه بيُسْرٍ شديدٍ. هذه قدراتٌ لا تفيد إلّا من يريد أن يصبح حرامياً يقفز فوق الأسوار، ويركض بسرعةٍ تطارده صفاراتُ الشرطة. هذه قدراتٌ ينفرُ منها العقلُ الرشيدُ فضلاً عن العقلِ السليمِ.

الطلاب البارعون في المسائل العقلية أجسامهم عادية جداً. التلاميذ الذين يجيدون البلاغة والتعبير ضعفاءُ البنية، وكذلك الضالعون في الحساب. الأوغاد فقط عندهم أجسامٌ سليمة بشكلٍ استثنائي. يكفينّا النظر إلى أصحاب الأجسام السليمة في الألعاب الأولمبية فترة انتظارهم دورهم في القفز والركض وما شابه. أعمالهم على الملأ وشاشاتِ التلفزيون كلّها بهيمية وغريزية من بصاقٍ إلى مقذوفاتٍ من الأنف. راقبوا الجميع ولن تروا عقلاً سليماً واحداً.

المبهر في هوكينج أيضاً أنّه لم يخلد لأمجاد نظرية الانفجار العظيم أو الثقوب السوداء، بل ظلّ يستنتج وي طرح أفكاراً مذهلة حتى موته. تذكرون أنّ أينشتاين قال ما يريد عام ١٩٠٥ وبعدها قضى خمسين عاماً يعبث ويلعب.

أرقى مرتبة في الفيزياء هي ما يُعرَف بكرسي إسحاق نيوتن في جامعة كامبريدج. أذكر أنني قلتُ لصديقٍ إن هوكينج يشغل كرسي إسحاق نيوتن. فقال: «لم أكن أدري أنّ نيوتن كان معاقاً».

ليس لكل سؤال جواب

ما كل سؤال يستوجب إجابة. عندما يغني ناظم الغزالي «أي شيء في العيد أهدي إليك يا ملاكي؟» لا يتوقع أحد أن تنهال عليه اقتراحات من قبيل: إيشارب، قلادة، حذاء، جواباً على «أي شيء أهدي؟» سأل الغزالي هذا السؤال جماهير عربية بالآلاف، ولم تصدر إجابة من أحد ولا حتى اقتراح بإهداء زجاجة عطر.

في الستينيات شاعت أغنية في العراق يفتتحها المغني بتوجيه سبعة أسئلة للمستمع، السؤال تلو السؤال دون فسحة لالتقاط النفس إذ تقول «الحلو من لاقاه؟ من شافه؟ من حاكاه؟ يا ربع من يمكم ما مر؟ ولا سألكم؟ عني أنا شقال لكم؟ ما قال لكم أنا أهواه؟».

هناك شيء مضحك في إجابة الأسئلة التي لا تريد جواباً. شيء من البلادة أو البراءة حسب الوضع لكنه شيء مضحك على كل حال.

هناك فيديو على يوتيوب لصبي في الثالثة، اسمه موسى، تفرعه أمه لأنه بعثر بودرة على السرير. الأم تستخدم الأسئلة البلاغية التي لا تريد جواباً، والصغير يجيب ببراءة على كل سؤال فيبدو الأمر مضحكاً.

الأم تقول، مثلاً، كيف سأنظف هذه البعثة؟ والسؤال هنا بلاغيٌّ أو خطابيٌّ وليس سؤالاً يبحث عن إجابة، لكنَّ الصبي يجيب أمّه قائلاً «هكذا»، ليرشدها إلى طريقة التنظيف وهو يظنُّ فعلاً وببراءة مضحكة أنَّها تطلب منه الإرشاد والتوجيه.

الفيديو مضحكٌ حقاً ولمن يريد أن يراه أن يكتب كلمات بحث «موسى الماما» وسيجده. وهناك أغنية مضحكة يُراد لها أن تكون حزينة ومحرّضة، لكنَّ فيها إجابة على سؤالٍ بلاغيٍّ يمسح الأثر الحزين ويجعل المستمع يضحك لمجرد أنَّ الأغنية تجيب سؤالاً لا يفترض أن يُجاب.

حرق المراحل

كان جليسي في الطائرة المتجهة إلى بلدٍ عربيٍّ، رجلاً من ذلك البلد الذي أقصده، بل ومن أعيانه والمبرزين فيه. الرحلة طويلةٌ ونحن نتقاسم شغفاً بالمعرفة بدا بلا حدودٍ. هو يريد أن يعرف كيف يعيش المغتربُ في بريطانيا، وأنا لا أشبع من طلب معرفة البلد الذي أقصده.

تشعّب الحديثُ، ولسببٍ أو لآخر بلغ بنا الكلامُ أنَّ جليسي قال بشيءٍ من الزهو «في بلدنا كلُّ شارعٍ له اسمٌ، وكلُّ مبنى في الشارع له رقمٌ». وأنا لأنني مجاملٌ إلى حدِّ النفاق رحْتُ أبدي دهشتي من أنَّ للشوارع أسماءً لكي أسعدَ رفيق رحلتي. رحْتُ أردّد عباراتٍ من قبيل «يا رجل قُل كلامًا غيرَ هذا. الشارع له اسمٌ مثلي ومثلك؟ كيف بالله عليك؟» فقال بفخرٍ وابتسامته تتسع «هو ما تسمع».

طلبتُ تفسيراً لهذه الظاهرة الشاذّة، فقال: إذا أراد المواطن الإسعاف أو الشرطة أو المطافئ، فلم يعد مطلوبٌ منه أن يصفَ ويستطرّد ويضيع الوقت في وصف الموقع، وكيف أنّه يقع بعد مبنى دفع فواتير الكهرباء والانعطاف يميناً لدى مخابز الأفراح ويميناً مرة أخرى لدى صيدلية الشفاء. أسرع وأدق أن يقول ٧٨ شارع طلال بن سلمان مثلاً، وستصل الإسعاف أو الشرطة أو المطافئ.

لاحظتُ أنَّ ذهنَه لم يستطعَ تفسيرَ وجود عنوان سوى للاستدلال على الموقع لدى الجلطة الدماغية أو السطو المسلح أو الحريق. لم يكن يتصوّر أنَّ للعنوان استخداماتٍ كثيرة على رأسها البريد، لكنني تذكرتُ أنَّ هذه الدول التي لديها آخر التقنيات وأحدثها وأحسن الاتصالات وأحدثها، لكنَّ البريد لا يصل إليك بل تذهب أنت إليه وفق نظام صناديق البريد.

أعرف دولاً لم تتوصّل إلى ما وصلت إليه دولُ الحداثة الثرية هذه. هناك دولٌ ذات اقتصاداتٍ أضعف بكثيرٍ لكنَّ فيها «بوسطجي» يصل إلى القرى والنجوع ويحمل رسائل وفواتير. دعاوى المحاكم لا يحملها البوسطجي بل «المحضر» الذي تتشائم منه النساء باعتباره نذير الطلاق. والآن تطوّر المسلمون واستغنوا عن الأوراق الشرعية. وأعرف فقيهاً كبيراً وداعية طلق زوجته برسالة نصيّة من الموبايل، وهذا من قبيل تجديد الخطاب الديني.

الدول الثرية ذات الأجهزة والتقدّم التقني الفظيع قفزت من الاتصالات شبه المعدومة إلى الإنستجرام في بحر عقود قليلة في مهرجان حرق مراحل كبير. هذه دولٌ احترق فيها البريد فيما احترق من مراحل، لكنَّ البلد الذي أحرق مرحلة أهم في تطوره الولايات المتحدة، التي يُقال عنها إنّها انتقلت من مرحلة الهمجية إلى عصر الانحطاط دون المرور بالحضارة.

أولاد الحرام

في صباي المبكر كنتُ مُغرَمًا بأغنية ما زلتُ أراها جميلة عن غزالٍ ضائعٍ. الغزال هذا يُفترَضُ أنَّه استعارة عن حبيبٍ، لكنَّ عقولَ الصغار لا تستوعب نظامَ الاستعارة ولا تتعامل بالكنائية وتفهم الأمور كما هي في ظاهرها، تفكيرُهم ضربٌ من الفقه الظاهري المتشدد.

الأغنية، مثلاً، تمضي لتخبرنا أنَّ الغزالَ سافر إلى طنطا، ونحن نتخيَّلُ غزالًا في محطة قطار قابضًا بفمه على أوراقٍ نقدية ومنتظمًا في طابورِ شراء التذاكر. بعدها لا شكَّ أنَّه سيطبق فكيه بقوة على تذكرة قطار إلى طنطا. وعندما يأتي مفتشُ التذاكر أثناء الرحلة يمدُّ الغزال رأسه مقدِّمًا التذكرة. المفتش ينتزعها من بين فكي الغزال وينظر فيها ويعيدها بأن يدسها بين فكي الغزال المسافر.

صاحبة الغزال تتعقِّبه باحثة عنه، وفي نهاية كلِّ مقطعٍ من الأغنية تقول: يا أولاد الحلال تايه مني غزال. تناشد أولادَ الحلال دون غيرهم أن يدلُّوها على الغزال على اعتبار لو أنَّ أحدًا ذاهبٌ إلى عمله، مثلاً، ورأى غزالًا سيتذكَّر أين رآه. الغزلان نادرة في شوارع المدن. أنا لم أرَ غزالًا واحدًا في حياتي في أي مدينة.

في خاتمة مسرحية العرائس: الليلة الكبيرة، تظهر امرأة تبحث عن طفلتها التي ضاعت في المولد، وتقول: يا أولاد الحلال بنت ضايعة طول كده. والأطفال في بلادنا يضيعون أكثر من أوروبا. لا أعلم سببًا محددًا لهذا ولكن ربّما لأنّ العائلة لدينا فيها أطفالٌ كثيرون بحيث يصعب رصدُهم كلّهم كلّ الوقت، أو ربّما لأنّ أسواقنا مزدحمة أكثر من أوروبا، ويمكن أن يكون التفسير ببساطة هو أنّ أطفالنا سفهاء.

مهما يكن الأمر، المرأة صاحبة الغزال والأخرى أم البنت الضائعة، تناشدان أولاد الحلال، وهذا ما أستغرب له. عندما نطلب العون والنجدة من الناس نناشد أولاد الحلال على أنّهم فئة متميّزة في المجتمع. المشكلة هي أنّ مجتمعاتنا مستورةٌ محافظةٌ، وجميع من تراه في الشارع مولودٌ داخل مؤسسة الزواج. فما معنى مناشدة أولاد الحلال بالذات وليس هناك أولاد حرام؟

مجتمعاتنا مكونة من أولاد حلالٍ، إلّا إذا كنت تصدّق الإنجليز الخبثاء الذين يقولون «لا أحد يعرف أبا الطفل سوى الأم». رغم هذا، أولاد الحرام هنا معلنون ووجودهم اعتيادي ويشكّلون على الأقل خمسين بالمئة من المواليد. وقرأتُ أنّ أولاد الحرام يشكّلون الأغلبية الواضحة في بعض بلدان أمريكا اللاتينية.

عندما تكون في بريطانيا وتفقد شيئًا لا تناشد أولاد الحلال فلن تستجيب لك سوى الأقلية وتحرم من نجدة أولاد الحرام وما أكثرهم.

عالم جديد مهمل

قبل أعوامٍ انتهتُ لمسألة. كنتُ أنفُرج على فيلمٍ ظهرتُ في افتتاحية مشاهدته مدينة في الليل شوارِعها مزدحمةٌ ومضاءةٌ بشكلٍ فاجرٍ بضروبِ أضواء النيون الراجفة والمتحركة. وهناك إعلاناتٌ نيونية لأفلام فوجي وصورة مضاءة للكولونيل ساندرز العجوز (مؤسس دجاج كنتاكي) مبتسمًا ممتلئًا بذاته ومبتهجًا بما ذبح من دجاج. ظلَّت المشاهدُ تترى لخمس دقائق كاملة وأنا في حيرة من أمري؛ هل المشاهد من بلجيكا أم اليابان أم شيكاغو؟ لا أحد يعرف.

مضى زمنٌ كنتُ أستطيع فيه تحديدَ المكان أو على الأقل القارة في اللحظات الأولى: مصابيح الورق في اليابان ومصابيح الغاز الغارقة في الضباب في أوروبا ومصابيح الطريق عالية الإضاءة في أمريكا. ولو أنَّك أردتَ الاستهداء إلى المكان من ملابس الناس لما عرفتَ. ستجد جمهورًا غفيرًا يمضي في كلِّ الاتجاهات من مرتدي الجينز والتي شيرت ذكورًا وإناثًا. لا فساتين مطرزة ولا جلابيات ولا ربطات رأس مزركشة، لا شيء ينبئ بثقافة معينة. عالمٌ رماديٌّ مضجِرٌ، عالمنا اليوم. مسيرة التقدم والاندماج لا تتباطأ، فضلًا عن التوقُّف كما أتمنى. أريد عالمًا ملونًا؛ عالمًا به الفول والطعمية في القاهرة والشاورمة في

الشام والكتاكي والماكدونالد في أمريكا والفسح أند تشبس في لندن. لا أريد كتاكي في كلِّ بقاع الأرض. لو تعلمون كم هي بغیضة صورة الكولونیل ساندرز وبدلته البیضاء المضاءة في حي الجمالية في القاهرة الفاطمية. أرجو أن تقاسموني كراهيتي للكولونیل وابتسامته المتشفية من الدجاج المسكين. وأنا متأكدٌ أنَّ دجاج العالم كله يبغض هذا الكولونیل المسؤول عن عمليات إبادة جماعية.

سلسلة المطاعم السخيفة هذه لا ينطق الزبون القاهري اسمها صحيحًا إلا بعد ثلاث محاولات، اثنتان منها فيهما تلفظ بكلمتين بذيئتين. أضف إلى المأكولات الشريرة، هذه علب كوكاكولا لتكتمل الصورة، وهذه العلب تطاردك في بلد الإقلاع وبلد الوصول وعلى متن الطائرة أيضًا.

هذا التقدُّم والتواصل والتحوُّل إلى قرية عالمية يجيء محملاً أيضًا بأسماء غريبة. تجد «عطفة» في القاهرة ربما كان اسمها عطفة صميده لكنها اليوم اسمها إنتركونتيننتال. هذا الاسم شريرٌ يستعصي على الباعة الجائلين في انحرافة الشارع تلك. أذكر بائعًا أراد أن يقول الكلمة لكنه لم يفلح. قبل أن يحاول قول إنتركونتيننتال كان يغمض عينيه ويتنفس بعمق كمن يستعد لأن يقفز ساقية. ثم يتعوّذ من الشيطان ويطلقها فتخرج «انتر كون تي تي كاول» فيتوقّف ويعاود الكرّة دون نجاح. ظلَّ يحاول «انتر تي تي تلال» و«انتر كوننني تكتال» وهكذا إلى أن يئس وانكسر. هزمته العولمة.

وداعاً للمطوّع

كان السائد في إنجلترا أوّل معرفتي بها، في السبعينيات، شراء الحليب من «الملّكمان» (بيّاع الحليب) الذي يطوف منذ ساعات الصباح المبكرة على البيوت مقدّمًا زجاجات الحليب الطازج والبيض والخبز والزبدة أيضًا.

الملّكمان شخصية ملء العين والوجدان: طلقُ اللسان، بشوشٌ وضاحكٌ وينثر النكات لإضحاك ربّات البيوت. وهو يجيد التحدّث إلى النساء بلغتهنّ ووفق اهتماماتهنّ. وهو أيضًا، في بعض الأحيان، كاتمٌ أسرارهنّ في القمار والرهان على سباقات الخيل ونتائج مباريات كرة القدم. يطوف على ربّات الحجال الإنجليزيات ويدفعن له ثمن الحليب والبيض وما تيسّر من رهان على نتيجة مباراة أرسنال وليفربول السبت المقبل.

وبلغ ارتباط بيّاع الحليب برّبات البيوت أنّ المرأة إذا ولدت طفلًا جميلًا يقولون لها «يا شيطانة، من هو بائع الحليب الوسيم؟» نعم، الملّكمان متهمٌ بقلّة الأدب أيضًا.

انكمش حضور بائع الحليب تدريجيًّا مع اتساع السوبر ماركت وعبوات الحليب الرخيصة. وكاد الملّكمان أن يتحوّل إلى واحدٍ من معروضات المتاحف المحلية، حيث يأخذ الأب ابنه في عطلة نهاية

الأسبوع ليقول: هذا هو الملكمان وكان يجيئنا بالحليب كلَّ صباح. لكن هذا لم يحصل. انتبه الناس إلى قُرب استحالة الملكمان إلى شيءٍ من التاريخ فتلافوا الأمر وعادوا، ولو جزئياً، إلى الشراء منه، وظلَّ بائع الحليب يسعى وأراه كلَّ صباح.

لكنَّا للأسف لا نتدارك المهن المُهدَّدة بالانقراض من ندَّاف القطن إلى دقَّاق النحاس إلى الروَّاف الذي يسمُّونه في مصر الرفَّاء. وقد استحال أصحابُ بعض هذه المهن إلى شيءٍ من التاريخ فعلاً، وصاروا دُمي من الشمع ألبسوها ملابس تقليدية ووضعوها في المتحف. في المتاحف دائماً يسرفون في فولكلورية الملبس؛ ألم تلاحظوا أنَّ دُمي المتاحف كلَّها تشبه رئيس أفغانستان السابق حميد كرزاي؟ واضح أنَّ كرزاي أرادته وزارة الخارجية الأمريكية أن يبدو أفغانياً تقليدياً، فصار أفغانياً من وجهة نظر السِّيَّاح.

لكن ما كل الوظائف يريد لها الجمهورُ البقاء. أراقب التغيرات في السعودية ويبدو أنَّها ستؤدي إلى نهاية «المطوَّع»، ولا يبدو أنَّ أحدًا يكثرث لغيابه، بل إنَّ القطاع الأوسع يريد له أن يتحوَّل إلى شيءٍ من التاريخ، ولكن لا يريدون له حتى الظهور في المتحف.

والمطوَّع هذا فردٌ بلحية صحية ودشداشة ضامرة، له وظيفتان يقوم بواحدة منهما ويُهمل الأخرى؛ المفروض أنَّه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لكنَّه يحب أن ينهى عن المنكر فقط. لم أسمع أنَّ مطوَّعاً قال للناس: هناك رجلٌ مُقعد هلاً ساعدتموه على عبور الشارع.. سنودِّعه قريباً ولن يأسف على فراقه غيري.

لا تحزنوا لهم... إنهم سعداء

مؤخرًا شاهدتُ فيلمًا اسمه «مشروع فلوريدا» وأحببته لأنَّ القائمين عليه يفكِّرون مثلي. نحن نرجسيُّون ونعجب بمن يشبهنا، مهما زعمنا عكس ذلك. الفيلم يقدِّم الطفولة على أنَّها أيامُ سعادةٍ جامحة، يقدِّمها كما لم تُعد السينما تقدِّمها منذ عقود. السائد اليوم هو أنَّ الفنَّ يجب أن يعالج الانتهاكات والتعاسة والشقاء الذي يعيشه الطفل.

الفيلم يقدِّم أيامًا من حياة ثلاثة أطفالٍ فقراء في فلوريدا، من الذين يسمونهم «المهمَّشين». أبناء أمهاتٍ عزباوات يعتمدن على الضمان الاجتماعي وما يقدِّمه المحسنون والبعض من فضلات المطاعم. لكن الأطفال وسط كل هذا يجرون ويضحكون ويتخيَّلون ويعبثون. الفيلم يتنبه إلى مسألة مهمَّة وهي أنَّ الشقاء في تفكيرنا ومخيِّلتنا وتقديرنا، أمَّا الأطفال فسادرون يضحكون.

الفيلم تدور أحداثه في عُطلة الصيف، وأبطاله الصغار لا يمتلكون حتى لعبة كمبيوتر، ما عندهم سوى «الصياغة» حتى المساء. يذكِّرون بما لاحظته طه حسين في «الأيام» حيث يتساءل كيف كان هو وصديقه المكفوفة البصر مثله، على محدودية عالمهما، يقضيان أيامهما في ضروبٍ من العبث بحيث لا يتسع النهار كُلُّه لعبيهما.

الفيلم يعطينا فكرة جيدة عن العبث الحقيقي. تصوّروا إنساناً يستمتع بهزّ قدمه اليمنى حتى يسقط منها صندلُه. وتصوّروا مجموعة بشرية تمضي وقتاً جميلاً في البُصاق من الدور الأول على الزجاج الأمامي لسيارة في المرآب بالدور الأرضي. يذهبون إلى مزرعة قريبة فيها بقرتان ويقنعون أنفسهم أنّها حديقة الحيوانات. وهكذا يمضي اليوم.

سعادتهم في فلوريدا ذكّرني بالدرب الأحمر في القاهرة. هناك خطرت ببالي الفكرة التي صنعوا منها هذا الفيلم الشيق. كنتُ أَسْكَعُ نزولاً من قلعة صلاح الدين إلى درب الأحمر في منطقة غارقة في شعبيّتها. وفي ذات الحارة المُترّبة كانت ثَمّة مساحةً صغيرة من الأرض غير مبنية. ومن يترك فسحة دون بناء يكون كمن وجّه دعواتٍ إلى ناس الحارة بأن يرموا مخلفاتهم فيها.

وسط الأتربة والأوساخ كان هناك صبيّان عمرهما بين الثانية والثالثة يلعبان بالزبالة. كانا عاريين لا يكسوهما سوى التراب وقد فعلت بهما الشمس فعلها؛ تغميق البشرة وتفتيح الشعر بالأكسدة. خداهما يلمعان مما جفّ عليهما من دموعٍ ومُخاطٍ. أطفال الفقراء خدودُهم تلمع لمعان الصدف وباطن المحار بسبب غِشاء الدموع والمُخاط.

كانا يهيلان التراب والأوساخ فوق رأسٍ بعضهما وبضحكان بتدفّقٍ مثل ماسورة مياه مكسورة. حزنْتُ وسخطْتُ وتخيّلْتُ التراخوما وأنواع الرمد التي تنتظرهما. لكنّ ضحكهما المتواصل جعلني أبتسم أولاً، ثم رحْتُ أضحك ثم صرْتُ سعيداً بما رأيْتُ.

اللهم اشف مرضانا

يبدو لي أحياناً أنَّ الحكومات تحب الجهل، وتتمنى تفشي الأمية والخرافة. الأكثر جهلاً أسهل انقياداً. وقد سمعتُ مرّةً عبارةً منقولة عن راعٍ من الرُّعيان يقول: «أخطر ما في الوجود خروفاً له القدرة على التفكير». وهذا موجودٌ حتى لدى الأنظمة الديمقراطية ولكن بدرجة أخف بكثيرٍ.

في كلِّ المجالات، الجهل يوفّر على السلطة أموالاً لأنّه يتيح لها عدم الإيفاء بالتزاماتها دون أن يدرك أبناء الشعب حقوقهم ومستحقّاتهم ومقدار الخلل في الأداء الحكومي.

لندع التعليم والمواصلات ولننحدّث عن الصحة. الحكومات مبهتجة لسيادة الجهل وانتشار الوصفات القائمة على قشور البطاطس والبصل الأخضر. ويبدو أنَّ السُّلطات تشجّع على هذا الهُراء فهو يعفيها من إنفاق الملايين على الأطباء والمستشفيات والأدوية. شعارهم «ما حاجتنا إلى توفير العلاج الكيميائي والبلد مملوءٌ بقشور الرمان المثبت أنّها أنجع من الكيميائي؟».

ولا تنسوا قشور الموز المسودة لتفادي الأمراض كافة. الآن وفي بلدٍ كان متقدّماً علمياً مثل العراق يتناقل المواطنون الآن نصيحة دسّ البصل الأخضر في الجُورب وشُرب ملعقة زيت زيتون على الريق، للتخلّص

تمامًا ونهائيًا من السكري. أمّا العيادات والفحوصات والأدوية، فهذه ندعها للحمقى والمغفلين من إنجليز وألمان الذين ينفقون المليارات على العيادات والأدوية وباقي تلك الترهات.

رويدًا رويدًا تتدهور منظومة العناية الصحية، ويتعشّش قطاع القرنفل المغلي والعدس الأصفر؛ أدوية يدفع ثمنها المواطن من جيبه. وتزداد ثقة الناس بهذه الوصفات كلّما اشتطت في غرائبيتها وقاربت آفاق الشعوذة. لا ننسى أنّ الدجالين في الريف يطلبون دجاجة سوداء، مثلاً، لتعزيز قدرة زبونتهم على الحمل والإنجاب، وهم في الواقع سيطبخون الدجاجة لعشائهم بغض النظر عن كونها حمراء أو بيضاء أو سوداء، لكن اختيار اللون الأندر يجعل الوصفة أكثر مصداقية.

من فوائد هذا التطبُّب أنّ بالإمكان استخدامه كحُجّة لتناول المحظورات أيضًا. في مصر ذات الشعب «المتدين بطبعه» كما يُقال، هناك وصفاتٌ طبية قائمة كلها على استهلاك الكحول على أساس أن لا حرج على المريض إن كان في الويسكي شفاؤه. ومصر لها نصيبها من السكيرين مثل بقية البلاد.

كنتُ في رحلة في مصر وكان الجالس جانبي يجيب على هاتفه النّقّال، وسمعته يقول بوقارٍ بعد أن اكتسب هالة الحكيم العارف «هل الألم في الجانب الأيسر» ثم «في هذه الحالة فودكا سмирنوف» وفي مهاتفة أخرى «إذا كان السُّعال جافًا فعليك بالبلّاك أند وايت، أمّا إذا كان رطبًا فما عندك غير الجوني ووكر».

حزنتُ لكثرة المرضى ولم أملك سوى الدعاء لمرضى المسلمين.

احذروا المسابقات

«لا تُوقِظْ كلبًا نائمًا» وفي تعبيرٍ آخر «دُعِ الكلب النائم في سُباته». هذه حكمة تقليدية إنجليزية تشبه ما نقوله في حضارتنا من أَنَّ الفتنة نائمةٌ لعن الله من أيقظها. لا أعلم لماذا أفضل حكاية الكلب النائم، ربما لأن بالإمكان تخيُّله وتخيُّل فظاظته لدى الاستيقاظ قبل أن يشيع نومًا.

لا أعلم لماذا اختاروا الكلب ليكون مضربَ المثل وليس القط، مثلاً، أو حتى رئيس عرفاء الفصيل في الجيش، مثلاً، ولا حتى طبيب الأسنان. أقول لا أحد يحب أن يوقظه أحدٌ. أنا خصيصاً أحاول التملُّص من مهمة إيقاظ أي أحد حتى أقرب الناس. أعرف أن من توقظه سيكرهك حقاً ويتمنى موتك خنقاً، والأفضل على يديه.

أذكر هذه الحكمة كلما سمعتُ عن مسابقة. التنافس والتسابق يوقظان الكلاب الغافية بعمقٍ. تجد شعوباً متعايشة وكلُّ يروح ويجيء في دربه، فيقيمون بينهم مسابقة على هذا الكأس أو ذاك فتندلع الأحقاد وتفورُ الصدور. أنا شخصياً ما كنتُ أصدق، لولا ما سمعته بأذني، تراشق السباب الصادر من مصر والجزائر في كأس العالم السابق. شاهدت وسمعت سباً صادراً من القاهرة يرمي شهداء الثورة الجزائرية بأبشع النعوت.

يومها قيل إنَّ كرة القدم تستهوي العنف والجلافة لدى المشجعين.
لكن ما قول أصحاب هذا الرأي في الأحقاد التي تندلع سنوياً، وشاهدناها
أول من أمس، في مسابقة الأغنية الأوروبية التي قوامها الطرب والثني
والرقص وكلُّ شيء جميل.

الصداقة والود لا ينموان في ظلَّ السباق والتنافس. لاحظوا أنَّه حتى
في المدارس الابتدائية، في أثناء يوم السباقات السنوي، تنشب أحقادٌ
بين من هم في السادسة من العمر في الصف الأول. هؤلاء يركضون في
سباقٍ سخيفٍ اسمه الملعقة والبيضة حيث يحمل المتسابق ملعقة فيها
بيضة ينبغي ألاَّ تقع أثناء الركض. حتى في هذا السباق سيكون هناك فائزٌ
واحدٌ وأربعون ناقماً وحقوقاً.

هذه هي العلة في المسابقات: أنَّها تفرز فائزاً سعيداً واحداً وعشرات
الخاسرين الغاضبين الحزاني. يعني أنَّ المسابقة بتعريفٍ آخر هي فعالية
بشرية لإنتاج إنسان مبتهج لكلِّ مائة ناقمٍ أو أكثر. ومع هذا لا يزالون
يردّدون أنَّ الألعاب الأولمبية تقام «من أجل إرساء المحبة والسلام بين
الشعوب» في حين لا يوجد وسيلة أنجع لإشعال الحرب، مثل المباراة
«الودية» لكرة القدم بين السلفادور وهندوراس عام ١٩٦٩.

لهذه الأسباب أتمنى أن تحمل كلُّ مسابقة، مهما كانت رقيقة
وجميلة مثل تنسيق الزهور، تحذيراً بحروفٍ بارزة مثل التحذيرات على
علب السجائر «احذروا المسابقات فقد تؤدي إلى الدمار والشقاء».

هل هذا عدلٌ؟

الإنسان ينشد العدالة دائماً، ويعتبرها طبيعية مثل الشمس ودائمة الوجود، ويعتبر الغبن استثناءً بغيضاً يَمَحِي بالوجوب. ويذهب البعض إلى أبعد ويرؤن أنَّ العدلَ يتحقَّق ولو في الآخرة، ويسعون إلى الآخرة هرباً من الظلم في الدنيا، ويحاولون تسريع الوصول إليها عبر حزام ناسفٍ. هنا يصير نِشْدان العدل مخيفاً وسنبتعد عنه إلى مسارٍ آخر.

لكنَّ هناك عدالة لا يحكمها منطقٌ أو عقلٌ، ولا تتحقَّق رغم إيمان الناس بها. يؤمنون بها ولا يقولون خشية أن نضحك على سذاجتهم. القناعة هذه تراود كلَّ ذهنٍ ولا يفصح أحدٌ عنها. بشكلٍ أو بآخر، نعتقد أنَّ ليس من الإنصاف أن تكون اللقمة التي يلتهمها الإنسان واقفاً في المطبخ مثل لقمة يأكلها من طبقٍ أمامه وبيديه شوكة وسكينٌ وهو جالسٌ وحول عنقه فوطة لئلا يتسخ قميصه. أصحاب الريجيم والسكري خصوصاً يعتقدون أنَّ لقماتٍ كهذه لا يحسبها الجسمُ.

وهناك من يصوم ويغضب لأنَّ من يتلع ستيمتراً مكعباً من الماء يُعدُّ فاطراً شأنه شأن من أكل نصف دجاجة مشوية وتشكيلة سلطات مع دورق ماء مثلج. أين الإنصاف أين؟

ومهما نشرح يظلُّ الذي يأكل واقفًا لا يصدِّق أنَّ الأكل وقوفًا ومن
آنية الطبخ في المطبخ هو أكل حقًا، لكنَّه يتظاهر بتصديقك. فالتقناعات
في هذا العدل راسخة لا يززعها منطقٌ أو حُجة. الأكل واقفًا غيرٌ مريحٍ
ومن العدل أن نُكافأ لدى أي إزعاجٍ أو ضررٍ.

في بغداد كان هناك صبيٌّ يصعد الحافلة معي كلَّ صباحٍ في طريقه
إلى المدرسة. كان لا يكلُّ من طلب يتقدَّم به للجابي (الكمسري أو قاطع
التذاكر) مفاده أن يعطيه تخفيضًا في سعر التذكرة إن هو قطع الرحلة
واقفًا على رجلٍ واحدة. وفي كلِّ يومٍ يرفض الجابي طلبه ويعنِّفه على
هذيانه، لكنَّه يعود في اليوم التالي بنفس الطلب ويواجه بنفس الرفض
والبهذلة. هذا دليلٌ على إيمانه الراسخ بأنَّ العدلَ يجب أن يتحقَّق مهما
طال الزمن، لكن ولا داعي للأحزمة الناسفة التي تزعج الناس.

ومن العدل أن من يطلب القليلَ يجب أن يحصل عليه. روى لي
صديقٌ كان يعمل مترجمًا غير دائم في السفارة العراقية في لندن في
الثمانينيات. كانت الدولة أيامها تبعث الفقراء إلى بريطانيا لتلقي العلاج
وصديقي يرافق المرضى مترجمًا. جاء رجلٌ وامرأة يشكوان العقم.
فحصهما المختص وقال لا أمل لهما. قال الرجل لصاحبي «ترجم له،
نحن لم نطلب تسعة أطفال، نريد ولدًا واحدًا فقط». يحيا العدل.

حسب الله ونعمة الوكيل

العالم في حركة دائبة: ولا يريح ولا يستريح. ثمة أشياء تستحدث وأشياء تختفي كلَّ يومٍ، ونحن نستقبل ونودع. تستحنا معارف آنية ومعلومات هائلة تحت تصرّف أطراف الأنامل وهي مشاعة ومذاعة وفي متناول حتى الأطفال. إزاء هذا الوافد الجديد ودّعنا اللقالق. كيف؟ سأوضح. كان الأوروبيون والأمريكان، ومنعًا للخرج يزعمون لصبيتهم الصغار أنّ طائر اللقلق هو الذي يجيء بالأطفال حديثي الولادة ويُلقِي بهم في البيوت من فتحات المداخل. وكان هذا التفسير مقبولاً لدى الأطفال في عصر ما قبل المعرفة التي تقع تحت سيطرة أطراف الأنامل ويمكن ادعاء المعرفة في جزءٍ يسيرٍ من الثانية. الآن الأطفال بينهم آباءٌ وهم بعد في المرحلة المتوسطة، والبنات من نفس الفئة العمرية يمكن أن يعملن قابلات ومأذونات. وقد شاهدتُ فيلمًا إسبانيًا عن جيل الآباء والأمهات الصغار اسمه «وداعًا أيُّها اللقلق».

الذي يثير الشجن هو اختفاء وظيفة في الصحافة قلنا لها وداعًا دون أن ينتبه أحدٌ: وظيفة محرّر صفحة بريد القراء. بريد القراء في صحيفة الأهرام وبريد الجمعة خصوصًا كان حدثًا ننتظره طول أسبوعٍ. بقية الصحف ما كان عندها بريدٌ قراءٍ جيّدٌ بسبب تدني أرقام التوزيع وسوء

خدمات البريد. وقد بلغ هُزَال صفحة بريد القراء حَدَّ أَنْ الصحفَ لم تُعدَّ تخصص لها محرِّرًا بل يتناوب على تحريرها الزملاء إضافة إلى عملهم.

في مناوبتي جاءتني رسالةٌ ساخطة من حایل السعودية التي تقع في اللا مكان لكن تمرُّ فوقها الطائرات. كاتب الرسالة غاضبٌ من أنَّ فنانة أَسْمَتْ حيوانًا أليفًا باسم أحد الرسل والأنبياء. اختتم الكاتب رسالته اللاعنة بتساؤلٍ أبْتَسِمَ له إلى اليوم، قال «خبروني ما ديانة هذه الفاجرة، هل هي أردنية؟».

بعد هذه الرسالة اقترحتُ اسمين لصفحة بريد القراء أولهما: «وقفة مع الأنذال»، والثاني «الأوغاد يكتبون» ولم يحظَ أيُّ من المقترحين بموافقة رئيس التحرير الذي يحب قراء مطبوعته ويكنُّ لهم الاحترام.

الآن وبوجود الصحافة الرقمية توسَّعت قارئية الصحف والمجلات، وصار يسيرًا جدًّا إبداء الرأي عبر الكيبورد دون ورقٍ وطابعٍ بريديٍّ. لكن ناتج هذه العملية منحطٌّ. الكيبورد يدعوكم لتدوين الأفكار غير المطبوخة. بسبب هذا تقرأ ردودًا يحاول أصحابها تضمين عبارتي «غول الأسعار» و«جشع التجار» لكنَّ التحدي كبيرٌ وينتهي بهم الحال، بعد عُصابٍ وخمسة سجائر وثلاثة أكوابٍ شايٍّ، إلى كتابة جملة مصحوبة بحسرة تقول «حسبي الله ونعم الوكيل».

لكثرة ما أسمع الاحتساب في مصر بالذات صرْتُ أسمع الجملة اسم زوجين: حسب الله ونعمة الوكيل.

العشق والتضحية

صرنا في الأسبوع الثالث من رمضان وهو زمنٌ لا هنا ولا هناك، كما يقولون. اختفى الانتشاء بمواعيد الأكل الجديدة والمسلسلات واضطراب روتين عامٍ كاملٍ، ولكنَّ العيد لم يقترب بما فيه الكفاية ليشغل الوقتَ والتفكيرَ. في وقتٍ كهذا أمامك أمران: إعادة ترتيب مخدّات الاتكاء على الكنبّة الكبيرة أو التفكير في شعر الغزل والعشق العربي والأوروبي والمفاضلة بينهما. ويبدو لي أنَّ هذا هو الاختيار الطبيعي والبدهي لمن رمضانَه في أسبوعه الثالث.

أول ما يلفت النظر هو أنَّ الأوروبي يتحدّث دائماً عن الأهوال والمخاطر التي يستعدُّ لمواجهتها عن طيب خاطرٍ لكي يتحقّق اللقاء، بل إنَّ هناك من يصل إلى حدٍّ مواجهة المدفعية والاشتباك مع أنواع الضواري وفي مقدمتها التنين «من أجل نظرة واحدة من عينيك». هذا فضلاً عن عناء السفر وأهواله وقطع البحار السبعة والظلمات من أجل الحصول على تلك النظرة الموعودة.

تجشّم العشاق جزءاً من الغزل الأوروبي منذ القرون الوسطى. إلى يومنا هذا تقول الأغاني الأمريكية، مثلاً، «سأتبعك إلى يوتاه» أو غيرها من الولايات الأمريكية المنقطعة والمعزولة. «من أجل نظرة و/

أو غاضبة من عينيك» أو «لأجل أن أفكّ ضفيريّتك»، وهنا يرد التطوع لواجهة المدفعية العثمانية في سباستبول.

المحبُّ العربي غير هذا تمامًا. لقاء الحبيبة محسومٌ وما فيه عناءٌ وشقاءٌ فهذه، كالعادة، أمور من نصيب المرأة. العربي منذ زمنٍ طلب اللقاء مشفوعًا بفعل الأمر «تعالِي» ألاّ تتبهون إلى كثرة استخدام تعاليّ في قصائد الحب؟ لا أحد يقول للمحبِّ «لماذا لا تذهب أنت؟».

الحكاية التي رواها الأصمعي عن المحبِّ الكسول تبدو صحيحة وممكنة. يقول الأصمعي إنّه رأى شابًا في جنوب بادية العراق قد أحاله العشقُ إلى كتلة من الشوق، ملتفًا بكسوته ينشد قائلاً:

سألتُ الله أن يأتي بليلى وكان الله يفعل ما يشاءُ
فيأخذها ويطرَحُها بجنبي ويرقدُها وقد كشف الغطاء
ويأخذني ويطرَحُني عليها ويرقدُها وقد قضي القضاءُ

هكذا يكون الحبُّ وطلب اللقاء. والعربي ليس جبانًا بل هو سبع هراش لكنّ سيفه وفرسه ليسا للتوافه من الأمور مثل الحبِّ والشوقِ والنساء، بل لإدراك الثأرِ وصون شرف القبيلة. لكنّ المحبَّ يفترس الحبيبَ من الموت. لا يفترس الحبيبة من الموتِ بنفسه بل ينبِ آخرين يموتان بدلها وينجو هو، يزجُّ بأمّه وأبيه ليموتا من كثرة عشقه هو. ويقول للحبيب يا غصن نقا مكللاً بالذهب؟ أفديك من الردى بأمي وأبي.

صيف قاهري

قضيت في القاهرة صيفًا قائظًا بعد غزو العراق بنحو عام. قضيتُ الصيفَ بأكمله في القاهرة من أول نزول المِشمش حتى نفود التين. البدايات والنهايات لكلِّ الأمور تُقاس بالقول من الألف إلى الياء إلا الصيف الذي هو المسافة بين المِشمش والتين. تخلَّلتُ ذاك الصيف ثلاثُ نوبات تسمُّ كالعادة المتسبِّب فيها التقى والورع والشعب المؤمن بطبعه. هذا رأيٌ يحتاج إلى تفسيرٍ.

الزَّهْدُ عدو التبذير. من يرمي بالطعام الصحيح سيروح للنَّار ربَّما. والطعام نعمةٌ وبركةٌ. حين يفسد الطعام يجب أن يكون فساده واضحًا للعين المجردة، مثل الرؤية الشرعية للهلال. فبمقدار ما أننا لا نستطيع الاعتماد على التلسكوب في رؤية الهلال، فإننا لا نستطيع الاعتماد على الميكروسكوب لرؤية الجراثيم والبكتيريا. ويبدو أنَّ الجراثيم والفيروسات في مصر ضخمة وملموسة إلى حدٍّ أنَّ عالمًا مصريًا تعهَّد بتحويل فيروسات المصابين بالتهاب الكبد الوبائي إلى أصابع كفتة.

ومن بقايا ذلك الصيف أغنية تقول «بص بص بص» لنانسي عجرم، أعطت ذلك الصيف طعمًا ومذاقًا. وفيه حقَّقتُ الرأسمالية نجاحًا بدا نهائيًّا وأبدئيًّا بغزوها للعراق بأساليب القرن التاسع عشر. وصار

أصحاب المصالح الصغيرة، مثل سعيد المكوجي يرى أنّه صار على مسافة قصيرة جدًا من مايكروسوفت وبيل جيتس.

كان الرجل يرى فيّ صانع جسور إلى أمجاد الرأسمال. كان يحادثني عن مشاريع واستثماراتٍ بخصوص تطوير دكان المكوجي إلى مولاتٍ ومجمعاتٍ اعتمادًا على تطوير الكفاءات التي لديه والتي لا تتجاوز سبعة صبية من أبناء السبيل أو الأيتام. كان هو يرأسهم ويطعمهم ويوفّر لهم العجلات للإتيان بالملابس لغسلها وكيّها.

كان في سعيد المكوجي شيءٌ من شخصية فيجن في رواية أوليفر توست؛ إذ يعطف على الأيتام ويستغلّ عمالتهم. ومما يضحكني فيه هو استخدام ألفاظ رأسمالية عالية مثل «الاستحواذ والاندماج وتدوير رأس المال» وما إلى ذلك.

كان يذكرني بدولتين عربيتين صغيرتين جدًا وقع بينهما شقاقٌ ونزاعٌ في أواخر الثمانينيات فراحت تلك الدولتان توظفان لغة الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في صراعٍ بائسٍ مضحكٍ. حتى كلمة «منشق» عادت للظهور على نحوٍ هزليّ.

هذه صورة لأي صيفٍ كلّها ألوانٌ وضجيجٌ وشغبٌ. الشتاءات وقورة وداكنة وصامتة لكنّها أيضًا تتكرّر بشكلٍ مملٍّ. بعض الثقافات تمنع في تمسّكها بالصيف. هل رأيتم صيفًا مملًّا؟

الصيف سهلٌ تذكره واستدعاؤه. لكن لكل صيفٍ خصوصية وإن تشابهت في النزق والصخب والسّفه في القاهرة بالذات.

معاهدة فيينا

التعلُّم مسيرةٌ طويلةٌ تبدأ في الصِّبا المبكر وقد لا تنتهي أبداً، عالمٌ كاملٌ من المفردات والاصطلاحات والأفكار تنتظر الطفل في خطواته المتعثرة الأولى وتلازمه حتى يبلغ الثمانين أو المئة. ومع كلِّ الكلام المبهج عن غرس القدرات التعبيرية والإنشائية وكيف أنَّ الحياة قفزاتٌ لا تنتهي بين أقواسٍ وردية طازجة، نجد الإنسان محكوماً في تلعثمه الأول بـ«لا» الناهية؛ يتعلَّم الإنسان المحظورات والممنوعات قبل كلِّ ما هو خلاقٌ ومبدعٌ.

ينفق الطفل شهوراً يتعرَّض فيها للردع الخالص الذي ما فيه شوائب من تصوُّر بناء أو فكرة جميلة؛ «لا تأكل»، «لا تركض»، «لا تحك»، وهكذا. هناك طبعاً مرحلة تعلُّم الكلمات من قبيل «قُل ماما» و«قُل بابا» وكلمات تافهة مثل هذه، رغم أنَّ الطفل مستعدٌّ لتلقِّي أيِّ شيء وكلِّ شيءٍ. وأذكر أنَّ صديقي ترك معي حفيده ذا السنة ونصف السنة لأتمِّم ما بدأه الجدُّ من تعليم «ماما وبابا والثلاجة». فكرت أنَّ الطفل ما دام مستعداً لترديد أيِّ شيء وتعلُّمه فلماذا نملاً رأسه بالترهات ونقول ثلاجة فيقول غاغا؟ وهكذا، حزمتُ أمري وقررتُ أن أعطيه علماً جديداً. ثم رجع

الجدُّ إلى الغرفة ووجدني أعلمَ حفيدهَ عبارة «أبرمت معاهدة فيينا...». كنتُ قد قررتُ أنَّ الطفلَ ما دام قادراً على ترديد أي شيء فلماذا لا يقول شيئاً ذا بال؟

غني عن القول إنَّ فكرتي عن استعجال التعليم العالي لم تكن موفقة والأطفال يفضلون البطة والكرة على المعاهدات وتواريخ إبرامها.

وبعد شهورٍ من تراكم الكلمات وإنفاق الوقت والجهد على تعليم الطفل الكلام والمشي دون أن يسقط، وحين يبدو طليق اللسان، رشيق الحركة، يتلقَّى التقييم الأول لجهوده في تعلُّم المشي والكلام ويكون التقييم: «أخرس وأجلس دون حركة».

الغريب أنَّ الإنسان بطبعه يحبُّ القيودَ والانصياعَ؛ الطفل منذ الولادة يكره الحرية ويحب القماط، وحين ينمو تنمو معه رغبةٌ في دسِّ الأشياء في الأماكن الضيقة. كلُّ من لديه سيارة صغيرة تدخل في علبة ثقب سيضعها فيها. والمكان الضيق أحلى من القصر المنيف، ربما لأنَّ المكانَ الضيق فيه شيءٌ من الرحم.

بهجة دسِّ الأشياء في أماكن ضيقة تبلغ ذروتها في علاقة الدسِّ الغريبة تلك بين السَّبَّابة والمنخر. هذه لذة يكشفها الإنسان في سنِّ تكوينه ولا يستطيع أن ينفك عنها، ومهما يُقال في ذمِّ عادة دسِّ الإصبع في منخر الأنف لا يأبه أحدٌ، ويظل يتحيَّن الفرصَ لدسِّ إصبعه هناك، بل إنني سمعتُ طفلاً يقول إنَّ منخر الغوريلاً كبيرٌ لأنَّ إصبعه كبيرة.

هيا بنا نفجر

كنّا صِغارًا. على الصغار أن يتعلّموا شعراً وفق قاعدة تقول «رووا أولادكم الشعر». لم نكن نتعلّم شعراً فعلاً، بل هو ضُرب من النّظم البسيط وضعه أستاذةُ كِبَارٍ مثل كامل الكيلاني والهرابي. من هذه القصائد كنّا مغرمين بأنشودة تقول «يا قمرًا كالشعلة المنيرة... ما أنت إلّا كرة صغير». وبهذا تعلّمنا منطق «ما هو إلّا» القاتل الذي يفسد الرؤية للحياة ويخرب المفاهيم والمعاني.

عندما يكون الشيء «ليس سوى» أو «ما هو إلّا» تنعدم الحياة وتموتُ الاحتمالاتُ وتسود عقليةٌ جذباء لا تستطيع أن ترى شيئين في آنٍ واحدٍ. بمعنى، ما الذي يضيرنا لو أنّ القمر كان كرةً صغيرةً وأيضاً شُعلة منيرة. لكنّها عقلية الاستبداد في «ما هو إلّا». هذه الأنشودة عن القمر كانت محبّبةً لدينا؛ ففيها علومٌ وفيزياء ورجولة. هي من الأناشيد القليلة التي كانت بين أيدينا وما بها ذكر لقطة أو بطة أو حمامة، أجواؤها رجولية تدعو إلى الفخر.

ربما تقولون إنّ «ما هو إلّا» أسلوبٌ في التعبير لا أكثر، وإنّني أحمله فوق طاقته عمقاً وفلسفة. لكنّ أساليب التعبير تنتج المفاهيم والمعاني، وتصير عملية تربوية بحيث نتعلّم الاستبداد من تعابير بسيطة. وهنا أذكر

أنَّ الرافعي، المفكر المستبد، خلص إلى أنَّ الحضارة الغربية «ما هي إلَّا فجورٌ وخلاعة»، وهو رأيٌ أصوله نابتة في «ليس سوى».

لاحظ أنَّ هؤلاء يروُن الحضارة الغربية دون أبعادها وشمولها بحيث لا يروُن نيوتن وجاوس وباخ وفولتير، بل يروُن مجموعة أثقل لسانها الخمرُ منصرفة في آخر سهرة بعد أن انتهت من وضع أسس الفكر الغربي.

ما كان أسهل للحاق بالغرب والتفوق عليه بمجرد التجمهر واحتساء زجاجات النبيذ وإطلاق ضحكاتٍ فاجرة بعد منتصف الليل.

لا شكَّ أنَّ الرافعي قد وقع على سرِّ الكون والحياة والتقدم، وأودع هذا السرَّ في جملة دسَّها في إحدى مخاطباته. وربما كان متأكدًا من أنَّ الإنسانية ستحتفظ بها سرًّا خبيثًا، فلا أحد يقرأ الرافعي على كلِّ حالٍ.

والآن وقد كشفتُ لكم سرَّ النجاح والقوة وكيفية الحصول عليهما عبر تقليد ما وصل إليه الغرب بالسَّفه والطيش، صار علينا أن نرمي جانبًا كلَّ النظريات والجداول والقراءات المرهقة ونستعيض عنها بالخلاعة وقرع الطبول وهزِّ الأكتاف والأرداف للحصول على أفضل النتائج.

هنا أستمحكم المعذرة بأننا بصدد تطوير نظائر مشعَّة تعطينا طاقة لا تنضب، وهذا الاختراع يتطلَّب دقًّا وطبلاً ومجموعة حسنة الصوت تغني «بالذي أسكر من عذب اللمى»، فمعذرة.

ذبابه على أنف قاضٍ

نعيش أحياناً تجربة لا نستطيع أن نكتمها نظراً لطرافتها؛ نرى رجلاً وقوراً مهيبَ الطلعة، يترجّل بأبهة من سيارته الباذخة ويقع أرضاً منطرحاً على وجهه، نكتم ضحكنا ونحفظ المشهد لنرويهِ للآخرين، ففينا طبعٌ إنسانيٌّ أصيلٌ يدفعنا إلى أن نظرف الناس.

لكننا في معظم الأحيان نتلقّى ضحكاً فاتراً مفتعلاً، هذا لأنّ آنية الحدث لا تنتقل، تظل حبيسة المشهد نفسه: الألوان، الظلال، الحرارة وأكثر من مائة عاملٍ آخر أسهمت في خلقِ الحدث. وحتى الذين ضحكوا من رواية الحدث كان ضحكهم مكوّناً من سبعين في المئة مجاملة وثلاثين في المئة بلادة.

نقل الحدث للآخرين صار أمراً معقداً ومركباً، ولم يعد مجردَ جُمْلٍ وعباراتٍ من كلماتٍ وأفعالٍ مضارعة ومبنيّة للمجهول. صار عندنا واتساب وإنستجرام وسناب شات، عدّد ما شئت من تقنيات تنقل الحدث بالصوت والصورة. ومع هذا نظلّ نتمنّى أن يكون المستمع قد شهد الحدث معنا، ونقول عباراتٍ من قبيل «لا بُدَّ أن تكون معنا لتضحك حقاً».

الفئة الغالبة في مجموعة ناقلي الحدث هي من الذين لا يستطيعون الرواية ولا ترتيب الأفكار ولا حُسن البداية وحُسن الختام. الروائيون يُحسِنون نقل الحدث فهذه مهنتهم وهي ما اختاروا أن يكونوا.

من خارج فئة الروائيين أعرف أناسًا وددتُ لو كانوا رُواة لا يكتفون بنقل الحدث بشكلٍ واضح، بل يهتمُّون برصد التفاصيل كذلك. وأذكر أنني أعددتُ تقريرًا عن شخصية الملك الراحل عبد العزيز بن سعود.

قرأتُ كلَّ ما كتبه عنه غربيُّون وشرقيُّون، لكنَّ امرأةً أمريكية كانت الوحيدة التي لم تغفل أن تذكر الملك كان به عرجٌ خفيفٌ في ساقه اليمنى. وأعرف أيضًا فتاة كانت إذا قلت لها شاهدتُ حادثًا مروِّعًا راحت ضحيته شابة في مقتبل العمر، فستقول «وماذا كانت تلبس حين صدمتها السيارة». هكذا يكون الراوي الحقيقي.

وعرفت رُواة بلغوا من كمال القدرة أنني لا أتخيَّل الحدث دونه. على رأس هذه الفئة يقف الجاحظ. فهو يستطيع أن يشغلَّك بحكاية كاملة عن قاضٍ لا يريد أن يفقد هيئته في مجلس القضاء وقد حطَّت على أرنبة أنفه ذبابة كسولة، فراح يحاول أن يطردها دون أن يحرك يديه حفاظًا على الوقار. وأخذ يحرك ويقلِّص عضلات وجهه ليطرد الذبابة فاتخذ وجهه أشكالًا كوميدية لا وقار فيها على الإطلاق. والجاحظ يستطيع أن يمسك بالقارئ كلَّ هذا الوقت بين دفتي قصَّة تافهة يصعب على غيره إضحاك الناس بها على مدى أكثر من عشرة قرون.

لعلكم تفهمون

ما أسهل الإتيان بحكمة؛ إذ إنَّ كلَّ ما يتطلَّبه الأمرُ هو القليل من الكلامِ الذرب والكثير من الهراء. ولا أدري لماذا يتوقَّع الإنسانُ حكمةً ممَّا هو غريبُ الطباع. يعني مثلاً الناس لا تتوقَّع حكمةً من رجلٍ مشهورٍ في الاقتصاد والحنكة ولكن تتوقَّعها من رجلٍ تائهٍ شبه مخدَّرٍ.

وتزداد قناعتنا بنجاعة الحكمة كلما اشتطَّت في غرائبيتها. وفي هذا نَمَتْ سِمةُ أقوالٍ ما أنزل الله بها من سلطانٍ بدعوى عمقها وحكميتها. ومن أبرز المستفيدين من ادِّعاء الحكمة أذكر الهنود الحمر والرهبان البوذيين.

قُلْ أيُّ هُراءٍ ولكن بصيغة كلام الهنود الحمر أو رهبان التبت، فسيستحيل الهُراء أمام عينيك نبعاً صافياً من منابع الحكمة. قل شيئاً مجنوناً لا معنى له مثل «أنَّك لا تستطيع أن تحلبَ الحصان ما لم تقدر على ركوب البقرة»، ستجد من يردِّد القول على أنَّه عبرة قديمة غابرة رغم أنَّك قد ألَّفتها للتو. ولك أن تصنَعَ المئات من عبارات الكلام الفارغ مثل «إذا ملأت الكوب فسيرتبك الغناء»، وهكذا.

والمُلاحظ أنَّ الكلامَ الحكيمَ المتزن كهذا غامضٌ، فالحكمة عندهم تكره الوضوح وتلتمس الالتباس لكي يظلَّ كلُّ شيءٍ غير

مفهومٍ ومرتبكًا. وأحيانًا يتفق بعضُ واضعي الحكم على نسبة الحكمة إلى شخصٍ آخر يصير اتفاقًا على اتهامه بوضعها. وقد عشتُ ورأيتُ المتهمين بصياغة الحكم يتغيَّرون حسب موجة الاحترام المنسوبة إلى هذا الكاتب أو ذاك.

في صغري عشتُ عصر الأحكام الذكية المنسوبة إلى جورج برنارد شو. الكلُّ يؤلِّف ما يعنِّ له ويتهم برنارد شو بالأقوال المأثورة والطرف. ويبدو لي أنَّ هناك جماعةً بشرية آخذة في الانتشار والازدياد، لا همَّ لها سوى التقلُّل على حساب الناس. ومنهم من لا يكتفي بتأليف الحكمة بل يضع لها قصَّةً وعنوانًا على نحو «قيل لتولستوي من علَّمك التسامح والغفران؟»، فيقول الأخير «تعلَّمتُ التسامح ممن لا يتسامح». وهنا يفترض أن تغرُورق أعين السامع بدموع العبرة والانعاض.

وقد اتَّسعت دائرة الوُعَظ المزعومين، وبلغت في يومنا هذا كُتَّابًا وأدباءً وروائيين. يعني كل ما يتوسَّم فيه الحمقى من ذكاوة وحسن كلام. وفي الآونة الأخيرة جاء دور نجيب محفوظ رغم أنَّ الرجل لم يدع يومًا أنَّه حكيمٌ تنتهي عنده الحكمة وفصل الخطاب. إنَّما هو كاتبٌ يسرد حكاياتٍ رائعة. بل بلغ ببعضهم السَّفَه وقلة الاكتراث أنَّهم صاروا ينسبون إلى نجيب محفوظ شعرًا صريحًا. وإذا سألتني لماذا تصنع الأحكام الغامضة، سأقول مثل اللغز «هل قطفت وردة باردة؟».

اذبح من تريد له الازدهار

في التسعينيات، وفي ذروة الاهتمام بالبيئة إلى حد الاستعداد للقتل والحرق دفاعاً عن حياضها، وقعت أحداثٌ عنيفة من النوع الذي لا يحدث بل يُنسب. أصل الحكاية أنَّ كاتباً إنجليزياً مشاكساً عابث جنود البيئة وكتب أنَّه بصدد زيارة أستراليا وذكر، بابتسامة مأكرة أنَّه حين يزور بلدًا يتعمد أن يتذوّق طعم الحيوانات التي تعيش في ذلك البلد. وقال إنَّه متشوّق للتعرف على طعم دب الكوالا الأسترالي، الذي هو رمز أستراليا ومصدر عزتها.

هنا هبَّ حُماة البيئة والمدافعون عن الحيوان، أي حيوانٍ حتى الأفاعي، وهدّدوا بحرق الكاتب أو الصحيفة التي ينشر فيها إذا لم يتيسر الكاتب نفسه. واضحٌ أنَّ حُماة البيئة قد منحوا دبَّ الكوالا حرمةً وقدسيةً بأكثر من البقرة المقدسة لدى الهندوس.

في ذلك العقد نمتُ ضراوة أحباب الحيوان والنبات والبيئة عمومًا، وصار لهم حتى أسطولٌ يجوب البحار ويدخل في معارك وأعمال عنف مع خفر السواحل من الهند حتى البلدان الاسكندنافية.

لكنَّ غضبَ هؤلاء ورعونة ردود أفعالهم حملت الكاتب المشاكس على الإيغال في التمسك بطبخ الكوالا للعشاء. لم يكتفِ بهذا بل راح يتغزّل بلحم الكوالا والأثر الجميل الذي تخلفه في لحمه أوراق شجرة الكالبيتوس التي لا يكاد يأكل غيرها.

لكني أرى أَنَّ الأمرَ ملتبسٌ على أهل البيئَةِ وحُماة القنفاذ والثعالبِ.
فلو تدبَّروا الأمرَ قليلاً دون عُصابٍ وتشنُّجٍ لأدركوا أَنَّ الحيوانات التي
نأكلها هي الأبعد عن الانقراض.

لا أَظُنُّ أَنَّ هناك على سطح الكوكب حيواناً أبعد عن الانقراض
مثل الدجاج. لا أستطيع أن أُحْمِنَ عددَ الدجاجات على سطح الأرض،
لكني أَظُنُّ أَنَّ دجاجَ العالم إذا قَرَّرَ أن يثور ويتنفض فسيسد الآفاق عدداً
وانتشاراً.

لا أجدُ تفسيراً لازدهار الدجاج سوى طعمِهِ المستساغ وثمرِهِ
الذي هو في المتناول. حين يكتب المؤرخون تاريخَ الدجاج منذ نشأته
سيقفون عند علامة بارزة في تاريخ هذا الطائر. تلك النقطة هي لحظة
بيع أو مقايضة أول دجاجة، لغرض الأكل.

ففي تلك اللحظة الموعودة تحوَّلت الدجاجة من طائرٍ أحمقٍ
مضحكٍ إلى سلعة لها ثمنٌ. وما يكون له ثمنٌ يخرج عن نطاق وسيطرة
كل القواعد، ويصير خاضعاً لِمَا يسمُّونه «منطق السوق». بموجب هذا
يصير الدجاج محكوماً بعمليات بيعٍ وشراءٍ واسعة أكبر من الشخص
ومن أي سوقٍ منفردٍ. ما قلناه عن الدجاج ينطبق على الخرفان وأنواع
الماشية والأسماك كافة. النصيحة إذن: من أراد لأي حيوانٍ أن يزدهر
فليذبحه.

مرحباً بالضجر

هذه تحية فاضحة وتكريّم صارخ للرجال وللنساء من معلّمين ومدرسين وأساتذة مضجرين.

في عصرنا هذا اختفى الضجر من المدارس، وصار كلُّ شيءٍ في المدرسة وفي حصص الدروس مثيّرًا، بل إنّ أساليب التعليم ومناهج التربية تؤكّد في كلّ مناسبة أنّ التلميذ يجب أن يكون مستثّارًا ومبتهّجًا طيلة فترة وجوده في المدرسة، وتراجع الاهتمامُ بالتحصيل العلمي إلى الدرجة الثانية، وحلَّ محلّه طلبُ السعادة والبهجة وصارت المدارس كأنّها ديزني لاند.

اختفى أيضًا جيل المدرسين المضجرين رغم أنّ دورهم كبيرٌ في العملية التعليمية. وأنا أزجي هذه التحيات للذين ملؤوا أيامنا نكدًا وضجرًا، وأنا أفعل ذلك وفي ذهني أستاذٌ واحدٌ هو الأكثر مللًا في الكون. لا أذكر له اسمًا بل يرد في الذهن بصفته الأكاديمية، اسمه «أبو الفيزياء». هذا اللقب لا يعني أنّ أستاذنا أوجد علمَ الفيزياء، ففي العراق يُقال لمدرس التاريخ، مثلاً، أبو التاريخ وليس المقصود بهذا هيرودوتس، ولا المقصود بأبي الفيزياء إسحاق نيوتن. مدارس العراق مليئة بـ«الآباء» من أبي الجغرافيا إلى أبي الرياضيات وما بينهما.

أبو الفيزياء هذا كان مملاً إلى حدٍّ لا يمكن وصفه. وهناك إشاعة بين التلاميذ أنَّ أحدَ الطلاب اضطرَّ إلى أن يعصَّ رجله ويأكلها من كثرة الملل.

أذكر هنا أنَّ لي صديقاً ذهب للقاء مديرة المدرسة حيث يدرس أبناؤه مستفسراً عن تقدُّمهم العلمي، فأجابه المديرة «إنَّهم سعداء» وهذا يكفي. لكنَّه في الواقع لا يكفي لأنَّ الأولاد يروحون إلى المدارس من أجل التعليم والتحصيل العلمي، وسعادتهم أم عدمها ليستا في ميزان التقدُّم العلمي. كان صاحبي غاضباً حين قابلته خارجاً من عند المديرة وهو يرسل المديرة والمدرسة والمنطقة التعليمية إلى الجحيم، ولا ألومه. وجه الاحتفاء بالمدرسين المملِّين هو أنَّهم يضطلعون بمهمة أساسية في إعداد النشء لِمَا ينتظرهم من ضجرٍ مميتٍ في اجتماعات مجالس الإدارة، مثلاً.

فالذي أرمي إليه هو أنَّ الحياة ليست ديزني لاند، والملل ليس عرضاً استثنائياً، وينبغي تدريبُ الطالبِ على تحمُّل الملل ولو بقرض أظافره.

أنا شخصياً أُدين بقدرتي على حضور الاجتماعات والإصغاء إلى ما يُقال إلى التدريب الذي تلقَّيته على يد أبي الفيزياء ذاك.

المدارس اليوم مليئةٌ بالألوان والبهرج وألعاب الكمبيوتر، كلُّ هذا من أجل أن لا يحسَّ التلميذ بالملل.

خلاصة ما تحدَّثْتُ به هو أنَّني أوصي برعاية كلِّ ما هو مملٌّ ومكافأة المضجِرين من المدرسين والرفع من شأنهم.

لماذا ترامب؟

الإنسان كائنٌ وقعَ. الإنسانُ مخلوقٌ مدَّعٍ ويظنُّ نفسه مسؤولاً عن العالم وعن الكون نفسه بمجرد أنَّه موجودٌ فيه.

ينظر إلى هذا الكون الرحيب فيرى آفاقاً وأرجاءً هو مسؤولٌ عنها وعن صيانتِها، ويتدخل في وجودها ومآلاتِها بما يُرضي ذوقه هو. هذا حيوانٌ سينقرض وذاك طائرٌ سيزدهر، وهو المسؤول عن الاندحار والازدهار وكأنَّ الأرض لم توجد ولم تتنفس ولم تعيش دونه.

ويدَّعي كُتَّابٌ ومفكرون أذكياً أنَّ الكون يطالبهم بتفسير الحياة ومغزى وجود الأشياء. لكنَّ الكونَ ليس ملزماً بتفسير نفسه ولا بتبرير موجوداته سواء قَبِلَ الإنسان أو اعترض. هذا هو الرائع مارك توين يكتب مطولة ذكية يحاول فيها أن يجدَ تبريراً واحداً لوجود الذبابة، ولا يفلح. فيعود منكسراً معترفاً بأنَّ الكون هزمه.

الآن البشرية منشغلة بمحاولة تفسير ما يبدو بلا تفسير؛ إذ ظهرت على سطح الكوكب وبشكلٍ ناتئٍ وبارزٍ شخصيةٌ لا تحتمل تفسيراً منطقياً بوجودها. ذلك هو رئيس جمهورية الولايات المتحدة دونالد ترامب، صار الرجلُ حديثَ الناس وموضوعَ تخميناتهم.

لماذا شعره برتقالي؟ لماذا يقدح ويمدح الشخص نفسه في جملة واحدة؟ ولماذا يعد بالسلام ويتوعد بالحروب بنفس النفس؟

المشكلة في هذا التفكير تكمن في كوننا نريد أن تكون للأشياء معانٍ وتسويغات تناسب عقلنا في حالته الحالية. ونحن أيضًا مقتنعون بأنَّ على الكون والموجودات أن يفسِّرا نفسيهما لنا باعتبارنا مسؤولين بموجب وجودنا على سطح الأرض.

أنا شخصيًا لا أتحدَّث عن ترامب، ولا يروق لي ازدراؤه أو الضحك عليه. فهناك شيءٌ بليدٌ ومتهالكٌ في السخرية من ترامب.

هو مخلوقٌ لا يخلو من شيءٍ يسير من غرابة الأطوار وشيءٍ كثيرٍ من الحماقة. وهذا موجودٌ بكثرة.

صارت الألسن تلوك سيرته بابتذالٍ مثل تلميذٍ مشاكسٍ معنا في المدرسة نروي عنه حكاياتٍ، وحين تنقصنا الحكايات نلجأ إلى التأليف والكذب. هنا الابتذال شائعٌ ورخيصٌ. فالأفضل أن ندع الرجل وشأنه؛ فالقدح فيه رخيصٌ ولا يليق.

ونلاحظ أيضًا أنَّ الإنسانَ محدودٌ بما يعرف، وما لا نجد له تفسيرًا قد يكون له تفسيرٌ غائبٌ عن مدارِكنا الحالية، فالإنسان أنيٌّ بطبعه.

أذكر أنني رأيتُ أستاذَ تاريخِ علومٍ من جامعة أوكسفورد يقول إنَّ الإنسانَ ظلَّ قرونًا يعتقد أنَّ أرجل العنكبوت ترتفع أولًا ثم تنخفض إلى الأرضِ بشيءٍ من الإسراف الذي لا معنى له. ظلَّ يظنُّ أنَّ الطبيعة خرقاءٌ إلى أن اكتشف قاعدة التعليق suspension ليكون الجسم مستقرًا. فالطبيعة لم تكن خرقاءَ إذن. ولعلَّ ترامب له معنى.

بالذمة والأمانة

الحقيقة التي لا نعيها لكنّها تظهر وتذكّرنا بوجودها كلّ حينٍ. نحن أمة إعلانات: شعاراتنا أقرب إلى الإعلان مدفوع الأجر، خطابنا السياسي له صيغة البوستر، فلسفة الحياة كلّها مصاغة بطريقة الإعلان. أتذكّر هنا شهر رمضان. نعيش شهرًا على وقع الإعلانات التي تشكّل فيما بينها وجودًا أمدّه شهرٌ، مكوّنًا من شورية العدس والمسلسلات. أبلغ مقولة سياسية لدينا لها صيغة الإعلان. عبارة مصطفى كامل الشهيرة التي قادت التوجّه السياسي في مصر هي كلمة إعلان «لو لم أكن مصريًا لوددتُ أن أكون مصريًا». هذا بالضبط كلام إعلان ومنطق مبيعات.

المشكلة أنّنا خُضنا معارك مهمة وخسرناها لأنّنا دخلنا الصراع بمنطق الإعلان. لا نقول معارك المصير مع إسرائيل فالحديث هذا مكرّر ومملوّ. لكن لننظر إلى مشاركتنا في كأس العالم. لم نتدرب بمقدار ما وضعنا إعلاناتٍ تقول كلامًا فجًّا لا يستقيم مع أي منطقٍ سوى منطق الإعلان.

ماذا تعني عبارة «شجع بروح الفانيلا»؟ هُراء لا معنى له خارج عقل الإعلان. وهكذا بقينا طيلة فترة مشاركتنا نُعلن ونرقص ونردّد الأهازيج، والعالم من حولنا يحقق انتصاراتٍ أو خسائرٍ لكنه ليس في موقع المعلن، بل اللاعب المشارك.

وسط صخب الإعلانات لفت نظري إعلانٌ لأحد البنوك الكبرى في مصر. يقول المُعلن إنَّ هذا المصرفَ يهْمُه أكثر مما يهْمُ الحفاظ على القيم والأخلاق وما جبلنا عليه من مُثلٍ وقيم.

قبل أن نسأل ما هي القيم التي تقع حمايتها على عاتق ذاك البنك. والأهم أن نعرف كيف يتسنّى لأي مؤسسة مصرفية أن تحافظ على قيم المجتمع. أعني بأي وسيلة.

العلاقة بين حماية القيم والمنظومة المصرفية ملتوية وتحتاج إلى تفسيرٍ مأكّرٍ أعتقد أنّه لديّ. نعرف أنّ واحدةً من القيم التي أضاعها المجتمع هي الأمانة: من يجد شيئاً لا يعيده إلى أصحابه وأظنُّ أنّ المنظومة المصرفية انتهت إلى هذا فراحت تُصدِر أوراقاً نقدية تشجّع من يجدها أن يعيدها إلى صاحبها. هذا لا يتمُّ دون أن تكون النقود غير ذات قيمة. فظهرت عملاتٌ ورقية ليس الهدفُ منها التداول والبيع والشراء، بل إنّها مُصمّمة لتشجيع من يجدها أن يعيدها إلى صاحبها.

في مصر هناك ورقة نقديةٌ كاملة الأوصاف والتصميم من فئة خمسة وعشرين قرشاً. ولا أستطيع أن أتصوّر ما يمكن فعله بهذه الورقة. هذه عملة من يجدها سيجد نفسه في منتهى الأمانة يعدو خلف صاحبها يعيدها. وبهذا تظلُّ الأمانة حيّة في المجتمع، وتظلُّ الـ«٢٥ قرشاً» في التداول لا ينفقها أحدٌ.

البرقع ووحش البحيرة

لعلكم لم تتبهاوا إلى أننا دخلنا رسمياً موسم السُخف. وهو موسمٌ سنويٌّ يحلُّ مع انقراط عقد البرلمان البريطاني بسبب الإجازة الصيفية. وحين لا يكون هناك برلمانٌ منعقدٌ لا تكون هناك سياسة ولا أخبارٌ. تمتلئ الصحف بأخبار القطط ومخلوقات الفضاء وعودة ألفيس بريسلي إلى الحياة.

كان هنالك شيءٌ اسمه وحش بحيرة نيس في إسكتلندا، احتلَّ صفحات الصحف الشعبية لنحو عشرين عاماً سخيفاً، ثم ضاق الناس ذرعاً بالوحش الذي لم يره أحدٌ إلى يومنا هذا، واكتشفوا أنه من صناعة محرري الأخبار في الصحافة الرقيقة.

راح الوحشُ إذن، ووجدت الصحافة بديلاً، ذلك هو البرقع. كلُّ من يريد أن يروِّج لمطبوعته يستحدث حكاية فيها البرقع بشكلٍ أو بآخر. هذه الحيلة لم تعد ملكاً لمحرري الصحف، بل صارت ضمن ذخيرة الشعبويين يحركون بها عواطفُ قرائهم البسطاء.

صرت لا تمرُّ ببارٍ (حانة) أو مقهى دون أن تسمع نقاشاً حول ما قاله الإسلام بهذا الصدد. بل إنَّ البعض من السُّكَّيرين الإنجليز صار يعرف شيخ الإسلام ابن تيمية ويستشهد بـ «موطأ الإمام مالك».

هناك فئةٌ من الناس يطلقون عليهم «مضجري البار»، هؤلاء الذين يجالسونك دون معرفة ليستعرضوا معلوماتهم ومعارفهم إلى أن تزهق نفسك وتغادر إلى مكانٍ آخر. هناك يستلمك مضجرٌ آخر اختصاصه دوري كرة القدم وما يتوجب على أرسنال فعله ليظل في الصدارة.

كلُّ هذه الضوضاء حول البرقع تخصُّ خمسة آلاف مبرقة في بلدٍ يبلغ تعدادُ نفوسه أكثر من ستين مليون نسمة (وهذه هي الإحصائية الوحيدة المتاحة في بريطانيا). يعني أنَّ مرتديات النقاب لا يشكّلن نسبة واحدٍ في المائة، ولا واحدٍ في الألف، بل ولا واحدٍ في العشرة آلاف.

إثارة موضوع البرقع يعني أنَّه يُثار لأسبابٍ لا نريد أن ندخل في لعبة تخمينها. هذا العام آلت مسؤولية إثارة اللغط السخيف إلى بوريس جونسون، وزير الخارجية المُقال المعروف بشعبيته وقربه الأيديولوجي من الرئيس الأمريكي دونالد ترامب.

جونسون الآن لا قيمة له، ويعرف أنَّ البرقع يعطيه مَقْعَدًا في حواراتٍ تلفزيونية لا تنتهي، وسيحصل على شهرة وإن لم تتجاوز مدتها الأسبوع الواحد في موسم السُّخف.

قررتُ أن أهجر الخواطر والأفكار فقصدتُ بارًا قديمًا حديقته يتزاحم فيها الرواد. لمحتُ بيتر وكيث فاقتربتُ منهما، وقبل أن يلمحاني سمعتُ بيتر يقول بحزم «لا، لا، لا ابن تيمية لم يقل ذلك. هذا عبثٌ أضافه متأخرون...». فاستدرتُ مئتين وسبعين درجة، وتوجهتُ إلى حيث كان يجلس جون وصوته يلعلع «كان يجب الحفاظ على مارتن أونيل...». فعرفتُ أنَّ الدنيا بخير.

صور



الصورة ١: المعقل، حديقة الأندلس البصرة ١٩٦٢

من اليمين حسين علي صالح، علي صالح العكيدي (والد حسين) آمر
شرطة القوة النهرية، محمد سلمان (ابن عمه حسين)، فاضل فيضي (خال
حسين) مدير الإصدار في البنك المركزي، هيثم علي صالح (شقيق حسين).



الصورة ٢: ميناء أم قصر ١٩٦٣

علي صالح العكيدي مع أولاده حسين وهيثم.



الصورة ٣: كلية العلوم جامعة بغداد ١٩٧١



الصورة ٤: الأعظمية بغداد ١٩٧٧

من اليمين السيدة نظيمة فيضي والدة حسين معلمة في مدرسة الأصيل،
منى شبر، حسين علي صالح.



الصورة ٥: بغداد ١٩٧٨

منى شبر، حسين صالح.



الصورة ٦ : غرناطة الأندلس ١٩٨٨



الصورة ٧: إشبيلية، الأندلس ١٩٨٨



الصورة ٨: فلورنسا، إيطاليا ١٩٨٩

على المسرح مع أصدقاء إيطاليين



الصورة ٩: وينشيستر، إنجلترا، ١٩٩٠

منى، حسين، تيم الله.



الصورة ١٠: ساوثهامبتون، إنجلترا، ١٩٨١



الصورة ١١: وينشستر، إنجلترا ١٩٨٢

من اليمين منى شبر، حسين صالح، ميسون علي صالح العكيدي (شقيقة حسين الصغيرة).



الصورة ١٢: أبو ظبي

حسين و شقيقه هيثم.



الصورة ١٣: دبي

حسين وشقيقه هيثم.



الصورة ١٤: تلال مالفيرن، إنجلترا، ٢٠١٢



الصورة ١٥: بوتسدام، ألمانيا، ٢٠٠٨



الصورة ١٦: ونشستر، إنجلترا، ١٩٩٥



الصورة ١٧: جيلتنام، إنجلترا، ٢٠١٢



الصورة ١٨: هيرفرد، إنجلترا، ٢٠١٢



الصورة ١٩: لندن، ٢٠١٣



الصورة ٢٠: مستشفى وينشستر، ٢٠١٦



الصورة ٢١ : القاهرة، ١٩٩٨

تخطيطات

نماذج من أعمال حسين صالح



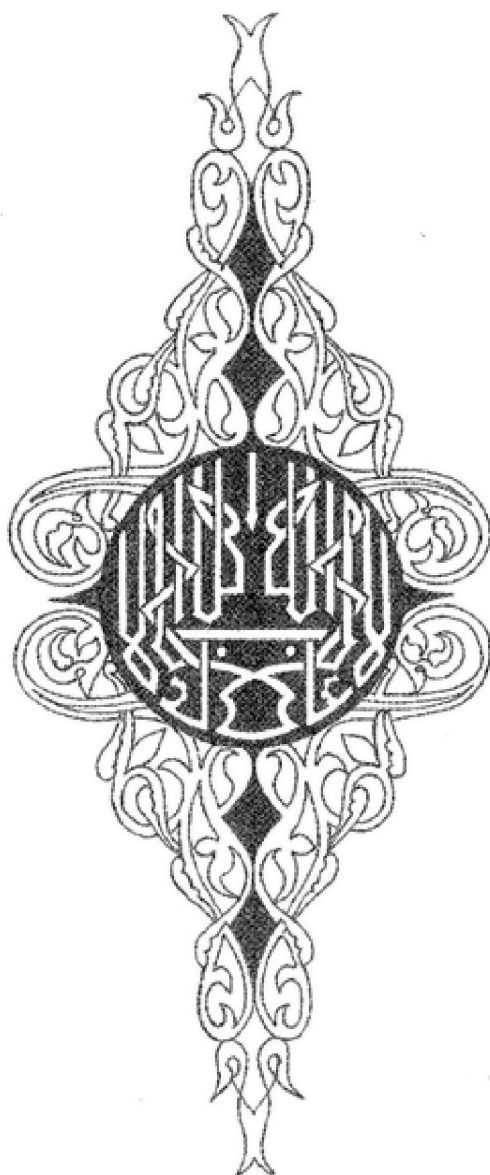
لَكَ الْكَرَامَةُ



الْعَدَنُ أَسْمَاءُ لِلْأَنْبِيَاءِ



الحمد لله وحده



لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ



هتوقا اليمعروا جفت ما قينا



